



قطاع الشؤون الثقافية



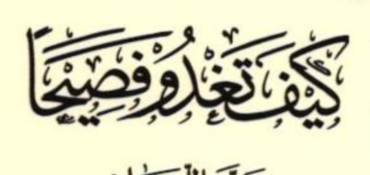
عفّ اللسان

«أدواء اللسان وعلاجها فصاحة وحفظًا»



تأليف
الدكتور محمد حسان الطيان

الإصدار
التاسع والثلاثون
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م


كيف تغدو فصيحاً
عف اللسان



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية



تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

دولة الكويت ـ في مطلع كل شهر عربي



الطبعة الأولى

الإصدار التاسع والثلاثون

١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م

العنوان:

ص.ب ٢٣٦٦٧

الصفاة ١٣٠٩٧ الكويت

هاتف: ٢٢٤٦٧١٣٢ ـ ٢٢٤٧٠١٥٦ ـ ١٨٤٤٠٤٤

فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩

البريد الإلكتروني:

info@alwaei.com

الموقع الإلكتروني:

www.alwaei.com

الإشراف العام:

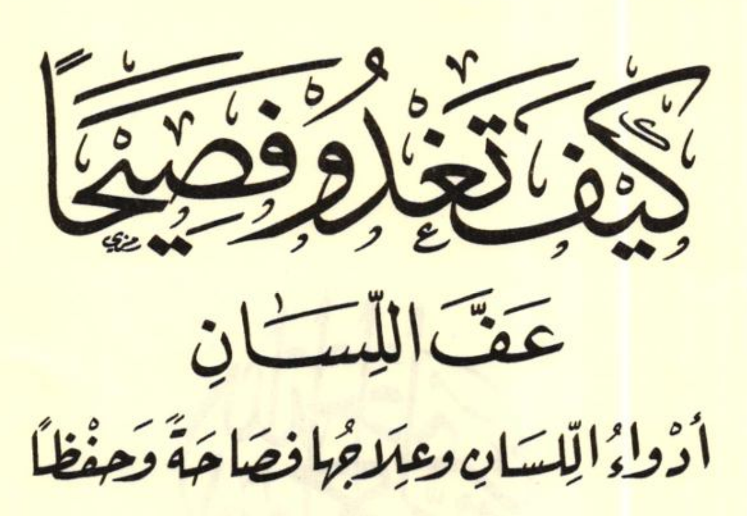
رئيس التحرير

فيصل يوسف أحمد العلي





وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية



كيف تغدو فصيحاً

عفَّ اللِّسانِ

أدْواءُ اللِّسانِ وعِلاجُها فصاحةً وحفْظاً

تأليف
الدّكتور محمّد حسّان الطَّيّان

الإصدارُ التّاسِع والثلاثون
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م



تصدير

بقلم: رئيس تحرير مجلة الوعي الإسلامي

الحمد لله علّام الغيوب، المطّلع على أسرار القلوب، ذي العزة والكبرياء، والحلم والعلياء، مُسْبغ أصناف الآلاء، ودافع نوازل البلاء، وجاعل العلماء ورثة الأنبياء، ومؤيدهم في حفظ سنة خاتم الأنبياء، وحماية حديثه من الكذب والافتراء، ومودعه في صدور الحفاظ الأتقياء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يعلم السر وأخفى، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله الذي بصّر الله به من العمى، وأقام به معالم الهدى، اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وأصحابه أولي النهى.

أمّا بعد:

فإن العلم والثقافة الشرعية ميدانٌ خصبٌ لكل متعلم؛ إذا أراد أن يستزيد من الإحاطة بلغته، ودينه، ومبادئ أمته؛ وحتى ينتشر هذا الوعي ويعمّ، كان لا بد من توفير المواد العلمية اللازمة له، ومن أهم تلك المواد: الكتب بمختلف أنواعها ومناهجها ومستوياتها، شريطة أن تكون نافعة بنّاءة جادّة.

ولأجل تواصل المثقفين شرقاً وغرباً، وتنامي الشعور بالانتماء، وتقوية أواصر الارتباط الثقافي بين شعوب الأمتين العربية والإسلامية، كانت فكرة الاجتهاد في إخراج الكنوز التراثية، وطباعة

الرسائل العلمية، أولويةً عملية في مجلة «**الوعي الإسلاميّ**»، فهي بذلك تسعى لزرع الثقافة العربية الإسلامية، بشتى صنوفها، في الناشئة والمبتدئين، وفي الصغار والكبار، على حد سواء.

وقد جَمعتْ مجلة «**الوعي الإسلاميّ**» طاقاتها وإمكاناتها العلمية والمادية لتحقيق هذا الهدف السامي، فتَيسر لها بفضل الله تعالى إخراج عدد ليس بالقليل من هذه الكتب والرسائل، وكان لها نصيب وافر من الحفاوة والتكريم في كثير من المجتمعات داخل الكويت وخارجها؛ وذلك لما تميزت به هذه الإصدارات من أصالةٍ وقوةٍ ووضوحِ منهج، ومراعاةٍ لمصلحة المثقف، وحاجته العلمية.

ومن هذه الإصدارات النافعة كتاب: «**كيف تغدو فصيحاً**» للدكتور محمد حسان الطيان حفظه الله ورعاه، وهو من أهل العلم في اللُّغة والأدب.

ومجلة «**الوعي الإسلاميّ**» إذ تقدّم هذا الإصدار لقرّائها، فإنها تتوجه بخالص الشكر والتقدير للدكتور على إذنه الكريم بطباعة الكتاب.

والحمد لله رب العالمين

رئيس التحرير

فيصل يوسف أحمد العلي



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الرحمن.. علَّم القرآن. خلق الإنسان. علَّمه البيان. والصَّلاة والسَّلام الأتمَّان الأكرمان على أفصح من نطق بالضاد وسيد ولد عدنان، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسانٍ.

وبعد: فإن فصاحة اللسان وطلاقته وسلامته من الآفات غدت أمرًا عزيزًا في هذا الزمان.. زمان الرطانة، وفشوِّ اللحن، وانتشار العاميات المختلفة، وانحراف الألسنة عن الجادَّة..

إنَّـا لفـي زمـنٍ تـركُ القبيـحِ بِـهِ ... مـن أكثرِ النـاسِ إحسـانٌ وإجمـالُ

ولكنه مع ذلك مطلب مُلِحّ يسعى إليه كل مسلمٍ متمسكٍ بدينه، وكلّ عربيٍّ معتزٍّ بعروبته.

أما الأول فلأن العربية لغة القرآن الكريم، حبل الله المتين والنور المبين الذي لا تنقضي عجائبه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: ٢]، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وأمَّا الثاني فلأن العربية هي الرابطة الوحيدة الباقية بين أبناء يعرب على اختلاف أقطارهم وتنائي ديارهم وتنوع أفكارهم:

لغـةٌ إذا وقعـت علـى أسمـاعنـا ... كـانـت لنـا بـردًا علـى الأكبـادِ
ستظـلُّ رابطـةً تـؤلِّـف بيننـا ... فهـي الـرجـاء لنـاطـقٍ بـالضـادِ

من أجل ذلك باتت العربية غايةً يصبو إليها كل عربيٍّ أصيل، بل كل مسلمٍ في أنحاء المعمورة، وكل عاشقٍ للغتنا، متذوقٍ لأدبها، أو متطلّعٍ إلى بيانها، مولعٍ بتجويدها وإحسانها.

* * *

وهذا المبحث مشاركة متواضعة ترمي إلى جلاء أمر الفصاحة بغية التحلّي بها واكتسابها، وتتبُّع الآفات التي تعتور اللسان بغيةَ تحاميها واجتنابها، فهو إذًا يُعنى باللسان شكلاً ومضمونًا.

أما الشكل فبه يؤدي اللسان وظيفة الكلام على النحو الأمثل، نطقًا للأصوات، وتأليفًا للحروف، وتركيبًا للكلام وتجويدًا للأداء، وتوخيًا للبلاغة، وإبداعًا في الكتابة، وتحاميًا للخطأ، وتجنبًا للّحن..

وأما المضمون فهو ما يستقيم عليه أمر اللسان من الصدق في القول، والوفاء بالعهد، واجتناب الفحش، والسبِّ، والغيبة، والنميمة، والكذب، واللغو، والنفاق.. وما أشبه ذلك من آفات اللسان ومعايبه.

* * *

وعلى ذلك فقد قسم البحث إلى قسمين: استقلَّ الأول بفصاحة اللسان، واستقلَّ الثاني بسلامته.

أما القسم الأول، وهو فصاحة اللسان، فقد توزعته فصول أربعة استُهِلَّتْ بمدخل في تعريف اللسان والفصاحة.

تناول الفصل الأول أهمية الفصاحة وكيف غدت قيمة اجتماعية موروثة لدى العرب.

وتناول الفصل الثاني خصائص الفصاحة وشروطها عند علماء البلاغة من جهةٍ، وعند أهل الأدب والبيان من جهةٍ ثانيةٍ، وعند أهل الفصاحة واللَّسَن من جهةٍ ثالثةٍ.

وتناول **الفصل الثالث** أثر الفصاحة في صاحبها وفيمن حوله، وطرق اكتسابها وتربية الأجيال عليها.

وعرض **الفصل الرابع** لنماذج من فصيح القول ضمَّت متخيَّراتٍ من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر والنثر والأمثال والحكم من أجمل ما قرأت أو سمعت.

وأما **القسم الثاني** وهو سلامة اللسان من الآفات فقد توزعته فصول ثلاثة.

كان **أوَّلها** مدخلاً إلى سلامة اللسان وشرف حفظه.

واختصَّ **ثانيها** بعرض آفات اللسان آفةً آفة، فبسط الكلام على أنواعها وآثارها وطرق اجتنابها.

وبيَّن **الثالث** السبل الكفيلة بحفظ اللسان من جميع هذه الآفات.

* * *

وبعد؛ فإن كان من مَزِيَّةٍ لهذا المبحث فهي أنه اشتمل على نصوصٍ وشواهد في الفصاحة والبيان وسلامة اللسان جُمعت من زهاء مئتي مجلد من تراثنا العربي الإسلامي.

وما كان لي أن أصنع هذا بمفردي ــ وما هو مما يدخل في طوقي ــ وإنما كان من ثمار حلقات بحثٍ جامعيةٍ، سلَّطت فيها طلاَّبي ــ في قسم التخصُّص من معهد الفتح الإسلامي بدمشق فرع جامعة الأزهر ــ على كتب التراث ينقِّبون فيها عن كل ما له علاقة باللسان فصاحةً وسلامةً، فاجتمع لي من ذلك حجم كبير يعدُّ بآلاف الصفحات، تنخَّلتُ منه ما يصلح لهذا المبحث ويلائم أبوابه واطَّرحتُ الباقي، على أني لم أثبت نصًّا إلاَّ بعد الرجوع إلى مصدره وتوثيقه مما كلَّفني من أمري عسرًا، ولكني مع ذلك أقول قول الحصري القيرواني في مقدمة زهر الآداب:

«وليس لي من تأليفه من الافتخار أكثر من حسن الاختيار، واختيار المرء قطعة من عقله تدل على تخلُّفه أو فضله»[1].

فلطلاب المعهد جزيل شكري ــ فوق ما نالوه من درجات ــ ولله سبحانه من قبلُ ومن بعدُ حمدي وثنائي أن وفَّق لهذا العمل ويسَّر أسبابه.

أسأله ــ عزَّ وعلا ــ أن يقبله وينفع به ويجعله ذخرًا لي ولكلٍّ من أسهم فيه يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاَّ من أتى الله بقلبٍ سليمٍ.

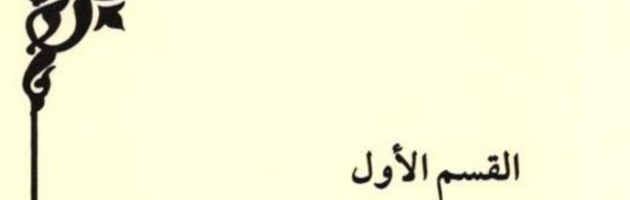
وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

الكويت ١٠ رجب ١٤٢١هـ

٨ تشرين الأول ٢٠٠٠م

الدكتور محمد حسان الطيان

(١) زهر الآداب ١/ ٣٦.



القسم الأول

فصاحة اللسان

* مدخل : في تعريف اللسان والفصاحة .

الفصــل الأول : أهمية الفصاحة .

الفصل الثـاني : خصائص الفصاحة وشروطها .

الفصل الثالث : أثر الفصاحة وطرق اكتسابها .

الفصل الرابـع : نماذج من فصيح القول .

مدخل
في تعريف اللسان والفصاحة

أولاً: تعريف اللسان

اللسان: جارحة الكلام أو المِقْوَل (أي آلة القول وعضو الكلام) يكون في الفم، ويصلح للتذوق والبلع والنطق، وهو مذكر وقد يؤنث، يجمع على: ألسنة وألسُن ولُسُن.

وتخرج هذه الكلمة لمعانٍ مختلفة أهمها:

١ ــ **اللغة**: جاء في التنزيل العزيز: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: ٩٧]، و ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]، و ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢]، أي لغاتكم.

٢ ــ **الكلام**: قال الحطيئة:

ندمتُ على لسانٍ فاتَ منّي ... فليتَ بأنّهُ في جوفِ عَكْمِ

٣ ــ **الرسالة**: قال الأعشى:

إني أتتني لسانٌ لا أُسَرُّ بها ... من عَلْوَ لا عَجَبٌ منها ولا سَخَرُ

٤ ــ **الثناء**: يقول تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٨٤].

٥ ــ **المتكلم عن القوم**: يقال: «هو لسان القوم».

٦ ــ **لسان النار**: شعلتها، يقال: «طَفِىءَ لسانُ النار».

٧ ـــ **لسان الله**: حجته، يقال: «فلان ينطق بلسان الله».

٨ ـــ **لسان الميزان**: عَذَبته، وهو العود الذي يستدل منه على توازن الكفتين. قال الشاعر:

ولقد رأيت لسانَ أعدل حاكم ... يقضي الصواب به ولا يتكلم

٩ ـــ **ذو اللسانين**: المنافق، يقال: «فلان ذو وجهين وذو لسانين».

١٠ـــ **لسان الحمل ولسان الثور والعصافير والكلب والسبع**: نباتات يُتداوى بها(١).

ومما يتعلّق باللسان اشتقاقًا ودلالة (مبنى ومعنى):

١ ـــ **لسَنَه يلسُنه لَسْنًا**: كان أجود لسانًا منه، ولسنَه لسنًا أخذه بلسانه وغلبه في الملاسنة؛ يقال: لاسَنَه فلسنه. قال طرفة:

وإذا تلْسُنُني ألْسُنُها ... إنني لست بموهون فَقِرْ

وفي حديث عمر رضي الله عنه، وذكر امرأة فقال: «إن دخلت عليك لَسَنَتْكَ» أي أخذَتْكَ بلسانها، يصفها بالسّلاطة وكثرة الكلام والبَذاء.

٢ ـــ **لَسِن بالكسر يلسَن**: فَصُح وبَلُغ، فهو لَسِنٌ وأَلْسَنُ، وقوم لُسْنٌ، واللَّسَن الفصاحة.

٣ ـــ **أَلْسَنَ فلان**: فصح، وتكلم كثيرًا، وأَلْسَن فلانًا قوله أو رسالته، أبلغه إياها، يقال: أَلْسِنِّي فلانًا وأَلْسِنْ لي فلانًا كذا وكذا، أي أبلغ لي. قال عديٌّ بن زيد:

بل ألسِنوا لي سَراة العمِّ أنكمُ ... لستُم من المُلْكِ، والأبدالُ أغمارُ

(١) أساس البلاغة، ولسان العرب، والمعجم الوسيط: (لسن).

٤ ــ لاسنه: ناطقه وقاوله، يقال: كانت بينهما ملاسنة.

٥ ــ تلسَّن عليه: كذب. ورجل مَلْسون: حُلْو اللسان بعيد الفِعال. قال ابن سيده: والملسون الكذَّاب(١).

ثانيًا: أهمية اللسان ووظائفه المختلفة

«كان لقمان عبدًا أسود لبعض أهل الأيلة فقال له مولاه: اذبح لنا شاة وائتنا بأطيب مضغة، فأتاه باللسان، فقال له: اذبح لي أخرى وائتني بأخبث مضغة، فأتاه باللسان، فقال له في ذلك، فقال: ما شيء أطيب منه إذا طاب، ولا أخبث منه إذا خبث»(٢).

لا ريب أن اللسان من أهم جوارح الإنسان، فبه يتذوق، وبه يبلع، وبمعونته يمضغ ويأكل، وبه ينطق ويُبين، وبه يكشف الأطباء عن أمراض الجسد، والحكماء عن أمراض النفس، فهو صورة صادقة عن صاحبه:

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ ... فلم يبقَ إلاَّ صورةُ اللحم والدم
وكائِنْ ترى من ساكتٍ لكَ مُعْجِبٍ ... زيادتُهُ أو نقصُهُ في التكلُّمِ(٣)

فأهمية اللسان تكمن إذًا فيما يؤديه من وظائف مختلفة يمكن أن نذكر منها:

١ ــ التذوق: يتذوق اللسان بنتوءات تبدو على سطحه الأعلى تسمى الحليمات وهي مختلفة الأشكال والأحجام، وفيها تكمن براعم التذوق

---

(١) لسان العرب، والمعجم الوسيط: (لسن).

(٢) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ــ دار مكتبة الحياة ــ بيروت، ص ٣٢.

(٣) نسبهما الجاحظ إلى الأعور الشَّنِّيّ، انظر: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دمشق ــ دار الفكر ١/ ١٧١.

المتصلة بالخيوط العصبية التي تنقل الطعوم المختلفة إلى المخّ فنُحسُّ بها وندرك الاختلاف بينها.

والطعوم الأساسية التي يميزها اللسان هي: الحلو، والحامض، والمرّ، والمالح. أما النكهات العديدة التي يميزها فهي مزيج من هذه الطعوم بنسبٍ مختلفة، على أن اللسان قادر على تمييز درجات الحرارة والبَهارات الحارة والهادئة وما إلى ذلك[1].

٢ ـ المضغ والبلع: يسهم اللسان إسهامًا رئيسيًا في عملية الأكل، إذ هو الذي يحرك الطعام في الفم مسهِّلاً طحنه بالأسنان، ومن ثم يشكله بعد طحنه في شبه كرة لبلعه، إن هذه العملية هي بداية عملية الهضم.

٣ ـ النطق: ليس للنطق أعضاء خاصة به، وإنما يحدث من تضافر مجموعات من الأعضاء ذوات وظائف مختلفة كالتنفس والأكل والمضغ والشمّ تعمل معًا لأداء الكلام، وفي هذا يقول عالم اللسانيات روبين R. H. Robins: «هل تستطيع أن تدلني على أحدٍ يستطيع أن يستغلّ النُّفايات بطريقة أجزى وأكثر كفاءةً وأهميةً من استعمال الإنسان لنفايات عملية التنفس؟!»[2].

والجواب: (لا) حتمًا؛ فليس الكلام حقيقةً إلاَّ اعتراضًا لسبيل الهواء الفاسد المندفع من الرئتين، ويتم هذا الاعتراض بتدخل عضو من أعضاء النطق، ولا شك أن أبرز هذه الأعضاء وأهمها هو اللسان.

---

(١) سر الإنسان بهذا اللسان، محاضرة للأستاذ ياسر المالح أُلقيت في المركز الثقافي العربي بدمشق، ٢٩ نيسان ١٩٩٧م.

(٢) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، للدكتور نايف خرما، سلسلة عالم المعرفة (٩)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت، أيلول ١٩٧٨م، ص ٢٥٤.

ثالثًا: تعريف الفصاحة

الفصاحة: البيان؛ فَصُحَ الرجلُ فَصاحةً فهو فصيح من قوم فصحاء وفِصاح وفُصُحٍ. نقول: رجل فصيح وكلام فصيح، أي بليغ، ولسان فصيح: أي طَلْق.

وفصُح الأعجمي فصاحةً: تكلَّم بالعربية وفُهم عنه، وقيل: جادت لغته حتى لا يلحن، وفصُح: انطلق لسانه بالعربية وخلصت لغته من اللكنة.

وفصُح الرجل وتفصَّح إذا كان عربيَّ اللسان فازداد فصاحة، وقيل: تفصَّح في كلامه. وتفاصح: تكلَّف الفصاحة. والتفصُّح: استعمال الفصاحة.

والفصيح في اللغة: المنطلق اللسان في القول الذي يعرف جيد الكلام من رديئه، وقد أفصح الكلام وأفصح به وأفصح عن الأمر.

وأفصحْ لي عن كذا إن كنتَ صادقًا، أي بيِّنْ. وأفصحَ لك فلانٌ: بيَّنَ ولم يجمجم[1].

والفصاحة في الأصل اللغوي تعني الظهور والإبانة، يقولون: فصح اللبن وأفصح: إذا أُخذت رغوته، وأفصح الصبح: إذا بدا ضوءُه، ومن المثل: أفصح الصبح لذي عينين. وهذا يوم مفصح وفصح: لا غيم فيه ولا قرّ[2].

ولكن هذا المعنى اللغوي تطور مدلوله واتسع مجاله ليدل على البيان وبلاغة الكلام وطلاقة اللسان، والخلوص من اللحن واللكنة والعِيِّ

---

(١) أساس البلاغة، واللسان: (فصح).

(٢) التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوي، بيروت ــ دار الكتاب العربي، ط ٢، ١٩٣٢م، ص ٢٤.

والفهاهة، واجتناب أسباب الحُبسة والركاكة، وتحامي بعض اللهجات المستقبحة واللغيّات المستبشعة التي اختصت بها بعض القبائل مما لم ينزل به قرآن، ولا نطق به شاعر ذو بيان، أو خطيب مِصقع من أمثال سحبان، أو كاتبٌ أديب يضاهي الجاحظ وأبا حيان.

هذا وقد خاض علماء البلاغة والبيان في معاني الفصاحة والبلاغة وما شاكلهما من ألفاظ مبينين الفرق بينها ذاهبين طرائق قِدَدًا في تمييز كلٍّ منها من صاحبه، ولعلَّ خير مَن جمع شتات ذلك وعبَّر عنه أفضل تعبير إمام علماء البلاغة عبد القاهر الجرجاني، حيث يقول:

«فصلٌ في تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة وكل ما شاكل ذلك مما يُعبَّر به عن فضلِ بعض القائلين عن بعضٍ من حيث نطقوا وتعلموا، وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أن يُعلموهم ما في نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم.

ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها، مما يُفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة، وينسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى غيرُ وصفِ الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة، ثم تبرُّجِها في صورة هي أبهى وأزين، وآنق وأعجب، وأحق بأن تستولي على هوى النفس، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب، وأولى بأن تطلق لسان الحامد، وتطيل رغم الحاسد، ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتيَ المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، وتختارَ له اللفظ الذي هو أخصّ به، وأكشف عنه وأتمُّ له، وأحرى بأن يُكسِبَهُ نُبلاً، ويُظهر فيه مزيَّةً»[١].

---

(١) دلائل الإعجاز، للجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م، ص ٤٣.

وقد أطبق علماء البيان على أن الكلام الفصيح ما كان سهل اللفظ، واضح المعنى، جيد السبك، متلائم الحروف، غير مستكره فجّ، ولا متكلف وخم، ولا مما نبذته العرب، وعدلت عن ألفاظه البلغاء، أو ما كان بنجوةٍ من تنافر الحروف، وغرابة الألفاظ، ومخالفة ما ثبت عن الواضع، وتنافر الكلمات، والتعقيد في النظم والمعنى، ومخالفة القانون النحوي[١].



(١) التلخيص بشرح البرقوقي، ص ٢٤.

الفصل الأول
أهمية الفصاحة

أولاً: أهمية الفصاحة عند العرب وقيمة البيان لديهم

للفصاحة والبيان أهمية كبرى عند العرب، ولعلها تقع في الذروة من اهتماماتهم وما برعوا فيه.

ولا أدلّ على ذلك من كون معجزة رسول الإسلام محمَّد ﷺ كانت بيانية، إذ من المعروف أن معجزات الأنبياء كانت من جنس ما برع به أقوامهم، ومن ثمَّ كانت معجزة موسى عليه السلام في السحر، لأنه بعث في أمة عنيت بالسحر وبلغت فيه مبلغًا عظيمًا فجاءها من غلبها على سحرها وألقى عصاه لتلقف ما صنعوا: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٩]، وكانت معجزة عيسى عليه السلام في الطب، لأنه بعث في أمة أولت الطب كل عناية فجاءها من غلَبَها على طبِّها قائلاً: ﴿... وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وما بعد إحياء الموتى من طب!!

وبعث خاتم الرسل محمد ﷺ في أمة أمية لم يكن لها من هوى إلاَّ الفصاحة والبيان، ولم يكن لها من علم إلاَّ الشعر والحكمة، وفي ذلك يقول الفاروق رضي الله عنه: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه»[1]،

(١) طبقات فحول الشعراء، لابن سلام ١/ ٢٤، ٥٢٤.

وهـي ــ وإن تفـرّقـت بهـا الأهـواء والأنسـاب والمنـازع وطحنتهـا الحـروب والأيام ــ مجمعةٌ على تقدير الفصاحة والبيان، حتى لقد صحَّ فيها ما قاله بعض الدارسين في هذا الزمان: إنها أمة سجدت للبيان أكثر من سجودها للأوثان.

آية ذلك أنها كانت تقيم للشعر أسواقًا لا تقيمها للسلع والتجارة، لعلَّ أشهرها سوق عكاظ الذي كانت الشعراء تَفِدُ إليه من كل حدَب وصوب، يتبارون في عرض أروع ما جادت به قرائحهم، ويضرب لسيدهم وأبصرهم بفنون الشعر قبة من أدم ليحكم بينهم ويتخيَّر أجود ما سمع ليكتب بماء الذهب ويعلق بأركان البيت الحرام موضع حجهم وعبادتهم، وهذا ما سمي بالمعلقات.

قال ابن عبد ربه: «كان الشعر ديوان العرب خاصة، والمنظوم من كلامها، والمقيَّد لأيامها، والشاهد على أحكامها، حتى لقد بلغ من كَلَف العرب به وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيَّرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القَباطي المُدرجة، وعلقتها في أستار الكعبة، فمنه يقال: مُذَهَّبة امرىء القيس، ومذهبة زهير، والمذَهَّبات سبع، وقد يقال لها المعلّقات»[1].

ومن علامات تقدير العرب وعنايتهم بهذه القصائد المختارة كثرةُ ما أطلق عليها من أسماء وألقاب، فهي: المعلقات، والسبع الطوال، والمطولات، والمُذَهَّبات، والسُّموط، والمشهورات، والقصائد المشهورة، والسبعيّات، والسبع الجاهليات.

وكان لولوع العرب بهذا الفن الشعري الأثير عندهم أبعد الأثر في

---

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، تحقيق أحمد أمين وزملائه، القاهرة ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٥هـ ــ ١٩٦٥م، ٥/ ٢٦٩.

تعهدهم إياه فحفظوه وتغنوا به، وأنشدوه مفاخرين بشعرائهم وبأمجادهم وأيامهم ومكارمهم التي سجلها هذا الشعر، حتى لقد ألهى بعضهم التغني بهذه الأمجاد عن تحصيل هذه المكارم والأمجاد كما زعم شاعر منهم في قوله:

ألهى بني تغلبٍ عن كلِّ مكرمةٍ   قصيدة قالها عمرو بن كلثومِ[1]

ولا غَروَ، فالشعر نفسه وما يتصل به من أمر الفصاحة والبيان مكرمة من المكارم التي يَنشُدونها ويتغنون بها، ويتواصون بتذوقها، ويتبارون بحفظها وصيانتها، بل إنهم يتعهَّدون أولادهم بها، ويحرصون على سلامة نشأتهم اللغوية، وحسهم المرهف، بإرسالهم إلى البوادي وتنشئتهم في كنف القبائل التي لم يتطرق إليها اللحن، ولم تفسد سلائقها بمخالطة الأعاجم وأشباههم ممن فشا في صفوفهم اللحن العجمة والخطأ.

هذا سيد فصحاء العرب ﷺ يقول: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش، واستُرضعتُ في سعد بن بكر»[2]، ولا ريب أن الفصاحة والبيان من مكارم الأخلاق التي حصر رسولنا ﷺ بعثته لإتمامها بقوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[3].

فقد جعلها القرآن الكريم في مقدمة النعم والآلاء التي أنعم الله بها على عباده حيث قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤].

ووصف كلامه ـ وهو أعلى الكلام وأقدسه ـ بالإبانة في غير ما موضع من كتابه: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾ [النحل: ١٠٣]،

(١) معلقات العرب، للدكتور بدوي طبانة، الرياض ـ دار المريخ، ط ٤، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، ص ٥.
(٢) زهر الآداب ١/ ٢٣.
(٣) رواه أحمد من حديث أبي هريرة، رقم ٨٥٩٥.

و ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: ١ ــ ٢].

وامتدح رسول الله ﷺ الشعر والبيان بقوله: «إن من البيان سحرًا، وإن من الشعر حُكمًا»[١]، بل إنه جعل ما أوتيه من البيان وجوامع الكلم من مزاياه التي تفرد بها على سائر الرسل والخلق، وذلك بقوله ﷺ: «أوتيت خمسًا لم يُعْطَهنَّ أحدٌ من قبلي، كان كلُّ نبـيٍّ يبعث في قومه وبعثت إلى كل أحمرَ وأسودَ، وأحِلَّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طيبةً وطهورًا، ونُصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأوتيت جوامعَ الكلم»[٢].

ولو تتبعنا سيرة الرسول الكريم ﷺ والصحابة والتابعين والخلفاء المشهورين لوجدناها مليئة بالحث على التحلي بالفصاحة والبيان ورواية الشعر وامتلاك ناصية الخطابة والنفور من اللحن والعيِّ والفهاهة.

فمن ذلك قوله ﷺ وقد سمع لحنًا: «أرشدوا أخاكم فإنه قد ضلَّ»[٣]، فجعل اللحن ضلالاً.

ومن ذلك أن عمر بن الخطاب قرَّع قومًا يسيئون الرمي فقالوا: «إنا قوم متعلمين»، فأعرض مغضبًا وقال: «والله لخطؤكم في لسانكم أشدّ عليّ من خطئكم في رميكم»[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود من رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. جامع الأصول من أحاديث الرسول، لابن الأثير، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت ــ دار إحياء التراث العربي، ط ٤، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م، ٦/ ١١٠.

(٢) كشف الإلباس رقم ٦٠٩، ج ١.

(٣) من تاريخ النحو للأستاذ سعيد الأفغاني، الكويت، مكتبة الفلاح، ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م، ص ٨.

(٤) من تاريخ النحو، ص ٩.

ويروى أن أعرابيًا أقرىء قوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣] بكسر اللام من «ورسوله»، فقال: «إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه»، فبلغ عمر مقالته فقال: ليس هكذا يا أعرابي وإنما هي: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣]، فقال الأعرابي: وأنا أبرأ ممن بريء الله ورسوله منهم، فكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الآفاق ألا يقرىء إلاَّ صاحب عربية(١).

وقد جعل عمر رضي الله عنه العناية بالعربية وصية يوصي بها عماله ويأمرهم بأخذ الناس بها، يتبدى ذلك في كتابته إلى أبي موسى الأشعري: «خُذ الناس بالعربية فإنها تَزيد في العقل وتُثبِتُ المُروءة»(٢).

ولا نبالغ إذا نحن قلنا: إن الفصاحة عند العرب من أجلِّ مكارمهم ومن أعظم ما يتغنون به من المآثر والصفات والأخلاق، بل هي قيمة جمالية لا تعدلها قيمة أخرى.

وما أجمل ما وصفها سيد الفصحاء محمد بن عبد الله ﷺ حين قال: «إن من البيان سحرًا»(٣)، وتتابع الشعراء بعد ذلك يصفون الكلام الجميل بالسحر:

وحديثُها السحرُ الحلال لو أنّهُ	لم يجنِ قتلَ المسلمِ المتحرِّزِ
إن طال لم يُملِل وإن هي أوجزَتْ	ودَّ المحدّث أنها لم توجِزِ
شَرَكُ القلوب وفتنة ما مثلها	للمطمئنِّ وعُقلةُ المستوفِزِ(٤)

---

(١) إعراب القراءات، لابن خالويه ١/ ٢٧.

(٢) تاج العروس، للزبيدي، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والآداب، (مرؤ).

(٣) انظر تخريجه فيما سبق، ص ٢٣.

(٤) ديوان ابن الرومي، تحقيق عبد الأمير علي مهنّا، بيروت ـ دار ومكتبة الهلال، ط ١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م، ص ٢٤٧.

روي أن العباس قال للنبي ﷺ: فيم الجمال؟ قال: في اللسان[1].

وروي عن الأصمعي أنه قال: «العرب تقول: جمال الرجل الفصاحة وجمال المرأة الشحم، وليس للمرأة ستر إلا ستران زوجها وقبرها»[2]، وجاء في الأمالي: «قال خالد بن صفوان لفتى بين يديه: رحم الله أباك إن كان ليملأ العين جمالاً والأذن بيانًا»[3]، وكان يقول: «مُروءتان ظاهرتان الفصاحة والرّياش»[4].

ثانيًا: كيف أصبحت الفصاحة قيمة اجتماعية موروثة

بيّنا في الفصل السابق أهمية الفصاحة عند العرب وقيمة البيان لديهم بما نستطيع معه القول: إن الفصاحة غدت عند العرب قيمة موروثة وفضيلة يتداعى الناس إليها؛ فيُنشىء الوالد ابنه عليها، وتدعو القبيلة أبناءها إليها، بل تفخر بمن اشتُهر بها أو عُرِف بالتمكن منها، ويتغنى الشعراء بمن حازها وينحون باللائمة عَلى من افتقدها ويعدون ذلك عيبًا فيه، وفي ذلك يقول أحدهم:

كفى بالمرء عيبًا أن تراهُ ... لَهُ وجهٌ وليس له لسانُ
وما حُسنُ الرجالِ لهم بزينٍ ... إذا لم يُسعِدِ الحُسْنَ البيانُ[5]

---

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، للراغب الأصبهاني، بيروت ـ دار مكتبة الحياة، ١/ ٢٧.
(٢) إعراب القراءات السبع، لابن خالويه ١/ ٣١.
(٣) الأمالي، لأبي علي القالي ٢/ ١٧٢.
(٤) محاضرات الأدباء للأصبهاني، ص ٢٧.
(٥) عيون الأخبار، لابن قتيبة، بيروت، دار الكتاب العربي ٢/ ١٦٩.

بل إن الأمر وصل إلى حدِّ الاستعاذة من فقدها، استمع إلى النمر بن تولب يقول:

أعــذنــي ربٌّ مــن حَصَــرٍ وَعِــيٍّ ومــن نفــسٍ أعــالجهــا عــلاجَــا
ومـن حـاجـات نفسـي فـاعصِمَنِّي فـإن لمضمـراتِ النفـس حَـاجَـا[1]

وفاقد الفصاحة والبيان يفقد أهم مقومات الحياة عند العرب وهي المُروءة، قال يونس بن حبيب: «ليس لعيـيٍّ مُروءة، ولا منقوص البيان بهاءٌ، ولو بلغ يأفوخُهُ أعْنَانَ السماء»[2].

ولذا فقد كانوا يخشَون على أولادهم من خطر اللحن والعيِّ وما أشبه ذلك، فيرسلونهم إلى البادية منذ نعومة أظفارهم، حيث يرضعون سلامة البيان مع ما يغذوهم من اللّبان، فلا يقل أمر اكتساب الفصاحة عندهم عن أمر تنمية الجسد وغذائه، وهكذا تنشأ الناشئة منهم على فصاحة اللسان وصحة الأبدان حتى تصبح الفصاحة سجيةً من سجاياهم وطبعًا يطبعون عليه بلا تكلُّف ولا تمحّل، إنها السليقة تتمكن من ألسنتهم وتغدو ملكة لهم.

وقد تحدث عن ذلك عالمنا الفذ ابن خلدون في مقدمته حيث قال: «فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبـي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولاً ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكةً وصفةً راسخة، ويكون

---

(١) البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط ٥، ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م، ١/ ٣، وعيون الأخبار ١/ ١٦٩.

(٢) عيون الأخبار، لابن قتيبة ٢/ ١٧٥.

كأحدهم، هكذا تصيَّرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها العجم والأطفال، وهو هو معنى ما تقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع، أي بالملكة الأولى التي أخذت عنهم ولم يأخذوها عن غيرهم»[1].

وجاء الإسلام فثبَّت أركان هذه القيمة، وأرسى دعائمها وأولاها ما تستحق من عناية، ولا غرو فالقرآن أعظم تجسيد للفصاحة والبيان، كل ما فيه ينطق بها، وينبىء عنها، ويعلي من شأنها. كيف لا، وإعجازه إنما كان فيها؟! وتحدِّيه إنما بني عليها؟!..

قال الجاحظ: «وذكر الله تبارك وتعالى جميل بلائه في تعليم البيان وعظيم نعمته في تقويم اللسان فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾[2] [الرحمن: ١ ـ ٤]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، ومدح القرآنَ بالبيان والإفصاح، وبحسن التفصيل والإيضاح، وبجودة الإفهام وحكمة الإبلاغ، وسماه فرقانًا كما سماه قرآنًا.

وقال: ﴿عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [طه: ١١٣]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ

---

(١) مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، القاهرة ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ط ٣، ٣/ ١٢٧٩.

(٢) قال ابن سنان الخفاجي معلقًا على هذه الآية: «ولم يكن تعالى يذكر البيان هاهنا إلاَّ وهو من عظيم النعم على عبيده، وجميل البلاء عندهم، لا جرم وقد قرن ذلك بذكر خلقهم فجعله مضافًا إلى المنَّة بخروجهم من العدم إلى الوجود من جانب النفي إلى الإثبات، وأنا أقول قولاً مختصرًا كافيًا: قد ثبت أن الفرق الواضح بين الحيوان الناطق والصامت هو النطق، وبه وقع التمييز في الحد المنسوب إلى الحكيم، وإن كان يفسره أصحابه بغير هذا الظاهر، فالشرف منه يؤخذ والفضل به يقع». سر الفصاحة، ص ٥٧.

شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾[1] [الإسراء: ١٢]، ثم قال: «وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]، لأن مدار الأمر على البيان والتبيُّن، وعلى الإفهام والتفهم، وكلما كان اللسان أبينَ كان أحمدَ، كما أنه كلما كان القلبُ أشدَّ استبانةً كان أحمدَ»[2].

وقد جعل القرآن الكريم الفصاحة والبيان عُدَّةَ الأنبياء والرسل عليهم السلام التي يتوسَّلون بها إلى تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، فقال على لسان نبي الله موسى عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصَّلاة والتَّسليم: ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ﴾ [القصص: ٣٤]، وقال: ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ [الشعراء: ١٣]، وذلك ـ كما يقول الجاحظ ـ «رغبةً منه في غاية الإفصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة؛ لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع...»[3].

وكان لنبيِّنا محمد عليه الصَّلاة والسَّلام الحظ الأوفر والنصيب الأعظم من هذه الفصاحة، فقد كان بحقٍّ أفصح من نطق بالضاد، وقد اجتمع له من أسباب ذلك ما لم يجتمع لأحد قطُّ، وما جوامع الكلم إلاَّ ضرب من ضروب هذه الفصاحة النادرة، وهي أحاديث لا يتعدى الواحد منها الكلمات ذوات العدد، ولكنه يشتمل على معانٍ لا تُحصى ولا تُعَدُّ، كقوله ﷺ: «كلُّ الصيدِ في جوفِ الفَرَا»، وقوله: «حمي الوطيس»، وقوله: «مات حتف أنفه»، وقوله: «لا ضرر ولا ضرار»، وقوله: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»، وغير ذلك كثير كثير.

---

(١) البيان والتبيين ١/٨.

(٢) البيان والتبيين ١/١١.

(٣) البيان والتبيين ١/٧.

ومن ضروبها أيضًا: خطبه ﷺ التي أصبحت نماذج تحتذى في الخطابة المتميزة التي جمعت صنوف المعاني في أقصر المباني، وقد دعا ﷺ إلى مثل هذا الإيجاز الذي بلغ حد الإعجاز في الخطابة، فقال: «إن طولَ الصلاة وقصرَ الخُطبةِ مَئِنَّةٌ من فقه الرجل»[1]، ومن قرأ خطبة الوداع يروعه ما ضمت من خطير الأمور وعظيم الأحكام وتلخيص مقاصد الإسلام في أوجز لفظ وأجمل سبك وأعلى بلاغة وأفصح بيان.

ومن ضروبها أيضًا تلك الأحاديث التي اشتملت على دعائه ﷺ في مختلف أنواع العبادات كأدعية القنوت: «اللَّهمَّ اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن تولَّيت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شرَّ ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك...»[2]، وأدعية الاستخارة والاستغاثة ـ أي طلب الغيث والمطر ـ وأدعية اليوم والليلة منذ الاستيقاظ فجرًا حتى الهجوع ليلاً... كل ذلك فيه من صنوف البلاغة والفصاحة ما لا سبيل إلى وصفه.

ولو رحنا نتتبع ضروب فصاحته ﷺ لما وسعتنا هذه العجالة، فذا أمر يتطلب بحثًا مفردًا وقد صُنفت فيه مجلدات، وما زال الناس يؤلفون، وهم بعد قاصرون عن الإحاطة بكل ما اشتمل عليه كلامه ﷺ من فصاحة وبيان.

وقد جعل ﷺ من الفصاحة غايةً ومطلبًا، فأمر الناس أن يعربوا في كلامهم بقوله: «أعربوا في كلامكم تعربوا في كتاب الله»[3]، وسمَّى اللحن ضلالاً كما مرَّ معنا من قبل.

ومن المؤكد أنه ﷺ سنَّ بهذه الفصاحة للخلفاء من بعده سنة حميدة

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٢٩٠.

(٢) جامع الأصول ٦/ ٢٦٣.

(٣) الفاضل في اللغة والأدب، للمبرد، ص ٤.

تمسَّك بها كلّ من وَلِيَ أمر الخلافة حتى كأن الفصاحة شرط من شروطها، إذ لا بدَّ لكل خليفة من خطبة يفتتح بها ولايته ويضمنها نهجه وخطته بأبلغ عبارة وأوجز إشارة، اقرأ معي إن شئت خطبة الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه:

«أيها الناس إني قد ولِّيت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حقٍّ فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدِّدوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم»[1].

تجد فكرًا سديدًا، وأمرًا رشيدًا، وسبيلاً واضحة، وحجة مقنعة، كل ذلك بلفظ وجيز وبناء محكم وصيغة متماسكة وعبارات يأخذ بعضها برقاب بعض. إنها الفصاحة في أبهى صورها!

وتبعه الخلفاء على هذا النهج يقتفون أثره، ويتبارون في طلب الفصاحة وامتلاك ناصية البيان، بل إنهم يأمرون الناس أن يأخذوا بها، وفي ذلك يقول الفاروق رضي الله عنه: «تحفظوا الأشعار، وطالعوا الأخبار، فإن الشعر يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويعلم محاسن الأعمال، ويبعث على جميل الأفعال، ويفتق الفطنة، ويشحذ القريحة، ويحدوا على ابتناء المحامد وادِّخار المكارم، وينهى عن الأخلاق الدنيئة، ويزجر عن مواقعة الريب، ويحضُّ على معالي الرتب»[2].

---

(١) جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت ١/ ١٨٠.

(٢) كشاف العبارات النقدية والأدبية في التراث العربي، د. محمود الربداوي، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ص ١٧٥.

ويقول أيضًا: «تعلموا العربية تحرزوا المروءة»[1]، وكان يقول أيضًا: «تعلَّموا الشعر فإن فيه محاسنَ تُبتغى ومساوىء تُتَّقى».

جاء في العقد الفريد: «وقال سعيد بن المسيب: كان أبو بكر شاعرًا، وعمر شاعرًا، وعليٌّ أشعر الثلاثة. ومن قول عليٍّ كرم الله وجهه بصفّين:

لمن رايةٌ سوداءُ يخفق ظلُّها إذا قيل قدِّمها حُضينُ تقدَّما
يقدِّمها في الصف حتى يُزيرها حياضَ المنايا تَقطر السّمَّ والدَّما
جزى الله عني والجزاء بكفِّه ربيعةَ خيرًا ما أعفَّ وأكرما[2]

ويبدو أن الشعر وروايته كان من أرحب طرقهم إلى الفصاحة، فقد تواصوا بحفظه وروايته وتباروا في تعلمه وحكايته، يقول ابن عباس: «الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه»، ويقول أيضًا: «إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب»[3].

ومن طريف ما يروى أن ابن الأزرق أتى ابن عباس فجعل يسائله حتى أمَلّه، فجعل ابن عباس يظهر الضجر، وطلع عمر بن أبي ربيعة على ابن عباس وهو يومئذٍ غلام فسلم وجلس، فقال ابن عباس: ألا تنشدنا شيئًا من شعرك فأنشده:

أمِنْ آلِ نُعْمٍ أنتَ غادٍ فمبْكرُ غداةَ غدٍ أم رائح فمُهَجِّرُ
بحاجةِ نفسٍ لم تقل في جوابها فتبلغَ عذرًا والمقالةُ تُعْذِرُ

---

(1) الفاضل في اللغة والأدب، ص ٤.

(2) العقد الفريد ٥/ ٢٨٣. وانظر: العمدة ١/ ٣٤ ـ ٣٥.

(3) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ١/ ١١٩.

وفيها يقول:

رأت رجلاً أما إذا الشمسُ عارضَتْ فيضحى وأما بالعشيِّ فيخصَرُ

حتى أتمّها وهي ثمانون بيتًا، فقال ابن الأزرق: لله أنت يابن عباس! أنضرب إليك أكباد الإبل نسألك عن الدين فتُعرض، ويأتيك غلام من قريش فينشدك سفهًا فتسمعه؟! فقال: تالله ما سمعت سفهًا؟ فقال ابن الأزرق: أما أنشدك:

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيخزى وأما بالعشي فيخسر

فقال: ما هكذا قال، إنما قال: فيضحى وأما بالعشي فيخصَر. فقال: أو تحفظ الذي قال! قال: والله ما سمعتها إلاَّ ساعتي هذه ولو شئت أن أردَّها لرددتها، قال: فارددها، فأنشده إياها.

وروى الزبيريون أن نافعًا قال له: ما رأيت أروى منك قط! فقال ابن عباس: ما رأيت أروى من عمر ولا أعلمَ من عليٍّ»[1].

فانظر كيف كان الخلفاءُ والنخبةُ من الصحابة وعِليةُ القوم يتسابقون إلى حفظ الشعر وروايته، ويتواصَون بذلك، ويجعلونه في مقدمة اهتماماتهم. قال ابن فارس في كتابه فقه اللغة: «الشعر ديوان العرب، وبه حُفظت الأنساب، وعرفت المآثر، ومنه تُعُلِّمت اللغة، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله وغريب حديث رسول الله ﷺ وحديث صحابته والتابعين»[2].

وروى ابن رشيق في العمدة أن معاوية كان يقول: «اجعلوا الشعر أكبر همِّكم، وأكثر دأبكم، وقد رأيتني ليلة الهرير بصفّين، وقد أُتيت بفرس أغرّ

---

(١) الكامل ٢/١٦٨ ـ ١٦٩.

(٢) المزهر، للسيوطي ٢/ ٤٧٠ ـ ٤٧١.

محجَّل، بعيد البطن من الأرض، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى، فما حملني على الإقامة إلاَّ أبيات عمرو بن الأطنابة:

أبَتْ لي عفَّتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمدَ بالثمنِ الربيحِ
وإعطائي على الإعدامِ مالي ... وضربي هامةَ البطلِ المشيحِ
وقولي كلما جَشَأَتْ وجاشَتْ ... مكانَك تُحمدي أو تستريحي
لأدفَعَ عن مآثرَ صالحاتٍ ... وأحميَ بعدُ عن عِرْضٍ صحيحِ[1]

وما أجمل كلمة أبي تمام في منزلة الشعر:

ولولا خِلالٌ سنَّها الشعرُ ما درى ... بُغاةُ النَّدَى من أينَ تُؤتى المكارمُ
يُرىٰ حكمةً ما فيه وهو فُكاهةٌ ... ويُقضى بما يَقضي به وهو ظالمُ[2]

لقد غدت الفصاحة قيمة هامة يتوارثها الناس ويتمايزون بها، ويرتفع بعضهم فوق بعض درجاتٍ بقدر ما يفصح لسانه ويعلو بيانه ويعجب نطقه وتُبهر بلاغته، فالأفصح هو المقدم في المجالس والمحافل، بل هو المؤهل لأن يتسنَّم أرقى المناصب وأن يرتقي أعلى المراتب، ولو استعرضنا ولاة الخلفاء على الأمصار المختلفة لما وجدنا فيهم إلاَّ الفصيح اللَّسِن والخطيب المصقع والبليغ البيّن، دع عنك الخلفاء أنفسهم، بل لقد وصل الأمر ببعض هؤلاء الولاة إلى حدٍّ ضرب المثل بفصاحته وبيانه ومَكِنَتِه من العربية كزياد بن أبيه والحجاج.

فقد قال الشعبي في الأول: «ما رأيت أحدًا يتكلَّم فيحسن إلاَّ أحببت أن يسكت إلاَّ زياد بن أبيه، فإنه لم يخرج قط من حُسنٍ إلاَّ إلى ما هو أحسن

---

(١) العمدة، لابن رشيق، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ١/ ٢٩.
(٢) العقد الفريد ٥/ ٣٢٨، وانظر: شرح الصولي لديوان أبي تمام ٢/ ٣٨٧، ٣٩٠، والعمدة ١/ ٥٤.

منه»[1]، وقال مالك في الآخر: «ما رأيت أحدًا أبينَ من الحجاج»[2]. وسأورد لكل منهما نصًا يدل على مقدار ما بلغ من فصاحة، وما أوتي من بيان وطلاقة.

هذا أولاً نص خطبة زياد بن أبيه التي سميت بالبتراء، لأنه لم يحمد الله فيها[3]، ولم يصل على النبي ﷺ، كما وردت في البيان والتبيين للجاحظ:

«أما بعد، فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغيَّ الموفي بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام ينبُت فيها الصغير، ولا ينحاش[4] عنها الكبير، كأنكم لم تقرؤوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعدَّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السَّرمد الذي لا يزول، أتكونون كمن طرفت عينَه الدنيا، وسدَّت مسامعَه الشهواتُ، واختار الفانيةَ على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدَث الذي لم تسبقوا إليه، من ترككم الضعيفَ يُقهر ويؤخذ مالُه، وهذه المواخير المنصوبة[5]، والضعيفة المسلوبة في النهار المُبصر، والعددُ غير قليل.

ألم تكن منكم نُهاةٌ تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار؟! قرَّبتم

---

(١) محاضرات الأدباء للأصبهاني، ص ٢٧، وعيون الأخبار ٢/ ١٧١.

(٢) درر وتحف من تراث السلف ٢/ ٥٨. وقد زعم رؤبة بن العجاج، وأبو عمرو ابن العلاء، أنهما لم يريا قرويّين أفصح من الحجاج والحسن. البيان والتبيين ٢/ ٢١٩.

(٣) وقيل: بل قال: الحمد لله على إفضاله وإحسانه، ونسأله المزيد من نعمه وإكرامه، اللّٰهم كما زدتنا نعمًا فألهمنا شكرًا. البيان والتبيين ٢/ ٦٢.

(٤) انحاش عن الأمر: نفر منه.

(٥) في طبعة السندوبي من البيان والتبيين: «ما هذه المواخير المنصوبة؟» وكذا في الخطابة السياسية في عصر بني أمية للدكتور إحسان النص.

القرابة، وباعدتم الدِّين، تعتذرون بغير العذر، وتُغْضُون على المختلس. أليس كل امرىء منكم يذبُّ عن سيفه، صُنعَ من لا يخاف عاقبةَ ولا يرجو معادًا، ما أنتم بالحلماء، ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كُنوسًا في مكانس الرِّيَب. حرامٌ عليَّ الطعام والشراب حتى أسوِّيَها بالأرض هدمًا وإحراقًا.

إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلاَّ بما صلح به أوله؛ لينٌ في غير ضعف وشدَّةٌ في غير عُنف. وإني أقسم بالله لآخذَنَّ الوليَّ بالوليّ، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انجُ سعدُ فقد هلك سعيد، أو تستقيمَ لي قناتكم.

إن كِذْبة المنبر بَلقاء مشهورةٌ، فإذا تعلَّقتم علي بِكذبة فقد حلت لكم معصيتي، وإذا سمعتموها مني فاغتمزوها فيَّ واعلموا أن عندي أمثالها. من نُقِبَ منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه فإيايَ ودَلَجَ الليل، فإني لا أُوتى بمدلج إلاَّ سفكت دمه، وقد أجَّلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبرُ الكوفة ويرجع إليكم. وإيايَ ودعوى الجاهلية فإني لا آخذ داعيًا بها إلاَّ قطعت لسانه.

وقد أحدثتم أحداثًا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرَّق قومًا غرَّقناه، ومن أحرق قومًا أحرقناه، ومن نقب بيتًا نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبرًا دفنَّاه فيه حيًّا، فكفُّوا عني أيديكم وألسنتكم، أكففْ عنكم يدي ولساني. ولا تظهر على أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلاَّ ضربت عنقه. وقد كانت بيني وبين أقوام إحَنٌ فجعلت ذلك دَبْرَ أذني وتحت قدمي، فمن كان منكم محسنًا فليزدد إحسانًا، ومن كان منكم مُسيئًا فلينزِع عن إساءته.

إني والله لو علمت أن أحدكم قد قتله السّلُّ من بغضي لم أكشف له قناعًا، ولم أهتك له سترًا حتى يبدي لي صفحته، فإذا فعل ذلك لم أناظرْه،

فاستأنفوا أموركم وأَرْعُوا على أنفسكم[1]، فربَّ مَسُوءٍ بقدومنا سنسرُّهُ، ومسرورٍ بقدومنا سنسوءُه.

أيها الناس إنا أصبحنا لكم سادةً، وعنكم ذادةً، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خوَّلَنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل والإنصاف فيما وُلِّينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا، واعلموا أني مهما قصَّرت عنه فلن أقصِّر عن ثلاث: لست محتجبًا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقًا بليل، ولا حابسًا عطاءً ولا رزقًا عن إبّانه، ولا مجمِّرًا لكم بعثًا.

فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدِّبون وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى يصلُحوا تصلُحوا، ولا تُشرِبوا قلوبكم بُغضَهم فيشتدَّ لذلك غيظكم، ويطولَ له حُزنكم، ولا تُدركوا به حاجتكم مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرًّا لكم.

أسأل الله أن يعينَ كلاً على كلٍّ. وإذا رأيتموني أُنفِذ فيكم الأمرَ فأنفِذوه على أذلاله[2]، وايم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرةً، فليحذر كلُّ امرىء منكم أن يكون من صرعاي»[3].

ويروي الجاحظ أن عبد الله بن الأهتم قام إليه فقال: أشهد أيها الأمير لقد أوتيتَ الحكمة وفصلَ الخطاب، فقال له: كذبت، ذلك نبيُّ الله داود صلَّى الله عليه.

---

(١) الإرعاء: الإبقاء والرفق.

(٢) على أذلاله: على طرقه ووجوهه، واحدة ذِل، بكسر الذال وهو ما مُهِّد وذُلِّل من الطريق.

(٣) البيان والتبيين ٢/ ٦٢ ــ ٦٥، وانظر: طبعة السندوبي منه ٢/ ٥٨ ــ ٦٠، والخطابة السياسية في عصر بني أمية ٢٤١ ــ ٢٤٣، ومختارات من أدب العرب ٢/ ٤٥ ــ ٤٨.

وأما خطبة الحجاج عند مقدمه العراق واليًا عليها، فقد كان لها شأن آخر، إذ أوقعت الفزع في قلوب القوم، وبلغت بها القلوب الحناجر، فانكفأت مسلِّمةً مبايعةً لا تجد بينها شاقًّا لعصا الطاعة أو مفارقًا للجماعة، وسأذكرها برواية المبرِّد لها في كتابه الكامل لتكتمل لنا صورتها من قبل إلقائها ومن بعد، قال:

«وحدثني التوزي في إسناد ذكره، آخره عبد الملك بن عمير الليثي، قال: بينا نحن في المسجد الجامع بالكوفة، وأهل الكوفة يومئذٍ ذوو حال حسنة يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه، إذ أتى آتٍ فقال: هذا الحجاج قد قدم أميرًا على العراق، فإذا به قد دخل المسجد معتمًّا بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه، متقلّدًا سيفًا، متنكبًا قوسًا، يؤمّ المنبر، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر، فمكث ساعة لا يتكلم، فقال الناس بعضهم لبعض: قبح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق! حتى قال عمير بن ضابىء البرجمي: ألا أحْصِبُهُ لكم؟ فقالوا: أمهل حتى ننظر، فلما رأى عيون الناس إليه حَسَرَ اللثام عن فِيهِ ونهض فقال:

أنا ابنُ جَلا وطلاعُ الثنايا ... متى أضعِ العِمامةَ تعرفوني

وقال: يا أهل الكوفة، إني لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى، ثم قال:

هذا أوان الشدِّ فاشتدي زِيَمْ ... قد لفَّها الليلُ بسوَّاق حُطَمْ

ليس براعي إبِلٍ ولا غَنَمْ ... ولا بجزارٍ على ظهر وضَمْ

ثم قال:

قد لفَّها الليلُ بعصلبيّ ... أروعَ خرَّاجٍ من الدَّويِّ

مهاجرٍ ليس بأعرابيّ

وقال:

قـد شمَّـرت عـن سـاقهـا فشـدوا وجـدَّت الحـرب بكـم فجِـدّوا
والقـــوس فيهـــا وتـــرٌ عُـــرُدُّ مثـــلُ ذراع البَكْـــرِ أو أشـــدُّ

إني والله يا أهل العراق ما يُقعْقَع لي بالشِّنان، ولا يُغمزُ جانبـي كتغماز التين، ولقد فرزت عن ذكاء، وفتّشت عن تجربة، وإن أمير المؤمنين نثر كِنانته بين يديه فعَجَم عيدانها فوجدني أمرّها عودًا، وأصلبَها مَكسِرًا، فرماكم بـي، لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال.

والله لأحزِمنّكم حزم السَّلَمة، ولأضربنكم ضربَ غرائب الإبل، فإنكم لكـأهـل قـريـة: ﴿ كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل: ١١٢]، وإني والله ما أقول إلاّ وفيت، ولا أهم إلاّ مضيت، ولا أخلُقُ إلاّ فريت.

وإنَّ أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلَّب بن أبـي صُفرة، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلّف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلاّ ضربت عنقه! يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين، فقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم»، فلم يقل أحد منهم شيئًا، فقال الحجاج: اكفُف يا غلام، ثم أقبل على الناس فقال: أسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا شيئًا؟! هذا أدب ابن نِهْية، أما والله لأُوَدِبَنّكم غير هذا الأدب أو لتستقيمُنَّ! اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين، فلما بلغ إلى قوله: «سلام عليكم» لم يبقَ في المسجد أحد إلاّ قال: «وعلى أمير المؤمنين السلام!»[1].

---

(١) الكامل ٤٩٣ ــ ٤٩٦.

وبلغ من فصاحة الحجاج أنه كان لا يلحن، وقد روى ابن سلام أنه قال لابن يَعْمَر: أتسمعني ألحن؟ قال: الأمير أفصح الناس ـ قال يونس: وكذلك كان ولم يكن صاحب شعر ـ قال: تسمعني ألحن؟ قال: حرفًا، قال: أين؟ قال: في القرآن، قال: ذلك أشنع له! فما هو؟ قال: تقول: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ ـ أَحَبُّ ـ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤]، قرأها بالرفع، كأنه لما طال عليه الكلام نسي ما ابتدأ به. والوجه أن يقرأ: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾ بالنصب على خبر كان وفعلها. قال: وأخبرني يونس: قال له: لا جَرَم، لا تسمع لي لحنًا أبدًا. قال يونس: فألحقه بخراسان، وعليها يزيد بن المهلب[1].

وكان عبد الملك بن مروان يقول: (شيبني ارتقاء المنابر)؛ لما كان يخشى من أمر اللحن.

على أن أمر الفصاحة والبلاغة لم يقتصر على الخلفاء والولاة، وإنما تعداهم إلى العلماء والحكماء والقضاة والوعَّاظ، بل إلى سائر طبقات المجتمع وشرائحه المختلفة، وكان الفصحاء يلقون كل الحفاوة والتكريم حيث حلوا أو ارتحلوا.

ذكر بعض الرواة أنه لما استُخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قَدِمَ عليه وفود أهل كل بلد، فتقدم إليه وفد أهل الحجاز، فاشرأبَّ منهم غلام للكلام، فقال عمر: يا غلام ليتكلَّم من هو أسنُّ منك، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا منح الله عبده لسانًا لافظًا، وقلبًا حافظًا، فقد أجاد له الاختيار، ولو أن الأمور بالسنّ لكان هاهنا من هو

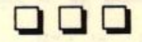
(١) طبقات فحول الشعراء ١/ ١٣.

أحق بمجلسك منك، فقال عمر: صدقت، تكلم فهذا السحر الحلال. فقال: يا أمير المؤمنين نحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة، ولم تقدَّمنا إليك رغبة ولا رهبة، لأنا قد أمِنَّا في أيامك ما خفنا، وأدركنا ما طلبنا. فسأل عمر عن سنِّ الغلام، فقيل: عشر سنين»[1].

لقد أضحى اللسان عند العرب معيارًا يتفاضلون به، وزينة يتحلون بها، يقول ابن سيرين: «لا شيء أزين على الرجل من الفصاحة والبيان، ولا شيء أزين على المرأة من اللحم».

ويقول خالد بن صفوان: «ما الإنسان لولا اللسان إلاَّ صورة ممثلة، أو بهيمة مرسلة، أو ضالة مهملة»[2].

واستمرت هذه القيمة للفصاحة عبر العصور والأزمان، وعلى اختلاف الأمكنة والأوطان تفعل فعلَ السحر في النفوس، وتبهر العقول، وتستميل الألباب، وتؤثر في العامة والخاصة على حدٍّ سواء.



(١) زهر الآداب، للحصري ١/ ٤٠.

(٢) بهجة المجالس وأنس المجالس ١/ ٥٦.

الفصل الثاني
خصائص الفصاحة وشروطها

تمهيد:

يقول الإمام الجرجاني: «... لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب لها قياسًا ما، وأن تصفها وصفًا مجملاً، وتقول فيها قولاً مرسلاً، بل لا تكون من معرفتها في شيء، حتى تفصِّل القول وتحصِّل، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم العلم وتعدها واحدة واحدة، وتسميها شيئًا شيئًا، وتكون معرفتك معرفة الصنَّع الحاذق الذي يعلم علم كل خيطٍ من الإبريسَم الذي في الديباج، وكل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطع، وكلَّ آجرة من الآجر الذي في البناء البديع.

وإذا نظرت إلى الفصاحة هذا النظر، وطلبتها هذا الطلب، احتجت إلى صبر على التأمل، ومواظبة على التدبر، وإلى همة تأبى لك أن تقنع إلاَّ بالتمام، وأن تَرْبَعَ إلاَّ بعد بلوغ الغاية.

ومتى جشِمت ذلك، وأبيت إلاَّ أن تكون هنالك، فقد أقمت إلى غرض كريم وتعرضت لأمر جسيم، وآثرت التي هي أتمّ لدينك وفضلك، وأنبلُ عند ذوي العقول الراجحة لك، وذلك أن تعرف حجة الله تعالى من الوجه الذي هو أضوأُ لها وأنوه بها، وأخلق بأن يزداد نورها سطوعًا،

وكوكبها طلوعًا، وأن تسلك إليها الطريق الذي هو آمن لك من الشك، وأبعد من الريب، وأصحُّ لليقين، وأحرى بأن يبلغك قاصية التبيين.

واعلم أنه لا سبيل إلى أن تعرف صحة هذه الجملة حتى يبلغ القول غايته، وينتهي إلى آخر ما أردت جمعه لك، وتصويره في نفسك، وتقريره عندك»[١].

أسوق هذه الكلمة لشيخ أئمة البلاغة والفصاحة بين يدي الكلام على خصائص الفصاحة وشروطها، لأبيِّن أن هذا المبحث الوجيز المتواضع لا يطمح أبدًا إلى الإحاطة بخصائص الفصاحة وشروطها وأحكامها وأسرارها وبنودها، بل هو لا يقوى على ذلك ولا يرقى إلى ما هو دونه، فقد صنفت في الفصاحة مصنَّفات، وأُلِّفت في أسرارها واكتناه ماهيتها مؤلفات، واختلف الناس فيها، وكثر الكلام حولها[٢].

وإنما حسبُه أن يبين أهميتها ومكانتها، وأن يضع صُوىً ترشد الناس إلى مكامنها ومناجمها، وأن يومىء إلى بعض خصائصها، وأن يعدَّ بعضًا من شرائطها، وأن يستشهد بغُرَرٍ من نماذجها وروائعها، ليمهد السبيل أمام الناشئة من أبناء العربية ليزدادوا محبةً للغتهم، وافتتانًا بها، وتشوُّقًا إلى معرفتها ودراستها، وإمعانًا في الاطلاع على ما خلفه السابقون من علمائها وفصحائها، ولتستبين لهم سبل الهداية إلى أسرار العربية وجماليتها، وإلى

---

(١) دلائل الإعجاز ٣٧ ــ ٣٨، ط شاكر.

(٢) يقول ابن سنان الخفاجي في مقدمة سر الفصاحة: «أما بعد، فإني لما رأيت الناس مختلفين في مائية الفصاحة وحقيقتها، أودعت كتابي هذا طرفًا من شأنها وجملة من بيانها، وقربت ذلك على الناظر، وأوضحته للمتأمل. ولم أمِل بالاختصار إلى الإخلال، ولا مع الإسهاب إلى الإملال، ومن الله تعالى أستمد المعونة والتوفيق». سر الفصاحة بتحقيق علي فودة، ص ٣.

أثر الفصاحة وقيمتها، وليدركوا أن الفصاحة كانت وما زالت عاملاً من عوامل النجاح والسؤدد، وعنصرًا من عناصر الفلاح والمجد.

ونظرًا لما اختلف الناس فيه من أمر الفصاحة، ولما كان لهم من مذاهب فيها، ولما كان الهدف من هذا المبحث تقديم صورة واضحة المعالم عن هذه القيمة، فإنني سأقسم الكلام على خصائصها وشروطها إلى ثلاثة أقسام تجري على النحو التالي:

أولاً: خصائص الفصاحة وشروطها عند علماء البلاغة.

ثانيًا: خصائص الفصاحة وشروطها عند أهل الأدب والبيان.

ثالثًا: خصائص الفصاحة وشروطها عند أهل الفصاحة واللسن.

أولاً: خصائص الفصاحة وشروطها عند علماء البلاغة

يقول ابن الأثير في كتابه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: «إن الكلام الفصيح هو الظاهر البيِّن، وأعني بالظاهر البيّن أن تكون ألفاظه مفهومة، لا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتاب لغة.

وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر، دائرة في كلامهم، وإنما كانت مألوفة الاستعمال دائرة في الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حسنها، وذلك أن أرباب النظم والنثر غربلوا اللغة باعتبار ألفاظها، وسبروا وقسَّموا، فاختاروا الحسن من الألفاظ فاستعملوه، ونفوا القبيح منها فلم يستعملوه.

فحسن الألفاظ سبب استعمالها دون غيرها، واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها، فالفصيح إذًا من الألفاظ هو الحسن»[1].

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، تحقيق د. أحمد الحوفي. ود. بدوي طبانة، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٤ أجزاء، ١/ ٩١.

ويقسم علماء البلاغة شروط الفصاحة إلى قسمين رئيسين: الأول في اللفظة المفردة. والثاني في التراكيب أو الجمل، وفيما يلي بيان القول في كلٍّ منهما:

(أ) شروط الفصاحة في اللفظة المفردة:

١ ـ ائتلاف الحروف وامتزاجها: وهذا لا يكون غالبًا إلاَّ إذا تباعدت مخارجها، أما الحروف القريبة المخارج فإنها كثيرًا ما تعتاص على النطق، كما نجد في كلمة (العهعخ) التي قال عنها الخليل بن أحمد: «سمعت كلمة شنعاء لا تجوز في التأليف الرباعي، سئل أعرابي عن ناقته فقال: تركتها ترعى العهعخ، فسألنا الثقات من علمائهم فأنكروا أن يكون هذا الاسم من كلام العرب»[١].

وقد شبَّه الخليل النطق بالحروف المتقاربة بمشية المقيد الذي يتعثَّر كلما أراد المشي، لأنه ينقل رجله من مكان ليعيدها إلى المكان نفسه، وكذا اللسان عندما يحاول النطق بحروف متقاربة يرتفع من المخرج ليعود إلى المخرج نفسه فيعسر ذلك عليه[٢].

وعلَّل ابن سنان ذلك بقوله: «وعلة هذا واضحة وهي أن الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر، ولا شك أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة لقرب ما بينه وبين الأصفر وبُعد ما بينه وبين الأسود، وإذا كان هذا موجودًا على هذه الصفة لا يحسن النزاع فيه

---

(١) كتاب العين، للخليل، تحقيق د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ٩ أجزاء، ٢/ ٢٧٤.

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطابي والجرجاني، ص ٩٦.

كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة هي العلة في حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة، وقد قال الشاعر في هذا المعنى:

فالوجه مثل الصبح مبيضٌّ والفرعُ مثل الليل مسودُّ
ضِدَّان لما استجمعا حَسُنا والضدُّ يظهر حسنَهُ الضدُّ»[1]

ومن علماء البلاغة من يردُّ تنافر الحروف إلى علتي البعد الشديد والقرب الشديد، فالأول بمنزلة الطفر، والثاني بمنزلة مشي المقيّد[2]، والحقُّ أن البعد لا يدعو إلى التنافر وإنما هو القرب، والدليل على ذلك أن الحروف التي لا تأتلف في العربية بحال من الأحوال ينتسب جلُّها إلى مخارج متقاربة كالحروف الحلقية: (ء هـ ع ح غ خ)، والحروف النِّطعية: (ط د ت)، والأسلية: (ص س ز)، واللثوية: (ذ ظ ث) . . . إلخ.

وهكذا يؤلف كل حيِّز من الأحياز النطقية مجموعات من الثنائيات المتنافرة في العربية مثل (هـ ع، ع ح، ح غ، غ خ . .)، و (ط د، د ط، ت ط . . .)، و (ص س، س ز، ص ز، ز ص، ص ذ، ظ س. . .).

وسأورد فيما يلي جدولاً يشتمل على ما لا يأتلف في العربية، وهو عصارة جهد طويل أكل سنيَّ العمر، وقد قسمته قسمين:

فالأول يمثل الحرف، يليه ما لا يأتلف معه من حروف، وبينهما رمز التنافر وهو سهم يشير اتجاهه إلى هيئة التنافر، وهي إما بتقديم الحرف الأول (←) أو بتأخيره (→)، أو بالتقديم والتأخير معًا (↔).

---

(١) سر الفصاحة، ص ٦٠ ــ ٦١.

(٢) هو الرماني في كتابه «النكت في إعجاز القرآن» المنشور ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص ٩٦، وقد ناقشت كلامه في الأطروحة التي نلت بها درجة الماجستير عام ١٩٨٤ بعنوان: «المعجم العربي، دراسة إحصائية صوتية مخبرية»، ص ١٢٦ ــ ١٢٩، وهي ما تزال مخطوطة.

والثاني يجمع الثنائيات الناتجة من عملية التنافر (أي عديمة الائتلاف):

الحرف	الرمز	ما لا يأتلف معه				
س	←	ث	ذ	ص	ض	ظ
س	→	ث	ذ	ص	ض	ظ
ث	←	ذ	ز	ص	ض	ظ / س
ث	→	ذ	ز	ص	ض	ظ / س
ث	←	ش				
ذ	←	ز	ص	ض	ط	ظ / س
ذ	→	ز	ص	ض	ط	ظ / س
ذ	←	ش	غ			
ز	↔	ص	ظ	س		
ز	←	ش	ض			
ز	→	ط				
ص	↔	ض	ط	ظ		
ص	←	ج	ش			
ص	→	د				
ض	↔	ط	ظ	ش		
ض	←	ه				
ض	→	د				
ظ	↔	ط	ج	د		
ظ	←	ح	ه	ش	غ	
ج	←	ط		غ	ه	
ج	→	ط		غ	ه	
ح	↔	خ	ح	غ		
خ	↔	غ				
خ	→	ع				
د	←	ز	ط			
ش	→	س				
ع	↔	غ				
غ	→	ه				

الثنائيات الناتجة - عديمة الائتلاف				
س ث	س ذ	س ص	س ض	س ظ
ث س	ذ س	ص س	ض س	ظ س
ث ذ	ث ز	ث ص	ث ض	ث س / ث ظ
ذ ث	ز ث	ص ث	ض ث	س ث / ظ ث
ث ش				
ذ ز	ذ ص	ذ ض	ذ ط	ذ س / ذ ظ
ز ذ	ص ذ	ض ذ	ط ذ	س ذ / ظ ذ
ذ ش	ذ غ			
ز ص	ص ز	ز ط	ظ ز	س ز / ز س
ز ش	ز ض			
ط ز				
ص ض	ض ص	ص ط	ط ص	ظ ص / ص ظ
ص ج	ص ش			
د ص				
ض ط	ط ض	ض ظ	ظ ص	ش ض / ض ش
ض ه				
د ض				
ظ ط	ط ظ	ظ ج	ج ظ	د ظ / ظ د
ظ ح	ظ ه	ظ ش	ظ غ	
ج ط		ج غ	ج ه	
ط ج		غ ج	ه ج	
ح غ	خ ح	ح ع	ح ح	ع ح / ح غ
غ خ	غ خ			
ح غ				
د ز	د ط			
س ش				
ع غ	غ ع			
ه غ				

جدول يمثل ما لا يقترن من الحروف

ولعلَّ أطرف ما صنعه علماء البلاغة تقسيمهم رتب الفصاحة إلى أقسام تتدرج بحسب الانتقال من حرف إلى حرف. يقول السكاكي في عروس الأفراح:

«رتب الفصاحة متقاربة، وإن الكلمة تخفُّ وتثقل بحسب الانتقال من حرف إلى حرف لا يلائمه قربًا أو بعدًا، فإن كانت الكلمة ثلاثية فتراكيبها اثنا عشر:

الأول: الانحدار من المخرج الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى، نحو: ع د ب.

الثاني: الانتقال من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوسط، نحو: ع م د.

الثالث: من الأعلى إلى الأدنى إلى الأعلى، نحو: ع د هـ.

الرابع: من الأعلى إلى الأوسط إلى الأعلى، نحو: ع ل هـ.

الخامس: من الأدنى إلى الأوسط إلى الأعلى، نحو: م ل ع.

السادس: من الأدنى إلى الأعلى إلى الأوسط، نحو: ب ع د.

السابع: من الأدنى إلى الأعلى إلى الأسفل، نحو: ف ع م.

الثامن: من الأدنى إلى الأوسط إلى الأدنى، نحو: ف د م.

التاسع: من الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى، نحو: د ع م.

العاشر: من الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى، نحو: د م ع.

الحادي عشر: من الأوسط إلى الأعلى إلى الأوسط، نحو: ن ع م.

الثاني عشر: من الأوسط إلى الأدنى إلى الأوسط، نحو: ن م ل.

إذا تقرَّر هذا فاعلم أن أحسن هذه التراكيب وأكثرها استعمالاً ما انحُدِرَ فيه من الأعلى إلى الأوسط إلى الأسفل، ثم ما انتقل فيه من الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى، ثم من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوسط، وما انتقل فيه من الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى فهما سيان في الاستعمال، وإن كان القياس

يقتضي أن يكون أرجحهما ما انتقل فيه من الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى.

وأقل الجميع استعمالاً: ما انتقل فيه من الأدنى إلى الأعلى إلى الأوسط، هذا إذا لم ترجع إلى ما انتقلت عنه، فإن رجعتَ فإن كان الانتقال من الحرف الأول إلى الثاني في انحدار من غير طفرة ـ والطفرة الانتقال من الأعلى إلى الأدنى أو عكسه ـ كان التركيب أخفَّ وأكثر، وإن فُقِدا بأن يكون النقل من الأول في ارتفاع مع طفرة كان أثقل وأقل استعمالاً.

وأحسن التراكيب ما تقدمت فيه نقلة الانحدار من غير طفرة، بأن ينتقل من الأعلى إلى الأوسط إلى الأعلى، أو من الأوسط إلى الأدنى إلى الأوسط، ودون هذين ما تقدمت فيه نقلة الارتفاع من غير طفرة.

وأما الرباعي والخماسي فعلى نحو ما سبق في الثلاثي، ويختصُّ ما فوق الثلاثة بكثرة اشتماله على حروف الذلاقة لتجبر خفَّتُها ما فيه من الثقل، وأكثر ما تقع الحروف الثقيلة فيما فوق الثلاثي مفصولاً بينهما بحرف ضعيف، وأكثر ما تقع أولاً وآخرًا، وربما قصد بها تشنيع الكلمة لذمٍّ أو غيره»[1].

٢ ـ عذوبة اللفظ وبُعدُه عن الغرابة: ولا يكون اللفظ عذبًا إلاَّ إذا حسُن في السمع وبعد عن أن يكون وحشيًّا أو حوشيًّا، وقد قسم ابن الأثير الألفاظ ثلاثة أقسام: قسمان حسنان وقسمٌ قبيح، فالقسمان الحسنان ما تداول استعماله الأول والآخر من الزمن القديم إلى زماننا هذا، ولا يطلق عليه أنه وحشيّ، والآخر: ما تداول استعماله الأول دون الآخر، ويختلف بالنسبة إلى الزمن وأهله، وهذا هو الذي لا يعاب استعماله عند العرب لأنه لم يكن عندهم وحشيًا وهو عندنا وحشيّ، وقد تضمن القرآن الكريم منه

(١) عروس الأفراح، للسبكي ١/ ٩٤ ـ ٩٥.

كلمات معدودات وهي التي يطلق عليها «غريب القرآن»، وكذلك تضمن الحديث النبوي منه شيئًا وهو الذي يطلق عليه «غريب الحديث».

وأما القبيح من الألفاظ الذي يعاب استعماله فلا يسمى وحشيًا فقط، بل يسمى: «الوحشيَّ الغليظ»[1].

وقد ضرب ابن الأثير أمثلة مختلفة لهذا الوحشي الغليظ، كلفظتي (اطلخمَّ) و (دهاريس) في قول أبي تمام:

قد قلت لما اطلخمَّ الأمر وانبعثت ... عشواءُ تاليةٌ غسًا دهاريسا[2]

ولفظ (جفخ) في قول المتنبي:

جَفَخَتْ وهم لا يجفخون بها بهم ... شِيمٌ على الحسب الأغر دلائلُ[3]

ولفظ (مشمخرّ) في قول البحتري:

مشمخرّ تعلو له شرفات ... رُفعت في رؤوس رضوى وقدس[4]

وأمثال ذلك كثيرة، أما العذوبة والحسن فكقول عروة بن أذينة:

إن التي زعمت فؤادك ملّها ... خلقت هواك كما خلقت هوى لها

فبك الذي زعمت بها وكلاكما ... أبدى لصاحبه الصبابة كلها

بيضاء باكرها النعيم فصاغها ... بلباقة فأدقّها وأجلّها

لما عرضتُ مسلمًا لي حاجة ... أرجو معونتها وأخشى ذلها

منعت تحيتها فقلت لصاحبي ... ما كان أكثرها لنا وأقلها

وإذا وجدت لها وساوس سلوة ... شفع الضمير إلى الفؤاد فسلّها[5]

---

(١) المثل السائر ١/ ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢) المثل السائر ١/ ١٨١.

(٣) المثل السائر ١/ ١٨٢.

(٤) المثل السائر ١/ ١٨٣.

(٥) المثل السائر ١/ ١٩٠.

وكذلك قول الآخر:

أقول لصاحبي والعيس تهوي ... بنا بين المنيفة فالضمارِ
تمتع من شميم عَرارِ نجدٍ ... فما بعد العشية من عرارِ
ألا يا حبذا نفحات نجدٍ ... وريّا روضه غِبَّ القطارِ
وأهلُكَ إذ يُحلُّ الحيُّ نجدًا ... وأنت على زمانك غير زارِ
شهورٌ ينقضينَ وما شعرنا ... بأنصافٍ لهن ولا سرارِ
فأمَّا ليلهنَّ فخير ليلٍ ... وأطيب ما تكون من النهارِ[1]

ومما ترقص الأسماع له، ويرن على صفحات القلوب قول يزيد بن الطثرية في محبوبته من جَرْم:

بنفسي من لو مرَّ بردُ بنانِه ... على كبدي كانت شفاءً أناملُهْ
ومن هابني في كل شيء وهِبتُه ... فلا هو يعطيني ولا أنا سائلُه[2]

ومما حسن لفظه أيضًا كلمة «تفاوح» في قول المتنبي:

إذا سارت الأحداجُ فوق نباتِه ... تفاوَحَ مسك الغانيات ورنده[3]

٣ ـ **موافقة القياس**: وذلك بأن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة ولا مخالفة للقياس والسماع.

فمما خالف القياس مثلاً قول الشاعر:

الحمد لله العليِّ الأجلَلِ[4]

---

(١) المثل السائر ١/ ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) المثل السائر ١/ ١٩١.

(٣) سر الفصاحة، ص ٦٢.

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، تحقيق د. محمد السعدي فرهود وزملائه، ـ دار الكتاب المصري القاهرة، ودار الكتاب العربي بيروت، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، ص ٧٩.

وكان حقّه أن يدغم فيقول: «الأجلّ».

ومن ذلك قول أبي الشيص:

وجناح مقصوص تحيف ريشه ... ريب الزمان تحيف المقراض

وليس المقراض من كلام العرب، وتبعه أبو عبادة فقال:

وأبت تركي الغديات والآ ... صال حتى خضبت بالمقراض[1]

٤ ـ **ألا تكون الكلمة عامية مبتذلة**: وذلك أن لغة العامة قد تطغى على الشعراء والأدباء والكتاب، فيستعمل هؤلاء في تعبيراتهم كلمات عامية لا فصاحةَ فيها، على نحو ما يجري في أيامنا من طغيان لغة الصحافة على لغة الأدب والشعر، فكثيرًا ما يستعمل الصحفيون ألفاظًا تدور على ألسنة العامة ثم ما تلبث هذه الألفاظ أن تتسرَّب إلى بعض أقلام أهل الأدب والشعر والكتابة فتنزل ببيانهم وأدبهم درجةً أو درجات.

فمن الأمثلة القديمة على هذا الاستعمال قول أبي تمام:

جلَّيت والموتُ مُبدٍ حُرَّ صفحتِهِ ... وقد تَفَرْعَنَ في أفعاله الأجلُ

فإن (تفرعن) مشتق من اسم فرعون، وهو من ألفاظ العامة، وعادتهم أن يقولوا: تفرعن فلان، إذا وصفوه بالجبريَّة.

ومن ذلك قول ابن نباتة:

أقام قوام الدين زيغ قناته ... وأنضج كي الجرح وهو فطيرُ[2]

فلفظة (فطير) عامية مبتذلة.

---

(١) سر الفصاحة، ص ٧٢.

(٢) سر الفصاحة، ص ٦٩.

ويقسم ابن الأثير العامي المبتذل من الألفاظ إلى قسمين:

الأوَّل: ما كان من الألفاظ دالاً على معنى وضع له في أصل اللغة فغيرته العامة وجعلته دالاً على معنى آخر، كقول المتنبي:

أذاق الغواني حسنُه ما أذاقني ... وعفَّ فجازاهُنَّ عني بالصَّرْمِ[1]

فإن معنى لفظة (الصرم) في اللغة هو القطع، فغيرتها العامة وجعلتها دالة على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره فأبدلوا السين صادًا.

والثاني: ما لم تغيره عن وضعه وإنما أنكر استعماله لأنه مبتذل بينهم لا لأنه مستقبح، ولا لأنه مخالف لما وضع له، كقول الفرزدق:

وأصبح مبيضُّ الصقيع كأنَّهُ ... على سروات النيب قطن مندَّفُ[2]

فقوله: (مندَّف)، من الألفاظ العامية.

ومن ذلك قول أبي تمام:

قد قلت لما لجَّ في صدِّهِ ... أعطف على عبدك يا قابري[3]

فقوله (قابري) من ألفاظ عوام النساء وأشباههنَّ، والطريف أنه ما يزال يستعمل عندهن حتى يوم الناس هذا.

والأمثلة الحديثة على استعمال العامي من الألفاظ في مجال الصحافة والأدب كثيرة، نذكر منها استعمالهم (بسيط) بمعنى (مغفل) لمن لا تجارب له في الحياة، و (طالما) بمعنى (ما دام) و (بَطيخ) بالفتح مكان (بِطيخ) بالكسر، و (الجُعبة والحُنجرة) بالضم مكان (الجَعبة والحَنجرة) بالفتح،

---

(١) المثل السائر ١/ ١٩٧.

(٢) المثل السائر ١/ ٢٠٠.

(٣) سر الفصاحة، ص ٧٠.

و (انذهل) مكان (ذُهل)، و (المدراء) مكان (المديرين)، و (رضخ) مكان (أذعن)، و (زخَّة من المطر) مكان (دُفْقَة من المطر أو دُفْعة)، و (شيِّق) مكان (شائق)، و (صمَّام) مكان (صِمام)، و (انطلت) مكان (جازت) في قولهم: انطلت عليه الحيلة، و (تَوَفَّى) مكان (تُوُفِّي)، وغيرها كثير أُفْرِدَتْ له مؤلفات ومصنفات نَبَّهَتْ على الأخطاء الشائعة عند الكُتَّاب، نذكر منها:

أخطاؤنا في الصحف والدواوين للأستاذ صلاح الدين الزعبلاوي، وإصلاح الفاسد من لغة الجرائد للأستاذ محمد سليم الجندي، ودراسات في فلسفة النحو والصرف واللغة والرسم للدكتور مصطفى جواد، وتذكرة الكاتب للأستاذ أسعد داغر، ودفع الهجنة في ارتضاخ اللكنة للشاعر معروف الرصافي، ومعجم الأخطاء الشائعة للأستاذ محمد العدناني، والعربية الصحيحة للدكتور أحمد مختار عمر، ومحاضرات عن الأخطاء اللغوية الشائعة للشيخ محمد على النجار، وحول الغلط والفصيح على ألسنة الكتاب للأستاذ منسي أحمد أبو الخضر، ودليل الأخطاء الشائعة للأستاذ مروان البواب والأستاذ إسماعيل مروة.

على أن هذه المؤلفات لم تقتصر على الخطأ في اللفظ وإنما تعدَّته إلى الخطأ في التركيب والاستعمال مما سيأتي الحديث عنه في فصاحة الكلام.

٥ ــ **أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف**: لأنها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة.

فمن الكلمات الطويلة التي لم يحسن استعمالها لفظة (سويداواتها) في قول المتنبي:

إن الكرام بلا كرامٍ منهمُ مثل القلوب بلا سويداواتها[١]

(١) المثل السائر ١/ ٢٠٤، وسر الفصاحة، ص ٨١.

ومن ذلك قول أبي تمام:

فلأذربيجان اختيال بعدما كانت معرّس عبرة ونكالِ
سمُجت ونبَّهنا على استسماجها ما حولها من نضرة وجمالِ[1]

والحقُّ أن هذه الكلمات لم تقبح لطولها فحسب وإنما لطبيعة بنيتها وتركيبها وتأليف الحروف فيها، آية ذلك أن في القرآن الكريم ألفاظًا طوالاً وهي مع ذلك في غاية الفصاحة والحسن مثل ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، و ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ [هود: ٢٨]، فكلتا اللفظتين حسنة رائقة مع أن الأولى تسعة أحرف والثانية عشرة، ولكن الطول وحده لا يضرُّ، وقد ناقش ابن الأثير هذه القضية فأشبعها[2].

(ب) شروط الفصاحة في الكلام المركب:

يشترط علماء البلاغة في الكلام المركب أي في الجمل والتراكيب شروطًا إن هي توفرت كان هذا الكلام فصيحًا، وهي: خلوصه من التنافر، وضعف التأليف، والتعقيد، وفيما يلي بسط الكلام على كل منها:

١ ــ **تنافر الكلمات**: وقد قسَّموهُ إلى قسمين:

الأول: ما تكون الكلمات بسببه متناهيةً في الثقل على اللسان وعُسْر النطق بها متتابعة، كما في البيت المشهور عندهم:

وقبر حربٍ بمكان قفْرِ وليس قرب قبر حرب قبر[3]

فقد بلغ من تنافره أن بعضهم زعم أنه من شعر الجن، وأن المتكلم المُجيد يُختبر بإنشاده ثلاث مرات من غير غلط ولا توقف.

---

(١) سر الفصاحة، ص ٨١.

(٢) المثل السائر ١/ ٢٠٤ ــ ٢٠٦.

(٣) المثل السائر ١/ ٣٠٩، وسر الفصاحة، ص ٩١، والإيضاح، ص ٨١.

والثاني: ما كان دون ذلك كما في قول أبـي تمام:

كريم متى أمدحْهُ أمدحْهُ والورى   معي، وإذا ما لمته لمته وحدي[1]

فإن في قوله (أمدحْهُ) ثقلاً لا يخفى لما بين الحاء والهاء من تنافر لقرب مخرجيهما.

وإذا كان يقبح التكرار في الحروف المتقاربة المخارج فتكرار الكلمة عينها أقبح وأشنع، كقول مسلم بن الوليد الأنصاري:

سَلَّـت وسُلَّـت ثـم سُـلَّ سليلُهـا   فـأتـى سليـلُ سليلهـا مسلـولا[2]

وقول المتنبـي:

ومن جاهل بـي وهو يجهل جهله   ويجهـل علمي أنَّـهُ بـي جـاهـل[3]

٢ ـ ضعف التأليف والسبك: يمثل علماء البلاغة لهذا الضعف بعبارة: «ضرب غلامُهُ زيدًا»، ويعللون ضعفها برجوع الضمير فيها إلى المفعول المتأخر لفظًا ورتبة، وهذا ممنوع عند جمهور النحاة، وعليه بيت النابغة المشهور:

جـزى ربُـهُ عنِّـي عـديَّ بـن حـاتـم   جزاء الكلاب العاويات وقد فَعَلْ[4]

والحقُّ أن هذا الضعف في التأليف والسبك قد فشى واستشرى في أساليب الكتاب اليوم إلاَّ ما رحم ربك ـ وقليلٌ ما هم ـ فما أكثر التراكيب التي تخالف قياس التركيب العربـي، أو تعدِّي الفعل بغير ما يتعدى به من حروف الجر، أو تنسج على منوال اللغات الأخرى غير عابئةٍ بنظام الجملة

---

(١) الإيضاح، ص ٨١، وسر الفصاحة، ص ٩٥.

(٢) سر الفصاحة، ص ٩٦.

(٣) سر الفصاحة، ص ٩٦.

(٤) الإيضاح، ص ٨١.

العربية، وسأسوق فيما يلي طرفًا من التعابير التي كثر دورانها على الألسنة وجريانها على الأقلام مثبتًا إلى جانبها ما يمكن أن يعبر به عنها على وجه الصواب:

- أجاء زيد أم عمرو، والصواب: أزيد جاء أم عمرو.
- لا أعلم ما إذا كان يرضى بذلك، والصواب: لا أعلم أيرضى بذلك.
- استبدل القديم بالحديث، والصواب: استبدل الحديث بالقديم، لأن الباء تدخل على المتروك.
- وضعت الكتب فوق بعضها، والصواب: وضعت الكتب بعضها فوق بعض.
- أحسَنَ إليك بينما أنت أسأت إليه، والصواب: أحسَنَ إليك على حين أنت أسأت إليه.
- أثَّر على كذا، والصواب: أثَّر في كذا.
- قاتل بشجاعة وبالتالي استحق الثناء، والصواب: قاتل بشجاعة فاستحق الثناء.
- حج إلى البيت الحرام، والصواب: حج البيت الحرام.
- لعب دورًا مهمًا في السياسة، والصواب: قام بعمل مهم أو كان بعيد الأثر. . .
- يحبها رغم كرهها له، والصواب: يحبها مع كرهها. . . أو على رغم كرهها. . .
- زاد عن كذا، والصواب: زاد على كذا.
- الفدائيون يشكلون خطرًا عليهم، والصواب: الفدائيون خطر عليهم.

ـ متضلّع في اللغة العربية، والصواب: متضلّع من اللغة العربية.

ـ في المكان مئة رجل عدا عن الأطفال، والصواب: في المكان مئة رجل عدا الأطفال.

ـ العشر الأخير من الشهر، والصواب: العشر الأواخر أو الأخيرة...

ـ امرأة معطاءة، والصواب: امرأة معطاء.

ـ يعاني فلان من المرض، والصواب: يعاني فلان المرض.

ـ غطى المقال النقط المطلوبة، والصواب: تناول المقال...

ـ استقرأ الأشياء، والصواب: استقرى الأشياء.

ـ أنا كعربي أرفض الذل، والصواب: أنا ـ العربي ـ أرفض الذل، أو أرفض الذل لأنني عربي.

ـ خالد بطل بكل معنى الكلمة، والصواب: خالد بطل صنديد أو عظيم...

ـ كلما زاد علمه كلما زاد تواضعه، والصواب: كلما زاد علمه زاد تواضعه.

هذا غيض من فيض العبارات الملتوية التي انحرفت بها أقلام الكتّاب عن قياس العربية وأساليب العربية وفصاحة العربية، وقد تصدَّى لها علماء اللغة المحدثون مبيّنين خطأها ووجه الصواب أو التصويب في كل منها، وفيما ذكرته من كتبهم غنيةٌ عن الإعادة هنا[1].

٣ ـ التعقيد: وهو أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد به، وله سببان:

---

(١) انظر: ما تقدم ذكره من كتب الأخطاء الشائعة، ص ٥٣.

أحدهما: لفظي، وهو أن يختل نظم الكلام ولا يدري السامع كيف يتوصل منه إلى معناه، كقول الفرزدق:

وما مثله في الناس إلاَّ مُمَلَّكًا أبو أمه حَيٌّ أبوه يقاربه[1]

وكان حقه أن يقول: وما مثله في الناس حي يقاربه إلاَّ مملكًا أبو أمه أبوه. يقصد بذلك إبراهيم بن هشام خال هشام بن عبد الملك.

فالكلام الخالي من التعقيد اللفظي: ما سلم نظمه من الخلل، فلم يكن فيه ما يخالف الأصل ـ من تقديم أو تأخير أو إضمار أو غير ذلك ـ إلاَّ وقد قامت عليه قرينة ظاهرة لفظية أو معنوية.

والثاني: معنوي، وهو أن لا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثاني ـ الذي هو لازمُه والمرادُ به ـ ظاهرًا، كقول العباس بن الأحنف:

سأطلب بعدَ الدار عنكم لتقرُبوا وتسكبُ عيناي الدموعَ لتجمُدا[2]

كنى بسكب الدموع عما يوجبه الفراق من الحزن فأصاب، لأن من شأن البكاء أن يكون كناية عنه، ثم طرد ذلك في نقيضه فأراد أن يكني عما يوجبه دوام التلاقي من السرور بالجمود؛ لظنه أن الجمود خلو العين من البكاء مطلقًا من غير اعتبار شيء آخر، وأخطأ لأن الجمود خلو العين من البكاء في حال إرادة البكاء منها فلا يكون كناية عن المسرة وإنما يكون كناية عن البخل.

فالكلام الخالي من التعقيد المعنوي: ما كان الانتقال من معناه الأول

---

(١) الإيضاح، ص ٨٢.
(٢) الإيضاح، ص ٨٣.

إلى معناه الثاني الذي هو المراد به ظاهرًا، حتى يُخيّل إلى السامع أنه فهمه من حاقِّ اللفظ[1].

ومما يؤسف له حقًّا أن التعقيد غدا سمةً مميزة لما يسمى بأدب الحداثة اليوم، فلا تكاد تقرأ نصًّا من الشعر الحديث غير الموزون أو ما يدعى بقصيدة النثر إلاَّ والغموض يلفُّه والتعقيد المعنوي يطغى عليه.

بل لقد أصبح هذا الغموض مطلبًا من مطالب هذا الشعر المنثور، وكأن أصحابه يرون في هذا الغموض ملجأ يلجؤون إليه ومدَّخلاً يسلكونه ومفرًّا يفرون إليه بعد أن فُرِّغ شعرهم من كل سمات الشعر الأصلية، فلا وزن! ولا قافية! ولا صورة! ولا شاعرية فماذا بقي لهم؟؟!. لم يبقَ إلاَّ أن يغرقوا في الغموض والتعقيد ويدعوا أن شعرهم ينطوي على أحاسيس ومشاعر ويشتمل على قضايا ومشاكل لا يدركها أو يرقى إليها إلاَّ من كان أهلاً لها ولسموِّ بيانها!!.

وما أذكر أني قرأت مرة قصيدة من هذا الضرب الذي يسمونه (الشعر المنثور) وهو عندي (نثرٌ مشعور)! إلاَّ ذكرت كلمة مروان بن حفصة الشاعر ليونس بن حبيب اللغوي المعروف: «أصلحك الله، إني أرى قومًا يقولون الشعر، لأن يكشف أحدهم سوءته ثم يمشي كذلك في الطريق أحسن له من أن يظهر مثل ذلك الشعر»[2].

يقول هذا في عصر الفصاحة والبلاغة عصر شعر الفحول من الشعراء المبدعين، فليت شعري ماذا كان يقول لو سمع هذا الضرب من الشعر مما تجود به قرائح شعراء هذه الأيام؟؟!!

---

(١) الإيضاح، ص ٨٤.

(٢) معجم الأدباء لياقوت الحموي ٢٠/ ٦٦ (ترجمة يونس بن حبيب).

لقد أحسن والله الحطيئة حين قسم الشعراء أقسامهم الأربعة، حيث قال:

الشعـــراء فـــاعلمـــنَّ أربعـــهْ
فشـاعـر يجـري ولا يُجـرى معـهْ
وشـاعـر ينشـد وسْـط المعمعـهْ
وشـاعـر لا تشتهـي أن تسمعـهْ
وشاعر لا تستحي أن تصفعهْ(١)

وما إخال شعراء الحداثة بما ينطوي عليه شعرهم من تعقيد معنوي وغموض وبعدٍ عن الفصاحة العربية الأصيلة إلاَّ من هذا الضرب الأخير!!. ورحم الله ابن عباد الرومي إذ يقول: «هل لي برجلٍ أبشِّره بالجنَّة؟ قالوا: ومن يا أبا زهرة؟ قال: رجل يحجب عن أذني تافه الكلام».

هذه أهم شروط الفصاحة التي ذكرها البلاغيون في الكلمة المفردة وفي الكلام المركب، على أن بعضهم يتوسع في شأن الكلام المركب فيذكر له شروطًا أخرى، فمن ذلك: وضع الألفاظ موضعها دون تقديم أو تأخير، وألا يكون الكلام مقلوبًا، ومن ذلك: حسن الاستعارة، وتجنب المعاظلة، وحسن الكناية وعدم استعمال ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم، ومن ذلك: المناسبة بين الألفاظ وهي إما عن طريق الصيغة، وإما من طريق المعنى، وكلاهما يدخل فيما يسميه علماء البلاغة (علم البديع) ويندرج تحته أنواع المحسنات البديعة كالسجع والازدواج والتصريع وحمل

---

(١) انظر: العمدة، لابن رشيق القيرواني ١/ ١١٤، ورواية الأبيات فيه:

الشعـــراء فـــاعلمـــنَّ أربعـــهْ ... فشـــاعـــر لا يـــرتجـــى لمنفعـــهْ
وشـــاعـــر ينشـــد وســـط المعمعـــهْ ... وشـــاعـــر آخـــر لا يُجـــرى معـــهْ
وشـاعـر يـقـال خـمـر فـي دعـه

اللفظ على اللفظ في الترتيب (وهو ما يسمى باللف والنشر) والطباق . . .

ومن ذلك أيضًا: الإيجاز والاختصار، والمساواة بين اللفظ والمعنى وأن يكون معنى الكلام واضحًا جليًّا لا يحتاج إلى فكر في استخراجه[١].

ولكن هذه الشروط بنوعيها ـ في الكلمة والكلام ـ لا تصنع فصاحة إن هي لم تقترن بالمتكلم الفصيح، بل هي لا تجدي شيئًا دون صاحبها. فإذا لم يوجد الفصيح فلا تنتظر فصاحة، ومن ثم كانت فصاحة المتكلم جزءًا لا يتجزأ من أجزاء الفصاحة، بل هي ركن أساسي لا قيمة لسائر الشروط دونها، ويعرِّفها علماء البلاغة بأنَّها: **ملكة يُقتدر بها على التعبير المقصود بلفظ فصيح**[٢].

وقد قيل في تعريفها (ملكة) ولم يُقل صفة ليشعر بأن الفصاحة من الهيئات الراسخة، حتى لا يكون المعبِّر عن مقصوده بلفظ فصيح فصيحًا إلاَّ إذا كانت الصفة التي اقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح راسخةً فيه.

وقيل: (يقتدر بها) ولم يقل يعبر بها ليشمل حالتي النطق وعدمه.

وقيل: (بلفظ فصيح) ليعم المفرد والمركب[٣].

وتُعدُّ هذه الملكة من الملكات المكتسبة التي أقدر الله الإنسان على اكتسابها في السِّنِيِّ الأولى من عمره، شأنها في ذلك شأن اللغة، فإذا تأتَّى له أن يسمعها صافية خالية من اللحن والخطأ حاكى ما سمعه، واكتسب المقدرة على الفصاحة.

---

(١) انظر في بسط الكلام على هذه الشروط: سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، ص ١٠٣ وما بعدها. وانظر أيضًا: المثل السائر، لابن الأثير.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٨٥ ـ ٨٦.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٨٦.

وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون في كلمته التي تقدمت[1] وإذا لم يتأتَّ للطفل أن يسمع اللغة صافية خالية من اللحن، حاكى ما سمعه، ففسد لسانه وفسدت سليقته، وفي هذا يقول ابن خلدون:

«ثم فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم، وسبب فسادها أن الناشىء من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم، ويسمع كيفيات العرب أيضًا فاختلط عليه الأمر، وأخذ من هذه وهذه فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى. وهذا معنى فساد اللسان العربي ولهذا كانت قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم»[2].

ثانيا: خصائص الفصاحة وشروطها عند أهل الأدب والبيان

ونعني بأهل الأدب والبيان أولئك الذين ألفوا في الأدب، وشرعوا للناس طرائق البيان وأصوله، وبيّنوا أحكامه وفصوله، واختاروا نماذج من أروع أمثلته، وعالجوا ما ينتابه من أمراض، وما يؤثر فيه من علل، تمهيدًا لعرضه خالصًا من الأمراض والعلل، صافيًا رائقًا لمن يريد أن ينهل من معينه، ويرتع في رياضه، ويصدر عن مورده، ويتعلم في مدرسته، ليكتسب ملكة الفصاحة والبيان، ويغدو واحدًا من أهلها، وفارسًا من فرسانها.

ولعلَّ أول من عالج هذه العلل والأمراض، أمير البيان أبو عثمان الجاحظ في كتابه العظيم البيان والتبيين، ذلك أنه استهله بدعاء رمى فيه إلى

(١) انظر: ص ٢٦ ــ ٢٧.

(٢) مقدمة ابن خلدون ٣/ ١٢٧٩.

بيان أهم العلل التي تعتور البيان الصحيح وتخدش بالفصاحة، قال فيه: «اللّٰهمَّ إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلُّف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العُجب بما نحسن، ونعوذ بك من السلاطةِ والهذَر، كما نعوذ بك من العِيِّ والحصَر، وقديمًا تعوَّذوا بالله من شرّهما، وتضرَّعوا إلى الله في السلامة منهما. وقد قال النمر بن تولب:

أعــذنــي ربِّ مــن حَصَــرٍ وعِــيٍّ ومـن نفسٍ أعـالجها عـلاجًا»[1]

ثم بسط الكلام على العي والحَصَر شعرًا ونثرًا وقرآنًا، ليخلص إلى ذكر ضروب من علل الكلام، كاللجلاج، والتمتام، والألثغ، والفأفاء، وذي الحبسة والحكلة والرُّتة، وذي اللَّفَف والعجلة[2]، ومثَّل بلثغة واصل ابن عطاء إمام المعتزلة الذي كان يتحرَّى اجتناب الراء في منطقه على كثرة دورانها في الكلام، وعرض لأنواع اللثغة فيها إذ تكون بالغين والذال والياء، وزاد في موضع آخر الظاء[3].

ثم أفرد كلامًا لذكر الحروف التي تدخلها اللثغة فحصرها في أربعة هي القاف والسين واللام والراء، وراح يمثل لكل ذلك بعبارات وأعلام، وكان من طريف ما مثل به لثغة رجل يدعى (شَوْشى) صاحب عبد الله بن خالد الأموي، فإنه كان يجعل اللام ياء والراء ياء، قال مرة لمولاه: «موياي ويَي ايّـيّ»، يريد (مولاي ولي الري)[4]، ثم فصَّل ألقاب اللثغة وما يدل عليه كل لقب، واستطرد بذكر بعض أخبار الخطباء والشعراء ليرجع به القول إلى الكلام الأول فيما يعتري اللسان من ضروب الآفات حيث بيَّن أهمية الأسنان

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٣.

(٢) البيان والتبيين ١/ ١٢.

(٣) البيان والتبيين ١/ ١٤ ــ ٢٢، وص ٣٧.

(٤) البيان والتبيين ١/ ٣٦.

في صحة النطق وتمام الحروف وساق أمثلة على ذلك، ثم ختم بذكر الأمور التي تعتري اللسان فتمنع من البيان مفصلاً ذلك في الشيوخ والصبيان[1].

فمدار الأمر إذًا في شروط الفصاحة والبيان عند الجاحظ وأمثاله[2] هو خلوُّ اللسان وجهاز النطق مما يعتريه من عيوب وأمراض تسمى اليوم بأمراض النطق، وأسباب عيوب اللسان كثيرة لا حصر لها يرجع بعضها إلى عيوب سمعية، أو عيوب بصرية، أو أخرى تؤثر على نمو الجهاز الصوتي بشكل صحيح، فلا يستطيع أن يقوم بدوره المطلوب فتطفح انحرافاته وأخطاؤه على المتكلم، فترصد فيه عيوب النطق.

ويرجع بعضها الآخر إلى أسباب نفسية. وتسمى الأولى عند المعاصرين من علماء أمراض الكلام أسبابًا عضويّة (Organiques) على حين تسمَّى الثانية أسبابًا وظيفية (Fonctionneles)[3]. والعجيب أن للكِندي فيلسوف العرب المشهور رسالة سماها (اللُّثغة) ذكر فيها علل اللثغة فلم يخرج في شيء منها عما ذكر المحدثون من علماء أمراض الكلام[4]، وفيما يلي نص كلامه على هذه العلل:

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٥٧ ــ ٧٠.

(٢) ممن عرض للثغة من علماء العربية المبرد في الكامل ٣/ ٧٦١ ــ ٧٦٥، وابن قتيبة في أدب الكاتب ١٣٦ ــ ١٣٧، وابن سيده في المخصص ٢/ ١١٨ ــ ١٤٢.

(٣) أمراض الكلام، للدكتور مصطفى فهمي، القاهرة، مكتبة مطر ودار مصر للطباعة، ط ٥، ص ٣٣.

(٤) كنت حققت هذه الرسالة عن نسخة مخطوطة فريدة تحتفظ بها المكتبة السليمانية بإصطنبول، ونشرتها عام ١٩٨٥ في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج ٦٠، ج ٣، ثم كتبت عنها بحثًا قدَّمته في المؤتمر السنوي الثامن عشر لتاريخ العلوم عند العرب في جامعة حلب عام ١٩٩٥.

«اعلم يا أخي أن هذه ـ أي اللثغة ـ تعرض من ثلاثة وجوه:

أحدها: تكون لقوى النفس الناطقة فتزول عن الحال الجاري المجرى الطبيعي.

الثاني: لضعف النفس الناطقة فلا تقدر أن تحرك العضل تحريكًا شديدًا فيفسد لذلك النطق.

الوجه الثالث: يكون إما لزيادة آلة النطق وإما لنقصانه، فأما علة زيادة العضو المنطقي فتكون من البرد والرطوبة، أو من الحرارة والرطوبة مع سعة مجاري العضو، فتدغم آلة الطبيعة أكثر مما يجب له من المقدار فيغلظ العضو ويكبر، ويفسد النطق لذلك، وذلك أنه يسترخي.

وأما نقصان العضو فيكون من برد ويبس، أو من حرٍّ ويبس مفرط، وتعرض هذه العلة أيضًا من جهة أخرى، وهو أن العضو المنطقي يغلظ أكثر من المقدار، ويصغر ويزيد أكثر من المقدار، فلا يقدر العضو المنطقي أن يستريح على الأماكن الواجبة للنطق فيفسد لذلك المنطق.

وهذه العلة والتي قبلها واحدة في الزيادة والنقصان، وذلك أن العلة الأولى تزيد وتنقص في الطول، والعلة الثانية تزيد وتنقص في العرض»[1].

ولو تدبرنا هذه العلل التي ذكرها الكندي لوجدناها تؤول إلى العلتين اللتين سبق ذكرهما، أعني العضوية والوظيفية.

وسأذكر فيما يلي أهم العيوب التي تعرض للنطق فتحول دون فصاحة اللسان:

---

(١) رسالة اللثغة، للكندي، ص ٥٣١ ــ ٥٣٢، من مجلة المجمع، مج ٦٠، ج ٣.

١ ــ **التأتأة**: وهي تردد اللسان عند نطقه بالتاء، وتسمى أيضًا التمتمة، قال الأصمعي: «إذا تتعتع اللسان في التاء فهو تمتام»[١].

٢ ــ **التبكُّل**: وهو الاختلاط في الكلام، ويوصف به الرجل فيقال: المتبكِّل[٢].

٣ ــ **البُكْءُ**: قلة الكلام خِلْقةً، جاء في اللسان: «وبكأ الرجل بَكاءة، فهو بكيء من قوم بِكاء: قل كلامه خِلقةً»[٣].

٤ ــ **الترخيم**: حذف صوت من آخر الكلام، عدَّه المبرد أحد عيوب الكلام وعرَّفه بأنه: «حذف الكلام»[٤].

٥ ــ **التعتعة**: أن يعيا بكلامه ويتردد من حَصَر أو عِيّ، وقد تتعتع في كلامه وتعتعه العِيُّ، ومنه الحديث: «الذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه، أي يتردد في قراءته ويتبلَّد فيها لسانه[٥].

٦ ــ **التلعثم**: التباطؤ في اللسان، ومنه الحديث: «ما عرضت الإسلام على أحد إلاَّ كانت فيه كبوة إلاَّ أن أبا بكر لم يتلعثم»، أي أجاب من ساعته أول ما دعوته ولم ينتظر ولم يتمكث وصدق بالإسلام ولم يتوقف[٦].

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٧، والكامل ٣/ ٧٦١، وأدب الكاتب ١٣٧، والمخصص ٢/ ١١٨، واللسان (تمم)، ورسالة اللثغة، ص ٥٣٠.

(٢) العبيدي، د. رشيد عبد الرحمن، عيوب اللسان واللهجات المذمومة، مقال نشر في مجلة المجمع العراقي، مج ٣٦، ج ٣، ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٥م، ص ٢٤٧.

(٣) اللسان (بكأ).

(٤) الكامل ٣/ ٧٦٢.

(٥) المخصص، لابن سيده ٢/ ١٢٣.

(٦) اللسان (لعثم)، وانظر: عيوب اللسان واللهجات المذمومة، ص ٢٤٩.

٧ ــ **الجَلَع**: انقلاب غطاء الشفة إلى الشارب، وشفة جلعاء، وجلعت اللِّثة جَلَعًا وهي جلعاء إذا انقلبت الشفة عنها حتى تبدو، وقيل: الجَلَع ألا تنضم الشفتان عند المنطق بالباء والميم تَقَلِص العليا فيكون الكلام بالسفلى وأطراف الثنايا العليا، ورجل أجلع: لا تنضم شفتاه على أسنانه[١].

٨ ــ **الحَصَر**: العِيّ في الكلام[٢].

٩ ــ **الحُكْلَة**: غِلَظ اللسان وتقبضه، وفي اللسان حكلة: أي عجمة[٣].

١٠ ــ **الحُبسة**: تعذر الكلام عند إرادته، وسمَّى الكندي اللاثغ بالقاف (ذا الحبس)[٤].

١١ ــ **الرُّتَة**: عجلة في الكلام وقلة أناة فيه. وقيل: هو قلب اللام ياء، وفي حديث المسوّر أنه رأى رجلاً أرتَّ يؤم الناس فأخَّره. وقال المبرد: «الرتة كالريح تمنع أول الكلام فإذا جاء منه شيء اتصل»[٥].

١٢ ــ **الخُنَّة**: الأخنّ من يسبقه النفس إلى الخياشيم، وفي اللسان: «الخُنَّة ضرب من الغنة، كأن الكلام يرجع إلى الخياشيم، يقال: امرأة خنّاء وغناء وفيها مخَنَّة، ورجل أخنّ أي أغنّ مسدود الخياشيم»[٦].

---

(١) اللسان (جلع)، وأدب الكاتب ١٣٩.
(٢) اللسان (حصر)، والبيان والتبيين ١/ ٣، والمخصص ٢/ ١٢٣ ــ ١٢٤.
(٣) اللسان (حكل)، والمخصص ٢/ ١٢٢.
(٤) رسالة اللثغة، ص ٥٣٠، والكامل ٣/ ٧٦١.
(٥) الكامل ٣/ ٧٦٢، والمخصص ٢/ ١١٨.
(٦) اللسان (خنن)، ورسالة اللثغة، ص ٥٣٠.

١٣ ــ **الضَّجَم**: عيب خَلقي في الفم، قال ابن قتيبة: «والضَّجَم ميلٌ يكون في الفم وفيما يليه من الوجه»[١].

١٤ ــ **الضَّزَز**: عيب خَلقي في تركيب الحنكين، قال ابن قتيبة: «والضَّزَز: لصوق الحنك الأعلى بالحنك الأسفل، فإذا تكلم تكاد أضراسه العليا تمسُّ السفلى»[٢].

١٥ ــ **الطَّمطَمة**: العجمة. قال المبرد: «والطمطمة أن يكون الكلام مشبهًا لكلام العجم»، ورجل أعجم طِمْطم وطُمطُماني وطُماطِم[٣].

١٦ ــ **العُجمة**: الأعجم الذي لا يبين الكلام من العرب والعجم، والاسم العجمة، ومنه الحديث: «صلاة النهار عجماء»، أي لا تبين فيها القراءة[٤].

١٧ ــ **العُقْلَة**: يقال: «في لسانه عُقْلَة، إذا تعقَّل عليه الكلام»، وقال المبرد: «العُقلة التواء اللسان عند إرادة الكلام»، وسمى الكندي اللاثغ بالراء: ذا العقل[٥].

١٨ ــ **العَلَم**: والعَلَمة والعُلْمة: الشقُّ في الشفة العليا، عَلِم عَلَمًا فهو أعلم، والمرأة علماء[٦].

١٩ ــ **الفأفاء**: اللاثغ بالفاء. قال الجاحظ: «وإذا تتعتع في الفاء فهو فأفاء»[٧].

---

(١) أدب الكاتب، ص ١٣٧.

(٢) أدب الكاتب، ص ١٣٧.

(٣) الكامل ٣/ ٧٦٢، والمخصص ٢/ ١٢٢، واللسان (طمم).

(٤) المخصص ٢/ ١١٩، واللسان (عجم).

(٥) البيان والتبيين ١/ ٣٩، والكامل ٣/ ٧٦١، ورسالة اللثغة، ص ٥٣٠.

(٦) اللسان (علم).

(٧) رسالة اللثغة، ص ٥٣٠، والبيان والتبيين ١/ ٣٧، والكامل ٣/ ٧٦١.

٢٠ ـ **الفَقَم**: عيب خَلْقي في الفم. قال ابن قتيبة: «الفقم في الفم وهو أن تتقدَّم الثنايا السفلى إذا ضم الرجل فاه فلا تقع عليها العليا»[(١)].

٢١ ـ **الفَلَح**: شَقٌّ في الشفة السفلى، واسم ذلك الشَّقّ الفَلَحة مثل القَطَعة، رجل أفلح وامرأة فلْحاء[(٢)].

٢٢ ـ **الفَهَهُ**: الفهُّ العَيُّ: الكليل اللسان، يقال منه: جئت لحاجة فأفَهَّني عنها حتى فهِهْتُ أي أنسانيها. وهو الفَهْفَهُ والفهِيهُ، والأنثى فهَّةٌ على بناء فهٍّ، وقد فهَّ يفَهُّ فهَهًا وفهاهة وفهًّا وفهَّة[(٣)].

٢٣ ـ **اللُّكْنة**: أن تعترض على الكلام اللغة الأعجمية، قال الكندي: العلة في اللكَن أن العضل المحركة لعضو النطق لا تطيق حمله وتحريكه وتنقله عن الأماكن الواجبة للنطق»، وقال ابن سيده: «والألكن الذي لا يقيم العربية من عجمة في لسانه والأنثى لكناء وقد لَكِنَ لَكَنًا ولُكْنة ولُكُونة»[(٤)].

٢٤ ـ **اللجلجة**: ثقل اللسان ونقص الكلام وأن لا يخرج بعضه في إثر بعض، ورجل لجلاج، وقد لَجلَج وتلجلَج[(٥)].

٢٥ ـ **اللفف**: إدخال حرف في حرف[(٦)].

---

(١) أدب الكاتب ١٣٦ ـ ١٣٧، واللسان (فقم).

(٢) اللسان (فلح).

(٣) المخصص ٢/ ١٢٢، واللسان (فهه)، وعيوب اللسان واللهجات المذمومة ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٤) رسالة اللثغة، ص ٥٣٠، والمخصص ٢/ ١١٨ ـ ١١٩، والكامل ٣/ ٧٦٢.

(٥) اللسان (لجلج)، والمخصص ٢/ ١٢٢، وعيوب اللسان واللهجات المذمومة ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

(٦) الكامل ٣/ ٧٦٢، والمخصص ٢/ ١١٨، وعيوب اللسان واللهجات المذمومة ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

٢٦ ــ **اللَّيَغ**: رجوع اللسان إلى الياء، ويسمى صاحب هذا العيب الأليغ[١].

٢٧ ــ **المدموم**: اللاثغ بالجيم[٢].

٢٨ ــ **المقمقة**: التكلم من أقصى الحلق، قال ابن سيده: «المُقامق المتكلم بأقصى حلقه، وفيه مقمقة»[٣].

٢٩ ــ **المناغي العَيُّ**: اللاثغ بالغين، جاء في التهذيب: «أنغى: إذا تكلم بكلام لا يفهم»[٤].

٣٠ ــ **الهَتْهتة**: قال الأزهري: الهتهتة والتهتهة أيضًا في التواء اللسان عند الكلام[٥].

هذه أهم الألقاب التي أطلقها العرب على ما يعرض للسان من عيوب وأمراض تحول دون فصاحته، وهي غيض من فيض، وقُلٌّ من كُثْرٍ، فدون ما ذكرنا عشرات الألقاب الأخرى، أحصاها ابن سيده في معجمه الموسوعي المخصص فأربت على المئة والخمسين، على أن بعضها يتداخل في بعضها الآخر إما في اللفظ وإما في المعنى[٦]، وهي بهذه الكثرة تشير إلى مقدار عنايتهم باللسان وتتبعهم لكل عَرَضٍ ينتابه، أو علة تصيبه.

على أنَّ هذا التتبُّع لم يقتصر على العلل والأمراض، وإنما تعداها إلى

---

(١) اللسان (ليغ).
(٢) رسالة اللثغة، ص ٥٣٠.
(٣) المخصص ٢/ ١١٩، واللسان (مقق)، وعيوب اللسان ٢٩٦.
(٤) رسالة اللثغة، ص ٥٣٠، وتهذيب اللغة ٨/ ٢٠٤.
(٥) تهذيب اللغة ٥/ ٣٥٨، وعيوب اللسان ٢٩٦.
(٦) انظر: المخصص ٢/ ١١٨ ــ ١٤٢.

حال الصحة والسلامة، بل إلى ضروب القدرة على الفصاحة والبيان، فقد أعطى العرب لكل درجة من درجات الفصاحة لقبًا خاصًا يدلّ على مبلغ ما وصل إليه اللسان من بلاغة وطلاقة وبيان.

والمتتبع لمعجمات العربية ولا سيما معجمات المعاني يقف على كثير من هذه الألقاب، وسأكتفي هنا بإيراد ما ذكره الثعالبي في فقه اللغة تحت عنوان (فصل في حدة اللسان والفصاحة) ليكون منبهةً على ما وراءه: قال: «إذا كان الرجل حادَّ اللسان قادرًا على الكلام فهو ذَرِبُ اللسان، وفتيق اللسان، فإذا كان جيد اللسان فهو لَسِنٌ، فإذا كان يضع لسانه حيث أراد فهو ذَلِيق، فإذا كان فصيحًا بيِّنَ اللهجة، فهو حُذاقيٌّ «عن أبي زيد»، فإذا كان مع حِدَّة لسانه بليغًا فهو مِسْلاقٌ، فإذا كان لا تعترض لسانه عُقْدة ولا يتحيَّفُ بيانَه عُجمةٌ فهو مِصْقَع، فإذا كان لسان القوم والمتكلم عنهم فهو مِدْرَهٌ»[1].

ثالثًا: خصائص الفصاحة وشروطها عند أهل الفصاحة واللّسَن

ونعني بأهل الفصاحة واللسَن أولئك الذين كانت الفصاحة ملكة عندهم وطبعًا في ألسنتهم، لم يتعلموا أصولها في معهد، ولم يتلقوا دروسها من مدرس، وإنما رضعوا لِبانها مع لِبان أمهاتهم، ونشأوا عليها منذ نعومة أظفارهم، أو قل إنهم لم يعرفوا غيرها، ولم يسمعوا سواها، فقد عاشوا في بيئة عربية صافية، لا يخالطها خطأ، ولا يتطرق إليها لحن، ولا يداخلها ركاكة، ولا تمازجها لُكنة، فصفَت ألسنتهم، وعلا بيانهم، وسما تعبيرهم، وكانوا بحقٍّ أرباب الفصاحة والبيان.

---

(١) فقه اللغة وسر العربية، للثعالبي، ص ١١٠.

وكان المستمع إليهم يعيش في نعيم من البلاغة والطلاقة ونصاعة الكلام، ولعمري لقد صدق الجاحظ حين قال في وصفهم ووصف كلامهم: «إنه ليس في الأرض كلام هو أمتعُ ولا آنق، ولا ألذُّ في الأسماع ولا أشدُّ اتصالاً بالعقول السليمة، ولا أفتقُ للسان، ولا أجودُ تقويمًا للبيان، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء والعلماء البلغاء»[1].

فهؤلاء لهم في وصف الفصاحة والبلاغة والبيان شأن مختلف عما وجدناه عند علماء البلاغة من قبل أو عند أهل الأدب من بعد، وسنبدأ ذلك بهذا النص الذي رواه المبرد في كتابه الكامل:

قال: «وحدَّثني من لا أحصي من أصحابنا عن الأصمعي عن شعبة عن قتادة قال: قال معاوية يومًا: مَنْ أفصح الناس؟ فقام رجل من السِّماط فقال: قومٌ تباعدوا عن فراتيَّة العراق، وتيامنوا عن كشكشة تميم، وتياسروا عن كسكسة بكر، ليس فيهم غمغمة قضاعة، ولا طمطمانية حمير، فقال له معاوية: من أولئك؟ فقال: قومك يا أمير المؤمنين! فقال له معاوية: من أنت؟ قال: رجل من جَرْم. قال الأصمعي: وجَرْم من فصحاء الناس»[2].

فأمر الفصاحة يتعلق إذًا عند هؤلاء الفصحاء بالظواهر اللهجية وخصائص كل لهجة تنتمي إلى اللغة الواحدة، ذلك أن ثمة مبدأ لغوي لساني يقول: إن اللغات إذا انتشرت في مساحة كبيرة من الأرض واستعملتها طوائف من الناس ذات أنماط مختلفة استحال عليها حينئذٍ الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمدًا طويلاً حتى تصبح لهجات عدة تختلف كل منها عن الأخرى في كثير من مظاهر الأصوات والدلالة والقواعد والمفردات[3].

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١٤٥.

(٢) الكامل، للمبرد ٧٦٥.

(٣) أسس علم اللغة ٧١ ــ ٧٢.

ولا شك أن تعدد القبائل العربية في شبه جزيرة العرب، واختلاف العادات والتقاليد بين الشمال العدناني والجنوب القحطاني أدى إلى تشعب اللهجات واختلافها.

يقول أبو عمرو ابن العلاء: ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا، ويروي ابن فارس: «أنَّ زيد بن عبد الله بن دارم وفد على بعض ملوك حِمير، فألفاه في مصيد له على جبل مشرف فسلم عليه وانتسب له، فقال له الملك: ثِبْ ــ أي اجلس ــ، وظن الرجل أنه أمره بالوثوب من الجبل، فقال له: ستجدني أيها الملك مطواعًا، ثم وثب من الجبل فهلك، فقال الملك: ما شأنه؟ فخبروه بقصته وغلطه في الكلمة، فقال: أما ليست عندنا عربيت (أي عربية) من دخل ظفار حَمَّر، أي فليتعلم الحِميرية»[1].

ولسنا هنا بصدد بيان الفروق والاختلافات بين لهجة وأخرى، وإنما همّنا أن نسلط الضوء على اللغة الفصحى مبينين ما قعد باللهجات الأخرى عن أن ترتفع إلى حدود هذه اللغة.

إنها لهجة قريش التي قيض لها من المكانة والسيادة والبيئة والظروف والعوامل المختلفة ما مكن لها وجعل لغتها ولهجتها أفصح لهجات العرب، يقول الفراء: «كانت العرب تحضر الموسم كل عام وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به، فصاروا أفصح العرب، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ»[2].

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة، لابن فارس، نقلاً عن مصادر البحث اللغوي، للدكتور محمد حسن عبد العزيز، ص ١١.

(٢) الإصباح في شرح الاقتراح، ص ٤١٤ ــ ٤١٥.

وممّا ساعدها على هذه السيادة أن أهلها لم ينغلقوا ويتقوقعوا على أنفسهم، وإنما أمدوها بما هي في مسيس الحاجة إليه مما رقَّ وعذب وخفَّ على الأسماع وتيسر على الألسنة، وبهذا كانت لهجتهم أغنى اللهجات العربية وأغزرها مادة لغوية وأرقها أسلوبًا وأقدرها على التعبير في فنون القول المتشعبة.

والمقصود بمستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ التي خلت منها لهجة قريش تلك الظواهر التي شاعت في بعض القبائل العربية، وورد بعضها في النص المتقدم عن الأصمعي، وروى بعضها الآخر أبو العباس ثعلب بقوله: «ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضَّجع قيس، وعجرفية ضبّة، وتلتلة بهراء»[1].

ولذلك اصطنعت لغة قريش وحدها في الكتابة والتأليف والشعر والخطابة، فكان الشاعر من غير قريش يتحاشى خصائص لهجته ويتجنب صفاتها الخاصة في بناء الكلمة، وإخراج الحروف، وتركيب الجملة ليتحدث إلى الناس بلغة ألفوها وتواضعوا عليها، بعد أن أسهمت عوامل كثيرة في تهذيبها وصقلها.

ونزل القرآن الكريم بلهجة قريش لتكون لغته هي الباقية الخالدة دون سائر اللهجات الأخرى، وليمكّن لهذه اللهجة الفصحى، ويحفظها من التشتت والتمزّق، وليحول دون انبثاق لغات أخرى عنها كما حصل باللغة اللاتينية التي آلت إلى لغات متفرقة مختلفة منبتّة عن اللغة الأم لا تكاد تلتقي معها إلاّ في أمور يسيرة بحيث لا يمكن للناطق بلغة من هذه اللغات أن يفهم نصًا قديمًا باللاتينية أو حتى بلغته التي انبثقت عنها، لأن هذه اللغة أيضًا في تطور مستمر يقطع صلة الحاضر بالماضي ويحول دون فهم أي نصٍّ قديم،

(١) الخصائص، لابن جني ٢/ ١١.

على حين يفهم العربي اليوم قصائد امرىء القيس وعنترة وطرفة وغيرهم من شعراء الجاهلية، وذلك بفضل حفظ القرآن الكريم لهذه اللغة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أن محاولات كثيرة حاولت النيل من صمود العربية الفصحى سواء بالدعوة إلى إحياء اللهجات المحلية العامية أو كتابة الحروف العربية باللاتينية، أو إلغاء بعض خصائص العربية كالإعراب والنحو... ولكنه لم يقيض لأي منها أن ينتصر وما كان لها أن تنتصر ما دام في الدنيا قرآنٌ يتلى وسيدوم ذلك بإذن الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وما هذه اللهجات المحلية إلاَّ امتداد لتلك الظواهر اللهجية المستبشعة والمستقبحة التي ارتفعت لهجة قريش بالفصاحة عليها، وسنورد فيما يلي أبرز هذه الظواهر مشيرين إلى مواطنها وأهم شواهدها:

١ ـ **الكشكشة**: تنسب هذه اللهجة إلى ربيعة ومضر وبعضهم ينسبها أيضًا إلى تميم وأسد، يجعلون بعد كاف الخطاب للمؤنث شينًا فيقولون: رأيتكش وبكش، وعليكش، ومنهم من يجعلها مكان الكاف ويكسرها في الوصل، ويسكنها في الوقف فيقول: منش، وعليش، قال الراجز:

علــيَّ فيمــا أبتغــي أبغيــشِ	بيضــاء تــرضيني ولا تــرضيــشِ
وتطَّبــي وُدَّ بنــي أبيــشِ	إذا دنــوت جعلــت تنئيــشِ
وإن نــأيــت جعلــتْ تُــدنيــشِ	وإن تكلمــتِ حثَــتْ فــي فيــشِ

حتــى تنقِّــي كنقيــق الــديــشِ[1]

---

(١) الخصائص ١١/٢، وسر صناعة الأعراب ٢٠٧/١، وانظر في الكشكشة أيضًا: فقه اللغة، للثعالبي ١١١.

٢ ــ العجعجة: وهي لغة قضاعة، يجعلون الياء المشددة جيمًا، وعلى ذلك قول قائلهم:

خـالـي عـويـفٌ وأبـو علـجٍ　　المطعمـان اللحـم بـالعشـجٍ
وبـالغـداة فِلَـقَ البَـرْنِـجٍ　　تُقْلَـعُ بـالـوَدِّ وبـالصِّيصـجٍ

يريد: «أبو عليّ، وبالعشيّ، والبَرنيّ، وبالصِّيْصيَة، وهي قرن البقرة»[١].

٣ ــ العنعنة: وهي لغة تميم، يقلبون الهمزة عينًا، وذلك حين تجتمع همزتان، كقول ذي الرمة:

أعَن ترسَّمْتَ من خرقاءَ منزلةً　　ماءُ الصبابةِ من عينيكَ مسجومُ

يريد: «أأن»[٢].

٤ ــ الكسكسة: وهي لغة هوازن، يتبعون كاف الخطاب المكسورة (للتأنيث) سينًا ساكنة فيقولون: أعطيتكِسْ، ومنكِسْ وعنكِسْ وهذا في الوقف دون الوصل، فهي كالكشكشة ولكنها بالسين لا بالشين[٣].

٥ ــ الطمطمانية: وتنسب إلى حمير وبعض قبائل الجنوب كالأزد وطيِّىء، وهي إبدال اللام من (ال) التعريف ميمًا، كقولهم طاب امهواء، يريدون: طاب الهواء، ومنه حديث النبي ﷺ: «ليس من امبرِ امصيامُ في امسَفَر»، أي ليس من البر الصيام في السفر، جوابًا عن سؤال الأعرابي

(١) سر صناعة الإعراب ١/ ١٧٥ ــ ١٧٦، وانظر أيضًا: الصاحبي في فقه اللغة ٥٨.
(٢) انظر: الخصائص ١/ ١٣، والصاحبي ٥٦، وفقه اللغة ١١١.
(٣) انظر: الخصائص ٢/ ١٤، والصاحبي ٥٧.

الحميري: «أمن امبر امصيام في امسفر»[1].

٦ ـ **التلتلة**: وتنسب إلى بهراء، وهي كسر أول كل مضارع، فيقولون: نِعلم، ويِفهم[2]... وعليها القراءة الشاذة: ﴿**ألم إِعهد إليكم...**﴾[3].

وهذه اللهجة معروفة شائعة في لسان العوام اليوم في أكثر بلداننا العربية.

٧ ـ **الاستنطاء**: لقبت به لهجات سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والأنصار وأهل اليمن، ويقصد به في الدراسات القديمة إبدال العين الساكنة نونًا إذا جاورت الطاء ولم يذكر له إلاَّ مثال واحد هو أنطى في أعطى، وقرأ الحسن: ﴿**إنَّا أنطيناك الكوثر**﴾، وهي قراءة شاذة[4].

٨ ـ **الفحفحة**: وتنسب إلى هذيل، وهو جعل الحاء عينًا، وعليه القراءة الشاذة المنسوبة إلى ابن مسعود (عتَّى حين)[5].

هذه أهم الظواهر اللهجية التي وسمت بها اللهجات العربية القديمة واستمر بعضها في كثير من لهجات العرب المحلية اليوم، ومن المؤسف حقًّا أن يحاول بعض أصحاب هذه اللهجات الترويج للهجاتهم ونشرها عن طريق وسائل الإعلام المختلفة ولا سيما القنوات الفضائية التي بتنا نسمع من بعضها لهجات عامية، بل إن بعضها يقصر بثَّهُ على ذلك، وكأنه يريد أن

---

(١) فقه اللغة ١١١، والدراسات اللغوية عند العرب لمحمد حسين آل ياسين، ص ٤٧٨، ومغني اللبيب بتحقيق د. عبد اللطيف الخطيب ١/ ٣٠٩.

(٢) الخصائص ٢/ ١١ ـ ١٢، والدراسات اللغوية عند العرب، ص ٤٧٧.

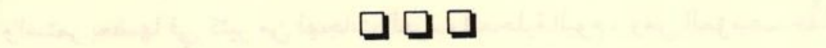
(٣) نسبها ابن جني إلى الهذيل بن وثاب في المحتسب ١/ ٣٣٠.

(٤) الدراسات اللغوية عند العرب، ص ٤٧٦.

(٥) الدراسات اللغوية عند العرب، ص ٤٧٦.

يمكّن للهجته وينشرها في دنيا العرب وهي لا ترقى إلى أن تعادل أو توازن بكثير من اللهجات المحلية بله أن تسمو لتحل محل العربية الفصحى، ولا ريب أنها دعوات مشبوهة ينبغي أن توءَد في مهدها وألا يستعمل في وسائل إعلامنا العربية وقنواتنا الفضائية سوى العربية الفصحى وسيكون ذلك كفيلاً بنشرها واعتيادها، كيف لا وقد فهمها الصغار في أرجاء الوطن العربي من خلال البرنامج الناجح (افتح يا سمسم)، وأصبح الكثير من برامج الأطفال يستعمل الفصحى ليضمن سعة الانتشار، فما أحرانا أن نتبع في برامج الكبار ما اتبعناه في برامج الأطفال، والله المستعان.

وجملة القول: إن الفصاحة تبدأ من اعتماد العربية والتمرُّس بها والترفع عن العامية واللهجات المحلية، ثم تقوى باجتناب ما قد يشوب اللغة من عيوب في النطق وأمراض في الكلام، ويكتمل أمرها أخيرًا بتعلم أحكام البلاغة التي تجعل من الفصاحة بيانًا يتذوق وكلامًا يُستمتع به فضلاً عما يشتمل عليه من مضمون.



الفصل الثالث
أثر الفصاحة وطرق اكتسابها

أولاً: أثر الفصاحة

وصف بعض البلغاء اللسان فقال: «اللسان أداة يظهر بها حسن البيان، وظاهر يخبر به عن ضمير، وشاهد ينبئك عن غائب، وحاكم يفصل به الخطاب، وناطق يُرَدُّ به الجواب، وشافع تدرك به الحاجة، وواصف تعرف به الحقائق، ومُعزٍّ ينفى به الحزن، ومؤنس تذهب به الوحشة، وواعظ ينهى عن القبيح، ومزيّن يدعو إلى الحسن، وزارع يحرث المودة، وحاصدٌ يستأصل الضغينة، ومُلهٍ يونق به الأسماع»[1].

فاللسان وسيلة يتوسل بها الإنسان لبلوغ كل حاجاته ويحقق بها كل أمانيه ورغباته، وكلما استطاع المرء أن يصقل من لسانه ويسمو في بيانه، كان أقدر على تحقيق أهدافه وبلوغ آماله واجتياز العوائق التي قد يصادفها واجتناب المآزق التي قد يقع فيها.

قال هشام بن عبد الملك: إن الله رفع درجة اللسان فأنطقه بين الجوارح.

وقال علي بن عبدة: إنما يبين عن الإنسان اللسان، وعن المودة العينان.

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس، لابن عبد البر القرطبي ١/٥٨.

وقال آخر: الرجل مخبوء تحت لسانه.

وقالوا: المرء بأصغريه قلبه ولسانه. وقال الشاعر:

وما المرءُ إلاَّ الأصغران: لسانُه ومعقوله، والجسم خلق مصوَّر
فإن طُرَّةٌ راقتك يومًا فربما يمرُّ مَذاقُ العود والعود أخضر»[1]

وكثيرًا ما يكون اللسان سببًا في رفع صاحبه وسموه أو في وضعه وذلِّه. قال يحيى بن خالد: «ما رأيت رجلاً قط إلاَّ هبته حتى يتكلم، فإن كان فصيحًا عظم في صدري، وإن قصر سقط من عيني»[2].

وقيل: تكلموا تُعرَفوا.

وقد يصغر المرء في عيون من حوله لصغرٍ في سنه، أو نحولٍ في جسمه، أو زرايةٍ في مظهره، أو دَمامةٍ في وجهه، فما يعلو به غير لسانه، وما يُكبره في عيونهم غير بيانه.

روى الجاحظ أن معاوية نظر إلى النَّخَّار بن أوس العُذري، الخطيب الناسب، في عباءة في ناحية من مجلسه، فأنكره وأنكر مكانَه زِرايةً منه عليه، فقال: من هذا؟ فقال النَّخَّار: يا أمير المؤمنين، إن العباءة لا تكلمك، وإنما يكلمك من فيها![3].

قال: ونظر النعمان بن المنذر إلى ضَمرة بن ضَمرة، فلما رأى دمامته وقلَّته قال: «تسمع بالمُعَيْديِّ لا أن تراه»، هكذا تقوله العرب، فقال ضمرة: «أبيتَ اللعن، إن الرجال لا تُكال بالقُفْزان، ولا توزن بالميزان، وليست

---

(1) العقد الفريد ٤/ ١٧٤.
(2) المستطرف في كل فن مستظرف للإبشيهي.
(3) البيان والتبيين ١/ ٢٣٧.

بمُسوك يُستقى بها، وإنما المرء بأصغريه: بقلبه ولسانه، إن صال صال بجَنان، وإن قال قال ببيان»[1].

وقد بلغ من تقدير العرب للسان والبيان أن عدُّوه معادلاً لنور العيون، قال ابن عباس بعدما ذهب بصره:

إن يأخذ اللّٰهُ من عينيَّ نورهما ... ففي لساني وقلبي منهما نورُ
قلبي ذكي وعقلي غير ذي دَخَلٍ ... وفي فمي صارم كالسيف مأثور[2]

ولا غَروَ فباللسان يجول المرء ويصول ويبلغ ما لا يبلغه بحواسه الأخرى، فإذا كان اللسان فصيحًا طليقًا، كان أعون على الإبانة، وأرجى لتحقيق المآرب، قيل لدِغْفَل: أنى لك هذا العلم؟ قال: لسان سؤول، وقلب عقول[3].

وقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت رضي الله عنه: ما بقي من لسانك؟ فضرب به أرنبته وقال: والله لو وضعته على شعر لحلقه، أو على حجر لفلقه[4]!.

وهكذا كان حسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر الرسول ﷺ، بل شاعر الدعوة الإسلامية، ولسان حالها، والمنافح عنها، والذائد عن حياضها، بلسانه وفصاحته وبيانه وطلاقته.

والأذن ما تطرب لشيء طربها للسان فصيح وبيان مليح، ألم يقل بشار بن برد:

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١٧١.
(٢) الحيوان، للجاحظ ٣/ ١١٤.
(٣) الحيوان ٣/ ٤٨٩.
(٤) محاضرات الأدباء للأصبهاني.

يا قومِ أذني لبعضِ الحيِّ عاشقةٌ والأذنُ تعشقُ قبل العين أحيانا[1]

بل إن أثر اللسان ليجتاز الأذن ويصل إلى صميم القلوب والضمائر. يقول المتنبي:

إذا ما صافح الأسماع يومًا تبسَّمت الضمائر والقلوب

ويقول الحصري القيرواني في زهر الآداب: «والكلام الجيد الطبع مقبول في السمع، قريب المثال، بعيد المنال، أنيق الديباجة، رقيق الزجاجة، يدنو من فهم سامعه، كدنوِّه من وهم صانعه»[2].

وللفصاحة والبيان أثر كبير في تجلية الحقائق ووصف الوقائع، ولكن أثرهما يبدو أكبر عندما تبرز قدرتهما على قلب الأمور رأسًا على عقب، وطمس الحقائق، وتزوير الوقائع، وذم ما حقه المدح، ومدح ما حقه الذم، وهو خلق ذميم نهى عنه الإسلام وتوعد رسول الله ﷺ صاحبه بالنار في قوله: «ولعل بعضكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بشيء من ذلك فإنما أقطع له قطعة من النار»[3].

ولكننا ذكرناه هنا لنقف على مقدار أثر الفصاحة والبيان في النفوس، حتى إنها لتمكن صاحبها من مدح الشيء وذمه بآن واحد، وقد ألف أمير البيان الجاحظ في ذلك كتابًا سماه «مدح الشيء وذمّه»، تناول فيه أشياء بالمدح تارةً وبالذم تارةً أخرى، ولعل في خبر عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر خير دليل على هذا، فقد سأل رسول الله ﷺ عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر، فقال: «إنه لمانع لحوزته، مطاع في أذْنَيه»، قال الزبرقان:

---

(١) ديوان بشار بن برد ٤/ ١٩٤.

(٢) زهر الآداب، ص ٨٣٨.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ٣٣٢ من حديث أبي هريرة.

إنه يا رسول الله ليعلم مني أكثر مما قال، ولكنه حسدني شرفي، فقصَّر بي، قال عمرو: «هو والله زَمِرُ المروءة ضيق العَطَن، لئيم الخال»، فنظر النبي ﷺ في عينيه فقال: «يا رسول الله، رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الآخرة»، فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحرًا»[1].

ومما يدخل في هذه البابة ما أُلِّف من مقامات في المفاخرات والمناظرات، حيث يحشد الأديب كل ما أوتي من بلاغة وفصاحة وبيان وطلاقة في الاستدلال على مدح الشيء ورفعته وعلو قدره ومنزلته، ثم يحشد مثل ذلك للاستدلال على مدح نقيضه فيحار القارىء إلى أيهما ينحاز، وقد عنيت بأَخَرة بإخراج كتاب في هذه المقامات لثلة من الأدباء بعنوان: «المفاخرات والمناظرات» ضم مفاخرة بين الليل والنهار، وأخرى بين الشمس والقمر، وثالثة بين الغربة والإقامة، ورابعة بين العلم والجهل، وخامسة بين الماء والهواء، وسادسة بين الأرض والسماء[2].

ولا أجد في ختام هذا الفصل وبيان هذا المعنى أحسن من قول ابن الرومي:

في زخرف القول تزيين لباطله	والحقُّ قد يعتريه سوء تعبير
تقول هذا مُجاج النحل تمدحُهُ	وإن تعِبْ قلت ذا قيء الزنانير
مدحًا وذمًّا وما جاوزت وصفهما	سحر البيان يُري الظلماءَ كالنور[3]

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٥٣.

(٢) طبع بدار البشائر الإسلامية ببيروت عام ٢٠٠٠.

(٣) ديوان ابن الرومي ٣/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨ مع بعض الاختلاف في الرواية.

ثانيًا: اكتساب الفصاحة وتربية الأجيال عليها

ليس أمر اكتساب الفصاحة بالأمر السهل فيبدو نهزة للمختلس ولا هو بالأمر البعيد المنال أو المستحيل فييأس منه الطالب ويعرض عنه المريد، إنه كأيٍّ مهارة أخرى يحتاج إلى إعداد وتعلُّم، ومزاولة وتمرُّس، و «إنما العلم بالتعلّم، وإنما الحلم بالتحلُّم، ومن يتوَخَّ الخير يعطه، ومن يتوقَّ الشرَّ يوقه»[1]، كما قال الصادق المصدوق ﷺ.

فمن أراد الفصاحة وسعى لها سعيها، فعليه أن يسلك مسالكها، وأن يدرج في مدارجها، وأن يتحامى عيوبها، ويجتنب آفاتها، ليصل بإذن الله إلى امتلاك ناحيتها، والتمكُّن من عمودها.

وقد عدَّ ابن خلدون اللغة ملكة صناعية فقال في مقدمته: «اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذٍ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة، والملكات لا تحصل إلاَّ بتكرار الأفعال لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة ثم يتكرر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة»[2].

وجاء علم اللسانيات ليؤيد ما ذهب إليه ابن خلدون في نظرية اكتساب

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٩/ ١٢٧ من حديث أبي هريرة.

(٢) مقدمة ابن خلدون ٣/ ١٢٧٨ ـ ١٢٧٩.

اللغة، إذ يرى تشومسكي ـ أحد أقطاب علم اللسانيات ـ أن الطفل يولد ولديه معرفة فطرية لتعلم اللغة، أو أن لديه ملكة تهيِّئه لهذا العلم، وهذه المعرفة تؤلف الأداة لاكتساب اللغة وهي موجودة عمومًا لدى كل إنسان[١].

ويؤكد علم اللسانيات أن الأطفال يحاكون أو يقلدون ما يسمعونه من الكبار، ولذا تعد المحاكاة أحد الأساليب المهمة التي يستعملها الطفل عند اكتسابه اللغة، فقد أوضحت البحوث العلمية أن ترديد المسموع أسلوب واضح ومميز في التعلم المبكر للغة وجانب مهم في الاكتساب المبكر لأصواتها[٢].

إن محاكاة الطفل لما يسمعه تتم بادىء بدءٍ دون فهم أو تركيز على المعلومات المتعلقة بالمعاني التي تمثل البنية العميقة للغة، ويستمر الطفل بهذه المحاكاة السطحية في المراحل الأولىٰ من الاكتساب اللغوي لعدم امتلاكه القدرة الضرورية لربط المعاني بالعبارات والألفاظ، ولكن الأطفال مع مرور الزمن وفهم مستوى المعاني في اللغة يبدؤون في تركيز الكثير من اهتمامهم وربما كل اهتمامهم على مستوى البنية العميقة للغة، كما ينشغلون في محاكاة هذا المستوى، حتى ربما جار ذلك على تركيزهم على المحاكاة السطحية بحيث يبدون كأنهم مقلدون غير مجيدين[٣]، إن الربط بين هذه البنية العميقة وتلك السطحية هو أقرب ما يكون إلى ما عبَّر عنه ابن خلدون بمراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال. . .

---

(١) مبادىء تعلُّم وتعليم اللغة، دوجلاس براون، ترجمة د. إبراهيم القعيد ود. عبد الشمري، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، ص ٥٤.

(٢) مبادىء تعلم وتعليم اللغة، ص ٥٩.

(٣) مبادىء تعلم وتعليم اللغة، ص ٦٠.

ولم يكتفِ ابن خلدون بهذا بل راح يبيّن سبل اكتساب هذه الملكة بعد أن فسدت الألسنة، حيث يقول: «اعلم أن ملكة اللسان المضري لهذا العهد قد ذهبت وفسدت، إلاّ أن اللغات لما كانت ملكات كان تعلمها ممكنًا شأن سائر الملكات، ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن، والحديث، وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولدين أيضًا في سائر فنونهم، وحتى يتنزّل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولُقِّن العبارة عن المقاصد منهم، ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم، وتأليف كلماتهم، وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم، فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال، ويزداد بكثرتهما رسوخًا وقوة»[1].

بناءً على هذا كله يمكن أن نقترح الخطة التالية لاكتساب ملكة الفصاحة:

١ ـ تنشئة الطفل على سماع الكلام الفصيح:

وذلك بأن يخضع الطفل لدورات منظمة من خلال رياض الأطفال لا يسمع فيها إلاّ الفصيح من الكلام، وقد أثبتت هذه الطريقة فعاليتها وآتت أكلها على خير وجه من خلال التجارب التي أجراها الأستاذ الدكتور عبد الله دنان على طفليه أولاً ثم على رياضٍ للأطفال في كل من الكويت ودمشق، وهو بصدد تعميم هذه التجربة على أقطار الوطن العربي الكبير.

(١) مقدمة ابن خلدون ٣/ ١٢٨٥ ـ ١٢٨٦.

ويؤكد د. دنان ــ الذي درس أصول التربية واكتساب اللغة في بريطانيا وكان له مشاركة فعالة في البرنامج التلفازي الناجح (افتح يا سمسم) ــ أن فترة الخصوبة اللغوية إنما تنحصر في المدة الواقعة بين السنة الأولىٰ والسنة السادسة من عمر الطفل؛ إذ يحاكي الطفل ما يسمعه من حوله وتكون لديه القدرة العجيبة على المحاكاة والتركيب والتحليل والقياس والتوليد والاشتقاق والنحت، إلى حدٍّ جعل التربويين يفكرون بتلقين الطفل عدة لغات بآن واحد في هذه السنِّ كما يجري في سدني بأستراليا، إذ تقوم إحدى المؤسسات التربوية بتلقين الأطفال ست لغات بآن واحد!!.

وأنا أشهد أن تجربة د. دنان قد حظيت بنصيب لا بأس به من النجاح، فقد سمعت حوارًا مسجلاً على الفيديو بينه وبين ابنه ذي السنوات الثلاث فكانت العربية تجري طيِّعة غضَّة على لسان الطفل بلا تكلف ولا اصطناع، وإن تعجب فعجب أمره حين كان يجيب أمه بالعامية إما تدخلت في ذلك الحوار ثم يعود إلى عربيته مع أبيه، فما كانت العربية بمانعة له من محاكاة لغة أمه العامية، فلكل مقام مقال، ولكل سؤال جواب.

ثم زرت الروضة التي أسسها في الكويت عام ١٩٨٩م، وزرت الروضة التي أسسها في دمشق عام ١٩٩٥م، فسمعت عجبًا من حديث الأطفال بالعربية الفصيحة، وسمعت طُرَفًا من أفانين اشتقاقهم وتوليدهم وقياسهم، مما جعلني أجري التجربة مع بعض أولادي في حدود ضيقة وقد كان فيها نفع كبير.

وقد شهد بنجاح هذه التجربة رهط من أهل العلم وأرباب اللغة على رأسهم أستاذنا العلامة سعيد الأفغاني رحمه الله، على أنه أبدى ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي اقتصار التلقين على الحوار وقص القصص بالعربية الفصيحة، وعدم اشتماله على نصوص سهلة من عيون الأدب العربي تساعد

الطفل على اكتساب اللغة وتنمية الذوق الأدبي الرفيع، وامتلاك أدوات الفصاحة والبيان.

وأنا مع أستاذنا الجليل في كل هذا، فلا بدَّ إلى جانب التلقين هذا من عرض طائفة من نصوص العربية تتخير من أسهلها لفظًا وأسلسها عبارةً وأيسرها حفظًا وأقربها فهمًا، وأحلاها إيقاعًا ووزنًا، ليسمعها الطفل فيطرب لها، ويتغنى بها، ويحفظها فتكون له رصيدًا وزادًا لغويًّا يرتقي به إلى مرتبة الفصحاء والأبيناء.

أذكر من هذه النصوص المتخيَّرة ـ على سبيل التمثيل ـ صغار السور القرآنية، وهي مما يمكن أن يردِّده مجموع الأطفال مع معلمهم بصوت واحد يجعل حفظه سهلاً، بل ينقشه في ذاكرة الطفل نقشًا يصعب أن يزول مع الزمن، ويمكن أن تتوسع دائرة هذه السور لتشمل جزء عمَّ كلَّه وتضم إليه سورًا أخرى يسهل تردادها على ألسنة الأطفال.

ومن هذه النصوص أيضًا قصائد تُتخيَّر من أرق الشعر وأعذبه جرسًا وأخفِّه وقعًا، مما يمكن أن يتغنى به الأطفال، كقصائد شوقي على ألسنة الحيوان، وقصائد سليمان العيسى الخاصة بالأطفال، بل إن المتتبِّع لاشعر العربي يقف على نماذج من عيون الشعر القديم بلغت الغاية في العذوبة والرقة والسهولة والخفَّة، من مثل قول العباس بن الأحنف:

وكـــانـــتْ جـــارةً للحـــ ـــورِ فـي الفـردوس أحقـابـا
فـأمسَـتْ وهـي فـي الـدنيـا ومـــا تـــألـــفُ أَتـــرابـــا
لهـــا لُعَـــبٌ مصفَّفَـــةٌ تلقِّبُهُـــنَّ ألقـــابـــا
تنـــادي كلَّمـــا ريعـــتْ مـــن الغِـــرَّة يـــا بـــابـــا[1]

---

(١) ديوان العباس بن الأحنف، تحقيق عاتكة الخزرجي، طبعة دار الكتب المصرية، ص ١٨، والبيت الأخير دليل على أن لفظة (بابا) عربية أصيلة.

وأمثالها كثيرة في أدبنا العربيّ، وقد كان أستاذنا العلامة أحمد راتب النفاخ يحفِّظ ولده من غرر الشعر الجاهلي والإسلامي الشيء الكثير ولم يكن عمره يزيد على أربع سنوات!

ولا بدَّ من التنبيه هنا على ملاحظة في غاية الأهمية، وهي وجوب أن يكون المعلم متقنًا للغة لا يلحن فيما يلقِّن للطفل، وإلاَّ ضاع الجهد سُدى وانقلب الأمر ضررًا، لأن ما بني على فسادٍ فإلى فسادٍ يؤول، واللحن الذي يلقَّن للطفل سينقش في ذهنه وسيؤدي إلى قياس فاسد عنده.

وينبغي أيضًا أن يجمع المعلم إلى إتقانه للغة، تجويدًا لأصواتها، وإفصاحًا للنطق بها، وسلامة من آفات النطق، ومن طغيان بعض اللهجات العامية على لسانه، لأن الطفل سيحاكي ما يسمعه، فإذا سمع اللفظ مجوّدًا فصيحًا خاليًا من الآفات أدَّاه أحسن الأداء، وإلاَّ انطبع الفساد في ذهنه وبَعُد عن الفصاحة بُعْدَ معلمه عنها.

٢ ــ قراءة النصوص الفصيحة وحفظها:

ويكون ذلك بعد أن يشبَّ الطفل عن الطوق ويغدو قادرًا على القراءة، وعلى أن يباشر ذلك بنفسه، عند ذلك لا بدَّ من وضع قائمة من الكتب المشتملة على أفصح النصوص يقرؤها الطالب، ويتذوق ما فيها، ويصطفي منها ما يحسن حفظه، ويحلو ترداده، ليكون له زادًا يقيم به لسانه، ويُعلي بيانه، ولا بدَّ له في سبيل ذلك أن يتخذ كنَّاشًا أو كراسًا يكتب فيه اختياراته تمهيدًا لحفظها، وما أحسن ما قال في ذلك يحيى بن خالد لولده: «اكتبوا أحسن ما تسمعون، واحفظوا أحسن ما تكتبون، وحدثوا بأحسن ما تحفظون، وخذوا من كلِّ شيءٍ طرفًا، فإنه من جهل شيئًا عاداه»[1].

---

(١) عن كتاب آل القاسمي ونبوغهم في العلم والتحصيل، للشيخ محمد بن ناصر =

ولا ريب أن أول كتاب يتصدَّر هذه القائمة هو القرآن الكريم، فهو بوَّابة العربية، والأساس المتين لكل راغب في إتقانها، وما أفلح من أفلح من أدباء العربية المسلمين والنصارى إلاَّ بحفظهم للقرآن الكريم وتلاوتهم لآياته، وتذوقهم لبلاغته، ووقوفهم على روائعه وبدائعه، ورحم الله أستاذنا الأفغاني، إذ يقول: «بين علوم القرآن الكريم وعلوم اللغة العربية ترابط محكم، فمهما تتقن من علوم العربية وأنت خاوي الوفاض من علوم القرآن فعلمك بها ناقص واهي الأساس، وقدمك فيها غير ثابتة، وتصورك للغة غامض يعرضك لمزالق تشرف منها على السقوط كل لحظة، وسبب ذلك واضح لكل من ألمَّ بتاريخ العربية، فهو يعلم حق العلم أنها جميعًا نشأت حول القرآن وخدمة له»[1].

يلي ذلك الحديث النبوي الشريف، وفيه من عيون البلاغة والفصاحة ما لا يوجد في كتاب قط، ولا غرو فصاحبه رسول الله ﷺ أفصح من نطق بالضاد، وجوامع الكلم التي أثرت عنه منهل ثرٌّ من مناهل الفصاحة والبيان، يقول يونس بن حبيب: ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله ﷺ[2].

ثم نهج البلاغة لأمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرَّم وجهه فهو مجمع من مجامع الفصاحة، لا تكاد تقرأ كلمة فيه إلاَّ وتجد حلاوة فصاحتها وعذوبة بيانها في فمك وسمعك وقلبك.

= العجمي ـ دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، ص ٢٢٤.

(١) من مقدمة الأستاذ سعيد الأفغاني لحجة القراءات، طبعة دار الرسالة، بيروت، ص ١٩.

(٢) البيان النبوي مدخل ونصوص للدكتور عدنان زرزور، ص ١.

وفي صاحبه يقول السيد الشريف الرضي رحمه الله: «مشرع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها وعنه أُخذت قوانينها وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصروا وتقدم وتأخروا، لأن كلامه عليه السلام الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلـٰهي وفيه عبقة من الكلام النبوي»[١].

ثم مجمع الأمثال للميداني، والأمثال اختصار للفصاحة، وتمثيل للبلاغة في أجمل صورها، وقديمًا عُرِّفت البلاغة بأنها الإيجاز، وما ثَمَّةَ أوجزُ من مثل.

ثم أساس البلاغة للزمخشري، وهو خير معجم لتعليم الفصاحة، لأنه اشتمل على نماذج من فصيح القول وبليغ العبارات لا يَشْرَكُهُ فيها معجم آخر. وفي ذلك يقول صاحبه: «ومن خصائص هذا الكتاب تخيّر ما وقع في عبارات المبدعين وانطوى تحت استعمالات المُفلقين، أو ما جاز وقوعه فيها، وانطواؤه تحتها، من التراكيب التي تملُح وتحسُن، ولا تنقبض عنها الألسُن، لجريها رَسْلاتٍ على الأسَلات، ومرورها عَذْباتٍ على العَذَبات»[٢].

كل هذا تمهيد أو كالتمهيد لقراءة أربعة كتب جعلها ابن خلدون أركان فن الأدب، وذلك حيث يقول: «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين، وهي أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر

(١) نهج البلاغة ـ التقديم. ط. إيران.

(٢) عَذْبات: جمع عذبة: سائغة حلوة. والعَذَبات: أطراف الألسنة، أساس البلاغة، للزمخشري، مقدمة المؤلف رحمه الله، ص (ك).

لأبـي علي القـالـي البغـدادي، ومـا سـوى هـذه الأربعـة فتبـع لهـا وفـروع عنها»[1].

وأنا ضامن لمن قرأ هذه الكتب الأربعة أن يغدو من أرباب الفصاحة والبيـان، علـى أن تكـون قـراءتـه لهـا قـراءة تـدبُّـر وتبصُّـر لا قـراءة مطـالعـة واستجلاب للنوم.

ولعل خير من وصف هذه القراءة الأستاذ العلامة والأديب المتذوق محمود محمد شاكر رحمه الله ــ وهو بلا شك أحد شيوخ الفصاحة فيما أدركناه من زمن ــ وذلك حيث يقول واصفًا منهجه في القراءة وطريقته في التذوق: «ويومئذٍ طويت نفسي على عزيمة حذَّاء ماضية، أن أبدأ وحيدًا منفردًا، رحلة طويلة جدًّا، وبعيدة جدًّا، وشاقَّة جدًّا، ومثيرة جدًّا. بدأت بإعادة قراءة الشعر العربـي كله، أو ما وقع تحت يديّ منه يومئذٍ على الأصح، قراءة طويلة الأناة عند كل لفظ ومعنى، كأني أقلبهما بعقلي وأروزهما «أي: أزنهما مختبرًا» بقلبـي، وأجسُّهما جسًّا ببصري وببصيرتي وكأني أريد أن أتحسسهما بيدي، وأستنشي «أي: أشم» ما يفوح منهما بأنفي، وأسَّمَّع دبيب الخفيّ فيهما بأذني، ثم أتذوقهما تذوُّقًا بعقلي وقلبـي وبصيرتي وأنامـلـي وأنفي وسمعي ولساني، كأني أطلب فيهما خبيئًا قد أخفاه الشاعر الماكر بفنِّه وبراعته، وأتدسَّس إلى دفينٍ قد سقط من الشاعر عفـوًا أو سهـوًا تحـت نظـم كلمـاتـه ومعـانيـه دون قصـد منـه أو تعمُّـد أو إرادة»[2].

أوردتُ هذا الكلام العالي ليقف طالب الفصاحة على طريقة أهل

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٣/ ١٢٧٧ ــ ١٢٧٨.

(٢) المتنبـي لمحمود محمد شاكر، ص ٦.

الفصاحة في تذوق الكلام الفصيح، إنها محاولة للتأسِّي، ومطاولة للتشبُّه، عسى أن نقرأ فننتفع، ونقلِّد فنفلح:

فتشبَّهوا إن لم تكونوا مثلهم   إنَّ التشبُّه بالكرام فلاحُ

بقي أن أشير إلى أنه يحسن أن يُجمع إلى ما ذكرتُ من كتبٍ بعضُ دواوين الشعر القديمة لفحول الشعراء من أمثال المتنبي وأبي تمام، فإن في الشعر ما لا يوجد في النثر من عذوبة اللفظ، وحلاوة الإيقاع، وجمال الصورة، وتدفُّق العاطفة، وهي أدعى للحفظ وأرجى للرواية والتمرُّس على الفصاحة[1].

ولعل خير ما أختم به هذه الفقرة كلمة لواحد من أرباب الفصاحة والذوق الأدبي الرفيع في زماننا هذا هو الأستاذ يوسف الصيداوي، يقول فيها: «إن إحسان اللغة إنما يكون في مصاحبة القرآن والحديث، ونهج البلاغة وديوان زهير، وجرير والفرزدق والأخطل، وبشار وأبي العتاهية، وأبي تمام والبحتري والمتنبي، وفي ملازمة الجاحظ، وأسألك بالله أن تستمسك بكتب الجاحظ فإنها ينبوع لغة وأدب لا ينضب، وفي ملازمة الأغاني فإنه مدرسة لطواعية المفردات في مواضعها من جَزْل التراكيب. فاستظهر الروائع من كل ذلك، واحفظها عن ظهر قلب كما تحفظ اسمك»[2].

---

(١) من الجدير بالذكر أن الحفظ أساس لتنمية الملَكة، وكلما كان المحفوظ جيِّدًا كانت الملكة أجود، وقد عقد ابن خلدون لهذا فصلاً في مقدمته تحت عنوان: «فصل في أنَّ حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ»، نبَّه فيه على أثر المحفوظ في ارتقاء الملكة أو قصورها، وضرب لذلك أمثلة رائعة يحسن الرجوع إليها. انظر المقدمة ٣/ ١٣١٣ ـ ١٣١٦.

(٢) الكفاف للأستاذ يوسف الصيداوي ـ دار الفكر بدمشق، ط ١، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، ج ١، ص ٥٥ ـ ٥٦.

٣ ـ تعلم النحو والبلاغة:

النحوُ يُصلِحُ من لسانِ الألكنِ ... والمرءُ تُكرمه إذا لم يلحنِ
والنحوُ مثلُ الملح إن ألقيته ... في كلِّ ضدٍّ من طعامك يحسنِ
وإذا طلبتَ من العلوم أجلَّها ... فأجلُّها عندي مقيمُ الألسنِ[١]

إن تعلم النحو يكسب الطالب مناعة ضد ما يعترضه من لحن أو خطأ في لسانه أو في قلمه، إنه سورٌ يحمي صاحبه من شر الانزلاق في هاوية الخروج عن الفصاحة، لأنه لا فصاحة للاحنٍ، ولا نجاة للمرء من اللحن إلاَّ بتعلم النحو بعد اكتساب اللغة الصحيحة والاطلاع على أدبها وحفظ نصوصها كما أسلفنا، ومهما حفظ الطالب من نصوص وتعلم من أدب فلن يكون بمأمن من الخطأ إن هو لم يتعلم النحو، لأن تسرُّب الفساد اللغوي إلى كل شيء من حوله سيحول بينه وبين استقامة اللسان على سَنن واحد، مما قد يوقعه في اللحن، وهنا يبرز أثر النحو وتتضح أهميَّته إذ به يتبين الخطأ من الصواب، وبالاحتكام إليه يتَّضح نظام اللغة ووظيفة كل كلمة فيها.

وما كان وضع النحو أصلاً إلاَّ لهذه الغاية، فقد كان فشوُّ اللحن الباعثَ الأول على وضع قواعد النحو واستنباط أحكامه، وقد عدَّ الأوائل تعلم النحو من المروءة، إذ روى ثعلب عن محمد بن سلام قوله: «ما أحدث الناس مُروءة أفضل من طلب النحو»[٢]. وقال شعبة: «مثل الذي يتعلم الحديث ولا يتعلم النحو، مثل البُرنس لا رأس له»[٣]. وكان أيوب السَّختياني يقول: «تعلموا النحو، فإنه جمالٌ للوضيع، وتركُه هُجنة للشريف»[٤]،

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس، للقرطبي ١/ ٦٦.
(٢) بهجة المجالس، للقرطبي ١/ ٦٤.
(٣) بهجة المجالس، للقرطبي ١/ ٦٤.
(٤) البيان والتبيين ٢/ ٢١٩.

ولا جرم فاللحن عندهم ممقوت منبوذ، وصاحبه مكروه لا حرمة له: «ليس للاحن حرمة». وفي ذلك يقول علي بن محمد العلوي:

رأيت لسان المرء رائد عقله وعنوانَه فانظر بماذا تُعَنْوِنُ
ولا تعدُ إصلاح اللسان فإنه يخبِّر عما عنده ويُبَيِّنُ
ويعجبني زيُّ الفتى وجماله فيسقط في عينيَّ ساعة يلحنُ[1]

ومن أطرف ما يروى في استنكار اللحن واستهجانه أن أعرابيًا دخل السوق فسمع أهله يلحنون في كلامهم فقال: سبحانك اللّٰهم يلحنون وترزقهم[2]؟!...

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أن تعلم النحو وحده لا يكسب فصاحة ولا يثري لغةً، وإنما هو يقوِّم اللغة التي يكتسبها المرء مما تلقَّنه وسمعه من كلامها، وما قرأه ووعاه من نصوصها، وما زاوله وتمرّس عليه من فصيحها وبليغها، ثم يأتي النحو بعد ذلك ليحيطَ هذا كله بسورٍ منيع يحفظه، وبناء محكم يجمعه.

وهذا ما بيَّنه عالمنا الفذّ ابن خلدون حين أكَّد أن السمع أحد الأسس لتعلم اللغات، إذ عن طريقه ينغرس الحسّ اللغوي السليم ليصبح ملكةً طبيعية في الإنسان: «وهذه الملكة إنما تحصلُ بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطُّن لخواصّ تراكيبه، وليست تحصُل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان فإن هذه القوانين إنما تفيد علمًا بذلك اللسان ولا يفيد حصول الملكة بالفعل في محلها»[3].

---

(١) بهجة المجالس، للقرطبي ١/ ٦٤.

(٢) ويروى أن أبا الأسود الدؤلي رأى أعدالاً مكتوبًا عليها «لأبو فلان» فقال: سبحان الله! يلحنون ويربحون!. بهجة المجالس ١/ ٦٦.

(٣) مقدمة ابن خلدون ٣/ ١٢٨٩ ــ ١٢٩٠.

إذًا فالنحو يكمل تلك السلسلة التي ابتدأناها بسماع الكلام الفصيح، وأردفناها بقراءة نصوصه وحفظ روائعه. إنه التاج الذي يتوَّج به الطالب ما اكتسب من ملكات اللغة:

اقتبس النحو فنعم المقتبَسْ والنحو زين وجمال مُلتَمَسْ
صاحبه مكرَّم حيث جلسْ من فاته فقد تعمَّى وانتكَسْ
كأن ما فيه من العيِّ خَرَسْ شتّان ما بين الحمار والفرسْ[1]

ويأتي علم البلاغة بعد هذا كله ليعلم الطالب سبل استعمال هذه الملكة التي امتلكها، كيف يتكلم؟ وكيف يصيب المعنى والقصد؟ ومتى يؤكد كلامه؟ ومتى يرسله؟ ومتى يحسن الإيجاز؟ ومتى يحسن الإسهاب؟ وأين يضع كلماته ليوافق مقتضى الحال؟ . . وغير ذلك من بحوث يثيرها علم البلاغة فتكتمل للمرء أدوات الفصاحة والبيان، لأن المهارة ليست بكثرة الكلام ولا طول البيان، وإنما هي بوضع الأمور في نصابها، وإعطاء المعاني مستحقاتها، فإن لكل مقام مقالاً، ولكل تعبير أصولاً.

قال خالد بن صفوان لرجل كثر كلامه: إن البلاغة ليست بكثرة الكلام، ولا بخفَّة اللسان، ولا كثرة الهذيان، ولكنها إصابة المعنى والقصد إلى الحجة[2]، وقيل لرجل: ما البلاغة؟ فقال: حسن الإشارة، وإيضاح الدلالة، والبصر بالحجة، وانتهاز مواضع الفرصة[3]، وقال المفضل الضبي: قلت لأعرابي: ما البلاغة عندكم؟ فقال: الإيجاز من غير عجز، والإطناب من غير خطل[4].

---

(١) إرشاد الأريب ١/ ٧٨.
(٢) بهجة المجالس ١/ ٦٨، وربيع الأبرار، للزمخشري ٤/ ٢٥٤.
(٣) بهجة المجالس ١/ ٧٢.
(٤) العمدة ١/ ٢٤١.

وقال ابن رشيق في العمدة: «البلاغة حسن العبارة مع صحة الدلالة»[1].

فقد يكون السكوت في بعض المواضع أبلغ من الكلام، وقد تكون اللمحة الدالة أبلغ من الإطالة المملة، وربَّ إشارة أبلغ من عبارة، ورحم الله من قال:

واعلـم بـأن مـن السكـوت إبـانـةً ومـن التكلـم مـا يكـون خبـالاً[2]

ولا بدَّ من التنبيه على أمر جدّ هام وهو وجوب تعلم البلاغة من كتب أئمة البلاغة الذين كتبوا عنها بأسلوب بليغ وبيان عالٍ كالإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لأن القارىء فيهما يأخذ البلاغة من منبعها، فيتعلم أصول هذا الفن مكتوبة بقلم أديب بارع متذوق وفصيح بيِّن متفوق، فيجمع في قراءته إلى المعرفة الذوق، وإلى العلم الفنَّ، وحسبك به من غنم.

على أن ذلك لا يعني ألَّا يستعين بالمختصرات السهلة التي وضعت في هذا الفن (كالبلاغة الواضحة)، فإنها وسيلة يتوسل بها الطالب إلى تلك الكتب الرائعة وبالله المستعان.

وأما كتب النحو فكثيرة جدًّا، ولعل أجمعها مع الاختصار والتركيز كتاب قواعد اللغة العربية لحفني ناصف وزملائه، فإنه جمع كل بحوث النحو بإيجاز واعتماد لرأي جمهرة النحاة دون الدخول في التفاصيل غير المجدية والتفريعات والشذوذ الذي جرَّ من المضرة أضعاف ما جلب من المنفعة للغة وأهلها.

وكنت قد سمعت من أستاذنا الأفغاني رحمه الله ثناءً كبيرًا على هذا الكتاب وصل إلى حدِّ القول: إنه ما من كتاب بعد كتاب سيبويه خير من كتاب قواعد اللغة العربية.

---

(١) العمدة ١/ ٢٤١.

(٢) العمدة ١/ ٢٤١.

هذا وممَّا ظهر بأَخَرة في هذا الميدان كتاب الكفاف للأستاذ يوسف الصيداوي، وهو كتاب يعيد صوغ قواعد العربية وينفي عنها كثيرًا من غوائلها ببيان رائع ونماذج من فصيح القول تغني الطالب غير المتخصص وتزوده زادًا حسنًا.

٤ ــ علم التجويد:

التجويد إعطاء كل حرف حقّه ومستحقّه مخرجًا وصفة[١]، وهو أمر يعدُّ من لوازم الفصاحة، إذ لا فصاحة لمن تتداخل الحروف في نطقه، أو يعتورها نقص في النطق، أو حَيْفٌ في الصفة، أو آفَةٌ من آفات الكلام كاللثغة والتأتأة والفأفأة وما أشبه ذلك مما فصَّلنا الحديث عنه آنفًا.

إن تلقين الترتيل للناشىء في رحاب الفصاحة أمر مهم للغاية، وهو يبدأ من كتاب الله عز وجل لينتهي بإتقان اللفظ العربي أيًا كان موضعه، إذ يضمن للناطق التلفظ بكلمات اللغة على النحو الأمثل الذي تتلقفه الآذان بشغف وتسمعه بعذوبة ويكون له أكبر الأثر في النفوس، خلافًا لمن يخرج الحروف من غير مخارجها، ويعطيها غير صفاتها مما يجعل نطقه ممجوجًا، يضيق به سامعه، وينتظر لحظة سكوته وفراغه، وما أكثر ما ابتلي الناس اليوم بمثل هؤلاء الناطقين الذي ذهبوا برُواء اللغة، ففقدت على ألسنتهم أجمل خصائصها وأروع صفاتها، واختلط حابل الحروف بنابلها، فرقَّقوا ما حقَّه التفخيم، وقلقلوا ما حقه الاستطالة، وهمسوا ما حقّه الجهر، وضاعت على ألسنتهم مخارج الحروف وصفاتها، وصرنا إلى ما قاله العباس ابن الأحنف:

مَــن ذا يُعيــرك عينَــه تبكــي بهــا ‌ ‌ ‌ ‌ أرأيــت عينًــا للبكــاء تعــار[٢]

---

(١) بهجة النفوس في تجويد كلام القدوس، محمد مأمون كاتبي، وزارة الأوقاف، الكويت، جزءان ١/ ٧٥.

(٢) ديوان العباس بن الأحنف، ص ٧.

وإذا كان ابن الجزري يقول في منظومته المشهورة:

والأخـذ بـالتجـويـد حتـمٌ لازمُ   مـن لـم يُجـودِ القُـرانَ آثـمُ[1]

فإني أزيد فأقول إن من لم يجود القرآن فلن تكتمل له أدوات الفصاحة مهما أوتي من علم بالعربية، وبصر بالأدب، وحفظ للشعر، ودراية بالنحو والصرف، لأن نطقه سيبقى في منزلة لا ترقى إلى ما ينبغي للناطق بالعربية، وذلك لكثرة ما اختلط في المجتمع من اللغات واللهجات، وما كثر من الفساد اللغوي والنطقي.

وما وضع التجويد حين وضع إلاَّ لمثل هذا، صدعًا بالأمر الإلـٰهي: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: ٤]، ووصولاً إلى الوجه الأمثل لهذه التلاوة، وقد حظي هذا الفن بمؤلفات جليلة بسط أصحابها فيها الكلام على مخارج الحروف وصفاتها وأحكام النون الساكنة والتنوين من إظهار وإخفاء وإدغام وإقلاب، وأحكام الميم الساكنة من إظهار شفوي وإدغام وإخفاء، وأحكام الراء وما أشبهها، وأحكام المدود بأنواعها المختلفة، والعجيب أن بعض هذه المصنفات لم يقتصر على هذه الأحكام وإنما تعدَّاها إلى بيان ما ينبغي تجنبه من أغلاط وأخطاء في التلاوة والترتيل مما يحتاج طالب الفصاحة اليوم إلى أن يعلمه ليجتنبه ويتحاماه في كلامه.

ولعلَّ من أشهر ما ألف في هذه البابة رسالة «التنبيه على اللحن الجلي واللحـن الخفـي» لأبـي الحسـن علـي بـن جعفـر السعيـدي المقـرىء (ت ٤٦١هـ)[2]، وقد جاء في مستهلها: «... واللحن الخفي لا يعرفه إلاَّ

---

(١) المنظومة الجزرية، نشرت في رسالة بعنوان: «ملحق المفيد في علم التجويد»، تأليف الحاجَّة حياة علي الحسيني، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م، ص ٥.

(٢) نشرت هذه الرسالة بتحقيق د. غانم قدوري الحمد في مجلة المجمع العراقي، سنة ١٩٨٥، مج ٣٦، ٢/ ٢٤٠ ـ ٢٨٧.

المقرىء المتقن الضابط الذي قد تلقَّن من ألفاظ الأستاذين، المؤدى عنهم، المعطي كل حرف حقه غير زائد فيه ولا ناقص منه، المتجنب عن الإفراط في الفتحات والضمَّات والكسرات والهمزات، وتشديد المشددات وتخفيف المخففات وتسكين المسكنات، وتطنين النونات، وتفريط المدَّات وترعيدها وتغليظ الراءات وتكريرها، وتسمين اللامات وتشريبها الغنَّة، وتشديد الهمزات وتلكيزها. . . »[1].

إن فن التجويد واحد من الفنون التي لا يمكن أن تُتقن بالاعتماد على الكتب فحسب، إذ لا بدَّ فيه من التلقي والتلقين المباشر من أفواه الأشياخ المقرئين المتقنين ليتمرَّس الطالب بطريقة الأداء الصحيحة ويجتنب كل ما ينبغي اجتنابه، ومن فضل الله على هذه الأمة أن أرباب التجويد منتشرون في كل صقع من أصقاع الأرض، يعلِّمون هذا الفن حِسبةً لوجه الله سبحانه، إيمانًا بما ادَّخره الله سبحانه لهم من جزيل الثواب وواسع المغفرة وحسن المآب لقوله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه»[2].

وكتب التجويد ورسائله كثيرة منتشرة، من أجلِّها وأقدمها كتاب الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق التلاوة للإمام المقرىء مكي ابن أبي طالب القيسي (٤٣٧هـ).

وفيما يلي جدول يلخِّص أبرز ما تشتمل عليه رسائل التجويد من مخارج الحروف وصفاتها المختلفة، وهو مقبوس من أطروحتي التي نلت بها درجة الدكتوراه: «جهود المالقي الصوتية في كتابه الدر النثير»[3]:

(١) رسالة التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي، ص ٢٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه. فتح الباري ٩/ ٧٤.

(٣) جهود المالقي الصوتية في كتابه الدر النثير، ص ٣١٨.

المخارج			الجهر	الهمس	الشدة	الرخاوة	التوسط	الإطباق	الانفتاح	الاستعلاء	الاستفال	الهوائية	الاستطالة	التفشي	الانحراف	التكرار	الصفير	الغنة	اللين	القلقلة
			المتضادة									غير المتضادة								
الجوف		١	ا				ا		ا		ا	ا								
الحلق	أقصاه	٢	ء		ء				ء		ء									
الحلق	أقصاه	٣		هـ		هـ			هـ		هـ									
الحلق	وسطه	٤		ح		ح			ح		ح									
الحلق	وسطه	٥	ع				ع		ع		ع									
الحلق	أدناه	٦		خ		خ			خ	خ										
الحلق	أدناه	٧	غ			غ			غ	غ										
الفم (ومخارجه متعلقة باللسان)	أصله: أقصاه	٨	ق		ق				ق	ق										ق
الفم (ومخارجه متعلقة باللسان)	أصله: أسفل منه قليلاً	٩		ك	ك				ك		ك									
الفم (ومخارجه متعلقة باللسان)	وسطه	١٠	ج		ج				ج		ج									ج
الفم (ومخارجه متعلقة باللسان)	وسطه	١١		ش		ش			ش		ش			ش						
الفم (ومخارجه متعلقة باللسان)	وسطه	١٢	ي				ي		ي		ي								ي	
الفم (ومخارجه متعلقة باللسان)	حافته	١٣	ض			ض		ض		ض			ض							
الفم (ومخارجه متعلقة باللسان)	طرف: حافته من أدناها	١٤	ل				ل		ل		ل				ل					
الفم (ومخارجه متعلقة باللسان)	طرف: بينه وبين مافوق الثنايا	١٥	ن				ن		ن		ن							ن		
الفم (ومخارجه متعلقة باللسان)	طرف: أدخل في ظهره	١٦	ر				ر		ر		ر				ر	ر				
الفم (ومخارجه متعلقة باللسان)	طرف: بينه وبين أصول الثنايا العليا	١٧	ط		ط			ط		ط										ط
الفم (ومخارجه متعلقة باللسان)	طرف: بينه وبين أصول الثنايا العليا	١٨	د		د				د		د									د
الفم (ومخارجه متعلقة باللسان)	طرف: بينه وبين أصول الثنايا العليا	١٩		ت	ت				ت		ت									
الفم (ومخارجه متعلقة باللسان)	طرف: بينه وبين ما فوق الثنايا	٢٠		ص		ص		ص		ص							ص			
الفم (ومخارجه متعلقة باللسان)	طرف: بينه وبين ما فوق الثنايا	٢١		س		س			س		س						س			
الفم (ومخارجه متعلقة باللسان)	طرف: بينه وبين ما فوق الثنايا	٢٢	ز			ز			ز		ز						ز			
الفم (ومخارجه متعلقة باللسان)	طرف: بينه وبين أطراف الثنايا	٢٣	ظ			ظ		ظ		ظ										
الفم (ومخارجه متعلقة باللسان)	طرف: بينه وبين أطراف الثنايا	٢٤	ذ			ذ			ذ		ذ									
الفم (ومخارجه متعلقة باللسان)	طرف: بينه وبين أطراف الثنايا	٢٥		ث		ث			ث		ث									
الشفتان	من باطن السفلى وأطراف الثنايا العليا	٢٦		ف		ف			ف		ف									
الشفتان	من بينهما	٢٧	ب		ب				ب		ب									ب
الشفتان	من بينهما	٢٨	م				م		م		م							م		
الشفتان	من بينهما	٢٩	و				و		و		و								و	
الخيشوم																		ن		

جدول مخارج الحروف وصفاتها

٥ ــ مزاولة الفصاحة قراءةً وكتابةً وكلامًا:

لا يعرف الشوق إلاَّ من يكابده ولا الصبابة إلاَّ من يعانيها

وأكاد أقول: ولا الفصاحة إلاَّ من يعانيها، فالفصاحة معاناة ومزاولة، تشترك فيها جميع الحواسِّ والمدارك، تبدأ بالسماع وتمرُّ بالقراءة لتنتهي بالكتابة والكلام الفصيح، فهي عمل متواصل للأذن والعين واليد واللسان، إذ هي تمرّس وتدريب يتبع الاكتساب والتحصيل، ولا يغني فيها اكتساب عن تمرُّس، ولا تحصيل عن تدريب، إنما تحصل بمجموع ذلك كله، ولعل أثر التمرّس والتدريب أكبر من أثر التحصيل والاكتساب لما لهما من أهمية في نمو ملكة الفصاحة وتثبت أركانها وتوطيد دعائمها، وكلما أكثر المرء من استعمال لسانه في ضروب من الفصاحة كان ذلك أطلق للسانه وأبلغ لبيانه وأعودَ عليه بزيادتها وبلوغ الغاية فيها.

روى المبرد في الكامل أن رجلاً قال لخالد بن صفوان: إنك لتُكثر! فقال: أُكثر لضربين: أحدهما فيما لا تغني فيه القلة، والآخر لتمرين اللسان، فإن حبسه يورث العُقلة. وكان خالد يقول: لا تكون بليغًا حتى تكلم أمتك السوداء في الليلة الظلماء في الحاجة المهمة بما تتكلم به في نادي قومك، فإنما اللسان عضو إذا مرَّنته مَرَن، وإذا أهملته خار، كاليد التي تخشنها بالممارسة، والبدن الذي تقويه برفع الحجر، وما أشبهه، والرِّجل إذا عُوِّدت المشيَ مشت[1].

ومما لا شكَّ فيه أن الخطابة ضرب من ضروب الفصاحة، بل هي مرتع خصب لها، وميدان واسع تتبدى مهارة الفصاحة من خلاله، والخطيب لا يغدو خطيبًا مصقعًا إلاَّ بمواصلة الدربة والتمرين، ومزاولة الخطابة

---

(١) الكامل، للمبرد، ٥٣٢.

والتمرس بأصولها والتدرب على فنونها، وما عرف عن خطيب أنه بلغ شأوًا في الخطابة متميزًا إلاَّ بعد طول دربة وتمرين وصقل، بالإضافة إلى ما حصَّله من علم ومعرفة، وما اكتسبه من ملكة وطبع.

جاء في زهر الآداب أن أبا داود كان يقول: «رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام، وحَلْيُها الإعراب، وبهاؤها تخيّر اللفظ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه»[1].

وجاء في البيان والتبيين: «... وطول الصمت يفسد اللسان، وقال بكر بن عبد الله المزني: «طول الصمت حُبْسة» وقال عمر بن الخطاب رحمه الله: «ترك الحركة عُقلَة»، وإذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره، وتبلَّدت نفسه، وفسَد حِسُّه، وكانوا يروُّون صبيانهم الأرجاز، ويعلمونهم المناقلات، ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب، لأن ذلك يفتق اللَّهاة، ويفتح الجِرْم [أي الحلق]، واللسان إذا أكثرت تقليبه رقَّ ولانَ، وإذا أقللت تقليبه وأطلت إسكاته جسأ وغلظ. وقال عَبَايَةُ الجُعْفي: «لولا الدُّرْبة وسوء العادة لأمرت فتياننا أن يمارِي بعضُهم بعضًا».

وأية جارحة منعتها الحركة، ولم تمرِّنها على الاعتمال، أصابها من التعقُّد على حسب ذلك المنع، ولمَ قال رسول الله ﷺ للنابغة الجعدي: «لا يفضُض اللّـهُ فاك»؟ ولمَ قال لكعب بن مالك: «ما نسي الله لك مقالك ذلك»؟ ولم قال لهيذان بن شيخ: «ربَّ خطيب من عبس»؟ ولمَ قال لحسان: «هيِّج الغطاريف على بني عبد مناف، والله لشعركَ أشدُّ عليهم من وقع السهام في غبَش الظلام»[2].

وقد يتساءَل المرء أين يمارس مثل هذه الفصاحة؟ ومتى يزاولها؟ ومع

---

(١) زهر الآداب ١/ ١٤٨.

(٢) البيان والتبيين ٢/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

مَن يستطيع التدرُّب؟ وأنى له ذلك في هذا الزمن الذي بعد أهله عن الفصاحة والبيان؟

والجواب أن خير مكان لمزاولة الفصاحة هو المدرسة والجامعة وحِلَق العلم وأندية الثقافة وما أشبه ذلك، حيث ترتفع سوية الكلام، لتلائم شرف المعاني المطروحة، فالعلم على اختلاف أنواعه واختصاصاته، لا يليق به أن يعالج بلغة مبتذلة سوقيّة تحاكي لغة العامة في لهوهم وأسواقهم ولغطهم، وإنما يليق به أن ترتفع سوية الكلام وترقى العبارة إلى مدارج الفصاحة والبيان، مما يرقى بالعلم ويسمو به وبأهله، ويكون أنفع للطالب وأجدى له.

وكثيرًا ما يتساءل المربُّون: لماذا انحدرت سوية التعليم عن ذي قبل؟ وما أسباب ضعف الطلبة والخريجين في العربية بعد طول قوة؟ والجواب يكمن في طريقة تدريسهم التي تغيرت واستبدل فيها الذي هو أدنى بالذي هو خير، أجل فقد غدت العاميات المبتذلة وسيلة تدريس العلوم المختلفة حتى اللغة العربية!! فهي تدرس في كثير من المدارس والجامعات بلهجة عامية أحيانًا وبلغة ركيكة ليست من الفصاحة في شيء أحيانًا أخرى! فكيف يكتسب الطالب فصاحةً؟ وأنَّى له بها؟!

إن الحلَّ يكمن في إعادة النظر في طرق التدريس ولغة التدريس، ولا شكَّ أن ذلك يحتاج إلى جهود كبيرة لتأهيل المدرسين لغويًّا ولإعادة النظر أيضًا بمن يؤهل للتدريس، وهي مسألة لا تخلو من صعوبة ولكنها ليست بمستحيلة إذا صحَّ العزم وصدقت النية ولاح الهدف من وراء ذلك مشرقًا ينبىء بمستقبل مشرق.

وعندما تغدو العربية هي الوسيلة الوحيدة للتعبير في قاعة الدرس يتسابق الطلبة إلى التعبير بها، ويتبارون في تجويدها، ويتفنَّنون في أساليب الكلام، مما يخرج ألسنتهم من طول الإسار، ويذهب عنها الحبسة

والركاكة، والعيّ والفهاهة، قال أبو العطاء يصف لسانه:

أُقلِّبُـــهُ كـــي لا يَكِــلّ بحبســـةٍ وأبعثـه فـي كـل حـقٍّ وبـاطـل

بل إن العدوى ستنتقل من قاعة الدرس إلى المجالس الأخرى والأندية والمحافل، حيث يتمايز الناس بطريقة نطقهم، ولا يعلو حديث مهما سما على الحديث بالعربية المبينة، فهي التي تسيطر بسحرها وجمالها وروائها على كل أهل المجلس، فتراهم منقادين إلى من يتقن الحديث بها، مصروفين إليه، يلتذون بوقع كلامه على أسماعهم، تتجاوب معه نبضات قلوبهم، ولا غروَ فهي كما قال الشاعر السحر الحلال:

خُلــقَ اللســـانُ لنطقِــهِ وبيــانِــهِ لا للسكـوتِ وذاكَ حـظُّ الأخـرس
فـإذا جلسـتَ فكـنْ مجيبًـا سـائـلاً إنَّ الكلامَ يزينُ ربَّ المجلسِ(١)

ولا يتوقف أمر الفصاحة على اللسان، وإنما يشاركه فيها القلم، فالقلم أحد اللسانين، وهو أبقى أثرًا، لأن الكتاب يقرأ بكل مكان ويدرس في كل زمان، ويتجاوز الحدود ويرتفع على القيود.

فإذا تمرَّس الطالب بأساليب الكتابة، حسن تعبيره، وشقَّ طريقه إلى امتلاك ناصية القلم، مما يعود عليه بالخير العميم، والنفع المستديم، فالكتابة تفتح آفاقًا واسعة، وتصل إلى ما لا يصل إليه اللسان، ولكنها كاللسان أو هي أعصى، لمسيس حاجتها إلى طول الدربة، وكثرة التمرين، ومعاودة التجربة، وإعادة النظر فيما يكتب، فالكاتب يطمح دائمًا إلى تجويد كتابته والرقيّ بها إلى مدارج البلغاء، مما يضطره إلى إعادة النظر، والحذف والتعديل، والإضافة والتذييل، ورحم الله العماد الأصفهاني إذ يقول:

«إني رأيتُ أنَّهُ لا يكتب إنسانٌ كتابًا في يومه إلَّا قال في غيرِهِ: لو غُيِّر

---

(١) محاضرات الأدباء للأصبهاني.

هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العِبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر»[1].

وبهذا تصقل الكتابة، وتتضح سمات الأسلوب، ويبلغ الكاتب حدَّ الفصاحة والإبداع.

٦ ــ أثر وسائل الإعلام في اكتساب الفصاحة:

تغزو وسائل الإعلام مرئيةً ومسموعة ومقروءة كل بيت، فتصل إلى الصغير والكبير، ويتأثر بها كل إنسان شاء أو أبى، طوعًا وكرهًا، وهي بلا شك تشتمل على الصالح والطالح، والنافع والضار، والمصلح والمفسد، فإن نحن أحسنًا توجيهها في خدمة موضوع الفصاحة واكتسابها، كان لها الأثر الكبير في ذلك.

ولقد أثبت البرنامج التلفازي المشهور (افتح يا سمسم) صدق هذه المقولة، إذ كان له الأثر الناجع في لسان الأطفال، فالتفوا حوله على اختلاف لهجاتهم وأقطارهم ومنازعهم ومشاربهم ليفهموا أوّلاً كل كلمة فيه لأنه استعمل العربية الفصيحة المألوفة المأنوسة، وليحاكوا ثانيًا أسلوبه في استعمال هذه اللغة، مما مهد لظهور الكثير من أفلام الأطفال المتحدثة بالعربية، وهو أمر دفع إليه رغبةُ المنتج في بيع هذه الأفلام وتسويقها في كل أرجاء الوطن العربي الكبير، فكانت العربية خير ملاذٍ يلجأ إليه، إذ بها يستطيع أن يدخل كل بيت عربي على امتداد الوطن العربي الكبير، فإذا كان الدافع الرغبة في الربح والتجارة فلِمَ لا يكون أيضًا الرغبة في نشر العربية السليمة في كل صقع عربي؟ بل لم لا يجتمع الأمران فنخضع هذه البرامج لرقابة لغوية تنفي عنها آثار الركاكة والخطأ الشائع واللحن وما إلى ذلك

---

(١) معجم الأدباء، مقدمة الكتاب.

مما يضير بالفصاحة، وتكسوها ثوبًا قشيبًا من الفصاحة والبلاغة والبيان.

إن مثل هذا العمل العظيم واجب ديني وقومي ووطني، ينبغي أن يحظى بالقرار السياسي الحكيم الذي يفرض هذه الرقابة اللغوية على كل ما تنتجه وسائل الأعلام ليصل نتاجها إلى أبناء العربية بريئًا من كل ما يشوب اللغة من أوضار العجمة واللهجات المحكية واللحن... ويمكن أن تناط مهمة الرقابة هذه بالمجامع العربية التي تضم صفوة المختصين بالعربية الذائدين عن حماها الحاملين لواءها في كل محفل. ولن يكون ذلك بدعًا من القرارات السياسية، فقد سبق أن اهتمت كثير من الهيئات العربية بمسألة الإعلان وأسماء المحالّ التجارية فمنعت أن يستعمل فيها اللفظ الأجنبي مهما كان، واستمر ذلك مدة من الزمن ثم تراخت القبضة، وخَبَت العزيمة، وفترت الهمة، فبدأت الأسماء الأعجمية تظهر ثانية!.

وما زالت مجامع اللغة العربية تدعو في كل ندواتها ومؤتمراتها إلى وجوب استعمال اللغة العربية في الإعلام والإعلان، بل إن مجمع اللغة العربية بدمشق خصَّ هذه القضية بندوة مفردة دعاها «ندوة اللغة العربية والإعلام» عقدت في رحاب المجمع (٢١ ـ ٢٣/ ١١)، عام ١٩٩٨، وخرجت بتوصيات جليلة تدعو إلى التزام العربية في وسائل الإعلام، ووجوب التعاون مع مجمع اللغة العربية لتتجنب هذه الوسائل كثيرًا من أغلاطها وأخطائها في اللغة، ولتنفي عنها غوائل ألمت بها وطال العهد عليها وآنَ لها أن تعود إلى رشدها.

ونحن نقول: ما أجملها من توصيات، وما أروعها من قرارات، لو أنها تخرج من حيِّز القول إلى الفعل، ومن حيز الورق إلى التطبيق والعمل!!

❑❑❑

الفصل الرابع
نماذج من فصيح القول

تمهيـد:

إن كلَّ ما قيل في الفصاحة لا يغني عن نصٍّ فصيح، بل أكاد أقول لا يساوي نصًّا فصيحًا، ومهما حاول المرء أن يصف الفصاحة ويجلو حقيقتها، ويبين أثرها، ويفصل شروطها وأحكامها، فإن كنه الفصاحة يبقى أعلى وأجلَّ من كلٍّ ذلك، وإن نصًّا من نصوصها أقدر على جلاء كلٍّ ذلك، وأصدق في التعبير عن كل ذلك.

أرأيت إلى الأكلة الشهية، يتفنَّن في وصفها الواصفون، ويُبدي مطايبَها العارفون، ويتندَّر في شرح عملها الطاهون المجيدون، ثم لا يغني كل ذلك عن تذوقها، بل هي لا تكشف عن حقيقة أمرها إلاَّ لمتذوقها، عندئذ ما يلبث أن يَتَلَمَّظَ ويَتَمَطَّق من لذَّتها وطيبها!! وكذا أمر الفصاحة فهي لا تفضي بأسرارها ولا تنيل حالها إلاَّ لمتذوقها القاطف من ثمارها والسابح في بحارها.

إن كل ما تقدم عرضه من شأن الفصاحة وشروطها وأنواعها وآثارها لا يعدو أن يكون إشاراتٍ تومىء إليها، وعبارات تحوم حولها، أما هي في حقيقتها وكنهها فشيء آخر لا يجلوه إلاَّ هي، ولا يكشف اللثام عنه إلاَّ قراءتها وتذوقها. لهذا تخيَّرت نصوصًا من فصيح القول تضم أحلى ما قرأت وسمعت في رحلتي الطويلة مع الفصاحة ونصوصها من كلام «يمتزج بأجزاء

النفس لطافةً. . وبالهواء رقةً. . وبالماء عذوبةً. . »[1]، عسى أن يفيد منه المطالع ويقف فيه على حقيقة الفصاحة والبيان.

نماذج من فصيح القول

* من القرآن الكريم:

بسم اللّٰه الرحمـٰن الرحيم

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ (٢) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ (٣) عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ (٤) ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ (٥) وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ (٦) وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ (٩) وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ (١١) وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ (١٥) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ (١٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) ﴾ [الرحمن: ١ ـ ١٨].

* من الحديث النبوي الشريف:

قال رسول الله ﷺ: «أحبُّ الناسِ إلى اللّٰهِ أنفعُهم، وأحبُّ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ سرورٌ تُدخله على مسلم، أو تكشِف عنه كُربةً، أو تقضي عنه دَينًا، أو تطرد عنه جوعًا. ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجته، أحبُّ إليَّ من أن أعتكفَ في المسجد شهرًا. ومن كفَّ غضبَهُ ستر الله عورته. ومن كظمَ غيظًا ـ ولو شاء أن يمضيَهُ أمضاه ـ ملأ الله قلبَهُ رضًا يوم القيامة. ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يُثبتَها له، أثبت الله تعالى قدمه يوم تزِلُّ الأقدامُ. وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخلُّ العسل»[2].

---

(١) زهر الآداب ١/ ٣٥.

(٢) صحيح الجامع الصغير للألباني، المجلد الأول. حديث حسن رقم ١٧٤.

وقال ﷺ يخاطب الأنصار بعدما بلغه من وجدهم لعدم إصابتهم من فيء حنين:

«يا معشر الأنصار ما قالةٌ بلغتني عنكم، وجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلاَّلاً فهداكم الله بي، وعالةً فأغناكم الله بي، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: الله ورسوله أمنُّ وأفضل! ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟! قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المن والفضل! قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلَصَدَقْتُم ولَصُدِّقتم: أتيتَنا مكذَّبًا فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فواسيناك، أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعةٍ من الدنيا تألفتُ بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضَوْن يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم. فوالذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعبًا وواديًا وسلكت الأنصار شِعبًا وواديًا لسلكت شعب الأنصار وواديها. الأنصار شعار والناس دثار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

قال: فبكى القوم حتى أخضَلوا لحاهم، وقالوا رضينا برسول الله ﷺ قَسْمًا وحَظًّا[(١)].

* من فصحاء العرب:

قُسُّ بن ساعدة خطيب العرب قاطبة، والمضروب بن المثل في البلاغة والحكمة، كان يدين بالتوحيد ويؤمن بالبعث. ويقال إنه أول من خطب على شرف، وأول من قال في خطبه: «أما بعد»، وهو القائل: «البيِّنةُ على مَن

---

(١) مختارات من أدب العرب، لأبي الحسن الندوي ١/ ٣٢ ـ ٣٣.

ادَّعى واليمين على مَن أنكر». ومن خطبه التي خطبها في سوق عكاظ:

«أيها الناس.. اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت. ليلٌ داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزخر، وجبال مُرساة، وأرض مُدحاة، وأنهار مجراة. إن في السماء لخبرًا، وإن في الأرض لعبرًا، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون، أرَضُوا بالمقام فأقاموا؟ أم تركوا هناك فناموا؟ يقسم قُسٌّ بالله قسمًا لا إثم فيه إن لله دينًا هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكرًا.

في الذاهبينَ الأولينَ من القرونِ لنا بصائرْ
لمّا رأيتُ مواردًا للناسِ ليسَ لها مصادرْ
ورأيت قومي نحوها تمضي الأكابر والأصاغرْ
لا يرجع الماضي إلينا ولا مِنَ الباقين غابرْ
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائرْ[1]

* كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى ابنه عبد الله:

«أما بعد، فإنه من اتقى الله وقاه، ومن توكَّل عليه كفاه، ومن شكر له زاده، ومن أقرضه جزاه. فاجعل التقوى عمادَ قلبك، وجلاء بصرك، فإنه لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا خشية له، ولا جديد لمن لا خَلَقَ له».

ـ ومن كلمات الفاروق:

«ما الخمر صِرفًا بأذهبَ لعقول الرجال من الطمع».

«لا يكن حبُّكَ كَلَفًا، ولا بغضُك تَلَفًا»[2].

---

(1) جواهر الأدب، للهاشمي ٢/ ١٩.

(2) زهر الآداب ١/ ٧٢ ـ ٧٣.

* وقال الإمام علي بن أبي طالب يوصي ابنه الحسن رضي الله عنهما:

«رويدًا يُسفِرِ الظلام، كأن قد وردَتِ الأظعان، يوشك من أسرع أن يلحق، واعلم يا بنيّ، أنّ من كانت مطيّته الليل والنهار، فإنه يُسار به وإن كان واقفًا، ويقطع المسافة وإن كان مقيمًا وادعًا»[1].

ومن خطبة له رضي الله عنه وكرم وجهه:

«إنما بدءُ وقوع الفتن أهواء تُتبع، وأحكام تُبتدَع، يخالف فيها كتابُ اللّـهِ، ويتولى عليها رجالٌ رجالاً على غير دين الله، فلو أن الباطل خلَص من مِزاج الحقِّ لم يخفَ على المرتادين، ولو أن الحق خلص من لَبْس الباطل انقطعت عنه ألسنُ المعاندين، ولكن يُؤخذ من هذا ضِغْثٌ ومن هذا ضِغث فيُمزجان! فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى»[2].

ـ ومن كلماته: «قيمة كل امرىء ما يحسن». «لسان العاقل وراء عقله، وقلب الأحمق وراء لسانه»[3].

* ومن كلام الحسين بن علي عليه السلام:

«الناسُ عبيدُ الدنيا، والدين لَعَقٌ على ألسنتهم، يحوطونه ما درَّت معايشهم، فإذا مُحِّصوا بالبلاء قلَّ الدّيّانون»[4].

* وللنابغة في الثناء المسجوع:

«أيفاخرك الملك اللخميّ، فوالله لقفاك خير من وجهه، ولشِمالُك خير

(١) الكفاف للأستاذ يوسف الصيداوي ١/ ٥٥.
(٢) نهج البلاغة، ص ٤٥.
(٣) نهج البلاغة، ص ٤١٢.
(٤) خطب الإمام الحسين على طريق الشهادة للأستاذ لبيب بيضون، ص ١٦٧.

من يمينه، ولأخمصك خير من رأسه، ولخطؤك خير من صوابه، ولعِيُّك خير من كلامه، ولخدمك خير من قومه»[1].

* وله أيضًا في الشعر المطبوع:

المـــــرءُ يهــــوى أن يعيـ	ـش وطـولُ عيـشٍ مـا يضـرُّهْ
تفنـــى بشـــاشتـــه ويبـ	ـقـى بعـد حُلْـو العيـشِ مـرُّهْ
وتصـــرّفُ الأيـــام حتـ	ـى مـا يـرى شيئًـا يسـرُّهْ
كـم شـامـتٍ بـي إن هلكـ	ـتُ وقـائـلٍ: للّـه درُّهْ[2]

* وقال متمّم بن نويرة في أخيه مالك:

وكنـا كنَـدْمـانَـي جَـذيمـة حِقبـةً	من الدهر حتى قيل لن نتصدّعا
فلمـا تفـرّقنـا كـأنـي ومـالكًـا	لطول اجتماع لم نَبِتْ ليلةً معا[3]

* وقال الوليد بن حنيفة يرثي عبد الله بن ناشرة:

ألا لا فتىً بعد ابن ناشرةَ الفتى	ولا عُـرفَ إلاَّ قـد تـولـى وأدبـرا
فتـىً حنظلـيٌّ مـا تـزال ركـابُـهُ	تجـود بمعـروفٍ وتنكـر منكـرا[4]

* جاء في عيون الأخبار:

ويقال: «القلم أحد اللسانين»، فقد كتب: كتب بعض الكتّاب إلى صديق له: «وصل إليَّ كتابك فما رأيت كتابًا أسهل فنونًا، ولا أسلس متونًا،

---

(١) دلائل الإعجاز، ص ٩٧.
(٢) الأضداد، لابن الأنباري، ص ١٩٦.
(٣) الأغـانـي ١٥/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨. طبعـة دار الكتـب العلميـة بيـروت، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
(٤) دلائل الإعجاز، ص ١٤٩.

ولا أكثر عيونًا، ولا أحسن مقاطع ومطالع، ولا أشد على كل مفصل حزًّا منه، أنجزت فيه عدة الرأي، وبشرني الفراسة، وعاد الظن بك يقينًا، والأمل فيك مبلوغًا»(١).

* ومن أحسن ما قيل في القلم أبيات أبي تمام في مدح محمد بن عبد الملك الزيات:

لكَ القلمُ الأعلى الذي بشَباتِهِ	يُنال من الأمر الكُلى والمفاصلُ
له الخَلواتُ اللاءِ لولا نجيُّها	لما احتفلت للملك تلك المحافلُ
لعاب الأفاعي القاتلاتِ لعابُهُ	وأريُ الجنى اشتارته أيدٍ عواسلُ
له ريقةٌ طلٌّ ولكنَّ وقعها	بآثاره في الشرق والغرب وابلُ
فصيحٌ إذا استنطقته وهو راكبٌ	وأعجم إن ناطقته وهو راجلُ
إذا ما امتطى الخمسَ اللطافَ وأفرغت	عليه شعابُ الفكر وهي حوافلُ
أطاعتْهُ أطرافُ الرماحِ وقوَّضتْ	لنجواه تقويضَ الخيام الجحافلُ
إذا استغزر الذهنَ الخليَّ وأقبلت	أعاليهِ في القرطاس وهي أسافلُ
وقد رفدته الخِنصِران وسَدّدت	ثلاثَ نواحيهِ الثلاثُ الأناملُ
رأيتَ جليلاً شأنُه وهو مرهفٌ	ضنًى وسمينًا خطبُهُ وهو ناحلُ(٢)

* من فصاحة الأعراب:

ـ وصفت أعرابية زوجها بمكارم الأخلاق عند أمها فقالت: يا أمَّهْ، من نشر ثوب الثناء فقد أدى واجب الجزاء، وفي كتمان الشكر جحود لما وجب من الحق ودخول في كفر النعم. فقالت لها أمها: أي بُنَيَّة أطبت الثناء وقمت بالجزاء ولم تدعي للذمِّ موضعًا، إني وجدت من عقَلَ لم يعجَل بذمٍّ

---

(١) عيون الأخبار ١/ ٤٧.

(٢) خزانة الأدب، للبغدادي ١/ ٤٤٦.

ولا ثناء إلاَّ بعد اختبار. فقالت: يا أَمَّهْ ما مدحت حتى اختبرت، ولا وصفت حتى عرفت[1].

ــ وسأل أعرابي عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى فقال: رجل من أهل البادية ساقته الحاجة، وانتهت به الفاقة، واللّهُ سائلك عن مقامي هذا. فقال: والله ما سمعت كلمة أبلغ من قائل، ولا أوعظ لمقول منها[2].

ــ شهد أعرابيٌّ عند معاوية بشيء كرهه، فقال معاوية: كذبت، فقال: الكاذب والله متزمّلٌ في ثيابك. فقال معاوية وتبسّم: هذا جزاء من عجل[3].

ــ وأوصت أعرابية ولدًا لها يريد سفرًا فقالت:

«أي بنيّ! اجلس أمنحك وصيتي وبالله توفيقك، فإن الوصية أجدى عليك من كثير عقلك. أي بني إياك والنميمة، فإنها تزرع الضغينة وتفرّق بين المحبين، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضًا، وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام، وقلما اعتورت السهام غرضًا إلاَّ كَلَمته حتى يهي ما اشتد من قوته. وإياك والجود بدينك، والبخل بمالك، وإذا هززت فاهزز كريمًا يلين لهزّتك، ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها. ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك، فاعمل به، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه، فإن المرء لا يرى عيب نفسه. ومن كانت مودته بشره وخالف ذلك منه فعله، كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها، والغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم، ومن جمع الحلم والسخاء فقد أجاد الحلة ريطتها وسربالها[4].

---

(١) الأمالي، لأبي علي القالي ١/ ٢١٨.
(٢) الأمالي، لأبي علي القالي ٢/ ١٧٤.
(٣) ربيع الأبرار، للزمخشري.
(٤) جواهر الأدب، للهاشمي ١/ ١٨٤.

* من شجيِّ الشعر ونديِّه بيتان لعبد الله بن عبد الأعلى الشيباني:

يـا ليـت ذا خبـرٍ عنهـم يخبـرنـا ... بل ليت شعريَ ماذا بعدنا فعلوا
كانوا وكنا فما ندري على وَهَمٍ ... أنحن فيما لبثنا أم همو عَجِلوا[1]

ـ وللعَرجي بيتان تترقرق فيهما عبرات الأسى كلّه، وحسرات العمر كله:

يـا ليـت شعـري هـل يعـودَنَّ لـي ... ذا الـوُدُّ مـن ليلـى كمـا قـد مضـى
إذ قلبُهـــا لـــي فـــارغٌ كلُّـــهُ ... أم كـانَ شيئًـا كـانَ ثـمَّ انقضـى[2]

ـ ولأبـي حيَّة النمري:

أقول لأصحابـي وهم يعذلونني ... ودمـع جفـونـي دائـم العبـرات
بـذكـر مُنـى نفسـي فبلّـوا إذا دنـا ... خروجي من الدنيا جُفوفَ لهاتي[3]

* ومن فصحاء الناس عبد الملك بن صالح صاحب الرشيد:

قيل للرشيد: إن عبد الملك يُعِدُّ كلامه ويفكر فيه، فلذلك بانت بلاغته، فأنكر الرشيد ذلك وقال: بل هو طبع فيه. ثم أمسك حتى جلس يومًا ودخل عليه عبد الملك، فقال للفضل بن الربيع: إذا قرب من سريري فقل له: ولد لأمير المؤمنين هذه الليلة ابنٌ ومات ابن. ففعل الفضل ذلك، قال: فدنا عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين، سرَّك الله فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرَّك، وجعلها واحدةً بواحدة ثوابَ الشاكر، وأجر الصابر.

فلما خرج قال الرشيد: هذا الذي زعموا إنه يتصنَّع للكلام؟ ما رأى

---

(١) مقدمة تحقيق كتاب الشعر، للدكتور محمود الطناحي، ص ٧٦.
(٢) المتنبي لمحمود محمد شاكر، ص ٢٥.
(٣) زهر الآداب ١/ ٤٩.

الناس أطبع من عبد الملك في الفصاحة[1].

* **جاء في الأغاني**: أخبرني يحيى بن علي بن يحيى، قال: حدثنا حماد بن إسحاق، قال: حدثني أبي قال: كان العباس بن الأحنف إذا سمع شيئًا يستحسنه أطرفني به، وأفعل مثل ذلك، فجاءني يومًا فوقف بين الناس وأنشد لابن الدمينة:

ألا يا صبا نجدٍ متى هجت من نجدِ ... لقد زادني مسراك وجدًا على وجْدِ
أَأَن هتفَتْ ورقاءُ في رونق الضحى ... على فننٍ غضِّ النبات من الرَّندِ
بكَيتَ كما يبكي الحزين صبابةً ... وذُبتَ من الشوق المبرِّح والصدِّ
بكَيت كما يبكي الوليد ولم تكن ... جليدًا وأبديتَ الذي لم تكن تبدي
وقد زعموا أن المحبَّ إذا دنا ... يُمَلُّ وأن النأي يُسلي من الوجدِ
بكلٍّ تداوينا فلم يَشْفِ ما بنا ... على أن قربَ الدار خير من البعدِ
على أن قربَ الدار ليس بنافعٍ ... إذا كان من تهواه ليس بذي ودٍّ

ثم ترنَّح ساعة وترجَّحَ أخرى، ثم قال: أنطح العمود برأسي من حسن هذا؟ فقلت: لا، ارفُق بنفسك»[2].

* **من فرائد الأبيات**:

ـ **لطرفة في معلقته**:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطِّوَلِ المُرخى وثنياه باليدِ[3]

---

(1) المصون في الأدب، للعسكري، ص ٢١٦.

(2) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني ١٠٩/١٧. وشرح أبيات المغني، للبغدادي ٢٦٣/٣ ـ ٢٦٤. وانظر في هذه القصيدة ديوان ابن الدمينة بتحقيق شيخنا العلامة أحمد راتب النفاخ رحمه الله، ص ٨٠ ـ ٨٦.

(3) ديوان طرفة بن العبد، ص ٣٤.

ـ ولامرىء القيس في قصيدته البائية في أمّ جندب:

فإنك لم يفخر عليك كعاجزٍ ضعيفٍ ولم يغلبك مثلُ مُغلَّبِ[١]

ـ ولحسان بن ثابت رضي الله عنه:

لا عيبَ بالقوم من طول ومن عظمٍ جسم البغال وأحلام العصافير[٢]

ـ وللحطيئة في الهجاء:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي[٣]

ـ ولكعب بن زهير في الاعتذار:

أنبئتُ أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول[٤]

ـ وللفرزدق في مدح زين العابدين:

يكاد يمسكه عرفانَ راحته ركنُ الحطيم إذا ما جاء يستلم[٥]

ـ ولجرير في الهجاء:

فغضَّ الطرفِ إنك من نميرٍ فلا كعبًا بلغتَ ولا كلابا[٦]

ـ وللصمّة القشيري في الوداع:

تمتّعْ من شميم عَرارِ نجدٍ فما بعد العشيةِ من عَرارِ[٧]

---

(١) ديوان امرىء القيس.

(٢) ديوان حسان ١/ ٢١٩.

(٣) ديوان الحطيئة، ص ٥٠.

(٤) ديوان كعب بن زهير، ص ٦٥.

(٥) ديوان الفرزدق، ص ٥١٢.

(٦) ديوان جرير، ص ٦١.

(٧) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، للشيخ عبد الرحيم العباسي ٣/ ٢٥٠.

ـ ولأبـي المهوِّش في فلسفة الحياة:

يعيش الفتى بالفقر يومًا وبالغنى وكلٌّ كأن لم يلق حين يُزايلُهْ[1]

ـ ومن أمدح الأبيات:

فتًى صيغ من ماء البشاشة وجهه فـألفـاظه جـودٌ وأنفـاسه مجـدُ[2]

ـ وفي الولاء والمحبة:

فـإن نطقـتُ فكلّـي فيـك ألسنـةٌ وإن سمعت فكلّي فيك أسماع[3]

ـ وللمتنبـي في هذا أيضًا:

وقيـدتُ نفسـي فـي ذَراك محبـةً من وَجَدَ الإحسانَ قيدًا تقيَّدا[4]

ـ ومما قيل في وضع العلم في حاقٍّ موضعه:

فمـن منـح الجهـال علمًـا أضـاعـه ومن منع المستوجبين فقد ظلم[5]

ـ ولعمر بن الأهتم:

لعمـرك مـا ضـاقـت بـلاد بـأهلهـا ولكـن أخـلاق الـرجـال تضيـق[6]

ـ ولأبـي فراس:

ومـن مذهبـي حـبُّ الديار لأهلهـا وللناس فيما يعشقون مذاهب[7]

---

(١) الأعلام ٢/ ٢٨٩.

(٢) مثالب الوزيرين، ص ٣٣٠.

(٣) الإغراب، لابن الأنباري، ص ١١.

(٤) دلائل الإعجاز، ص ١٠٥.

(٥) مقدمة الكشكول، للعاملي.

(٦) زهر الآداب ١/ ٣٩.

(٧) ديوان أبـي فراس الحمداني، ص ٤٠.

ـ ولزياد بن زيد:

إذا ما انتهى علمي تناهيت عنده   أطال فأعلى أم تناهى فقصّرا[1]

ـ وللأبيرد اليربوعي في الكفاف:

ألا ليت حظّي من غُدانةَ أنَّهُ   يكون كفافًا لا عليَّ ولا ليا[2]

ـ ولأبي نواس في المعرفة:

فقلْ لمن يدَّعي في العلم معرفةً   حفظتَ شيئًا وغابت عنك أشياءُ[3]

ـ ولبشار في الحب:

هل تعلمين وراء الحب منزلةً   تدني إليك فإن الحبَّ أقصاني[4]

ـ وفي الثناء:

فإن نحن أثنينا عليك بصالحٍ   فأنت كما نثني وفوق الذي نثني[5]

ـ وفي مدح الكرم ووصفه:

كرمٌ تبيَّنَ من جبينك ماثلاً   ويبين عِتقُ الخيل من أصواتها

ـ ولابن لَنْكَك (٣٦٠هـ):

نعيب زماننا والعيبُ فينا   ولو نطق الزمان إذًا هجانا[6]

ـ وللمرقّش الأصغر:

ومن يلق خيرًا يحمد الناس أمره   ومن يغوِ لا يعدم على الغيِّ لائما[7]

---

(١) مقدمة إعراب القراءات ١/ ٣٣.

(٢) الكفاف ١/ ٧.

(٣) ديوان أبي نواس، ص ٢٢.

(٤) وفيات الأعيان ١/ ٢٧٢.

(٥) فهارس كتاب سيبويه، لعضيمة، ص ٢٧.

(٦) الأعلام ٧/ ٢٠.

(٧) المغني في تصريف الأفعال، لعضيمة، ص ٧.

ـ ومما قيل في فلسفة الحياة:

وهُلكُ الفتى ألا يَراح إلى النّدى   وألا يـرى شيئًـا عجيبًـا فيعجبـا[1]

ـ وفي حسن الاعتقاد:

وأعلـم علمًـا ليـس بـالظـنّ أنّـهُ   إذا الله سنّـى حَـلَّ عقـدٍ تيسّـرا[2]

ـ وللمتنبـي في صداقة العدو:

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى   عـدوًّا لـه مـا مـن صـداقتـه بـدُّ[3]

ـ وفي الأماني الجميلة (لرجل من بني الحارث):

مُنًى إن تكن حقًّا تكن أحسن المنى   وإلاّ فقد عشنا بها زمنًا رغدا[4]

ـ ولبشار في وصف الحديث:

وحـوراء المـدامـع مـن معـدٍّ   كـأن حـديثهـا ثمـر الجنـانِ[5]

ـ ولعمر بن أبـي ربيعة في شوق العاشق:

وذو الشـوق القـديـم وإن تعـزّى   مشـوقٌ حيـن يلقـى العـاشقينـا[6]

ـ وفي حقيقة الدنيا:

وإن امـرأً دنيـاه أكبـر همـه   لمستمسـكٌ منهـا بحبـل غـرور[7]

---

(١) مقدمة تحقيق كتاب الشعر، للطناحي ١/ ٥٦.

(٢) أمالي الزجاجي، ص ٧.

(٣) ديوان المتنبي ١/ ٣٧٥.

(٤) ذيل الأمالي، ص ١٠٢.

(٥) الخصائص، لابن جني ١/ ٣١.

(٦) زهر الآداب ١/ ٢٩٨.

(٧) أثر القراءات في الأصوات، ص ٤٦.

ـ وفي وصف الغيظ:

احـذر مغـايـظ أقـوامٍ ذوي أَنَـفٍ إن المغيظَ جهولُ السيف مجنون[1]

ـ وفي العاقبة:

إذا وتـرتَ امـرأً فـاحـذر عـداوتَـهُ من يزرع الشوكَ لا يحصد به عنبا[2]

ـ ولأبـي تمام:

مـن كـان مرعى عزمـه وهمومـه روضَ الأماني لم يزل مهزولا[3]

ـ وفي تصوير علم العالم:

إذا قلـت شـارفنـا أواخـر علمـه تـدفَّـق حتـى قلـت هـذي أوائلـه

ـ وفي جهد المعلم:

يبني الرجال وغيره يبني القرى شتـان بيـن قـرىً وبيـن رجـال[4]

ـ ولأبـي نواس في الحسن:

يـــزيـــدكَ وجهُـــهُ حسنًـــا إذا مـــا زدتَـــهُ نظـــرا[5]

ـ ولأبـي العتاهية:

لا يُصلح النفس إنْ كانت مُدابرة إلاَّ التنقّـل مـن حـال إلـى حـال[6]

ـ وفي لوعة الحب:

وبـــي مثـل الـذي بـك غيـر أنـي ألام علـى البكـاء وتُعـذرينـا[7]

---

(١) الصداقة والصديق، لأبـي حيان، ص ٤٦٨.

(٢) مجالس العلماء، ص ٢٣.

(٣) مقدمة الشعر، للطناحي ١/ ٧٤.

(٤) المعجم الوسيط.

(٥) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، للشيخ عبد الرحيم العباسي ١/ ٧٨.

(٦) زهر الآداب ١/ ٣٥.

(٧) مثالب الوزيرين، ص ١٧٠.

ـ وللمؤمَّل بن أُميل المحاربي:

إذا مرضنا أتيناكم نزوركُمُ ... وتذنبون فنأتيكم فنعتذرُ[1]

ـ ولأبي تمام:

ويسيء بالإحسان ظنًّا لا كمن ... هو بابنه وبشعره مفتونُ[2]

ـ ولموفق الدين الإربلّي:

لا يراني الله أرعى روضةً ... سهلة الأكناف من شاء رعاها

ـ ولابن زُريق:

لا تعذليهِ فإنّ العذلَ يولعُهُ ... قد قلتِ حقًّا ولكنْ ليس يسمعُهُ

ـ وللشريف الرضي:

وتلفتتْ عيني فمذ خفيت ... عني الطلولُ تلفّت القلبُ[3]

ـ وللبحتري:

لو أنّ مشتاقًا تكلَّف فوق ما ... في وسعه لمشى إليك المنبرُ[4]

*** قيام كل بيت بنفسه: للأفوه الأودي:**

بلوتُ الناس قرنًا بعد قرنٍ ... فلم أرَ غيرَ ختّالٍ وقالِ

ولم أرَ في الخطوب أشدَّ وقعًا ... وأصعب من معاداة الرجالِ

وذُقتُ مرارةَ الأشياء طرًّا ... فما طعمٌ أمرّ من السؤالِ[5]

---

(١) خزانة الأدب، للبغدادي ٨/ ٢٣٢.

(٢) زهر الآداب ١/ ٣٨.

(٣) نهج البلاغة. المقدمة، ص (س).

(٤) زهر الآداب ١/ ١١٧.

(٥) كشاف العبارات النقدية والأدبية في التراث العربي، للدكتور محمود ربداوي، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

* قدر مكتوب:

مشيناها خطًا كُتِبَتْ علينا ... ومن كُتبت عليه خطًا مشاها

ومن كانت منيتُه بأرضٍ ... فليس يموت في أرضٍ سواها

* مأساة أم ثواب بولدِها:

ربَّيتُهُ وهو مثل الفرخ أعظَمُهُ ... أمُّ الطعام ترى في جلده زَغَبا

حتى إذا آضَ كالفُحّال شذَّبَهُ ... أبّارُهُ ونفى عن مَتْنِه الكُرَبا

أنشا يمزّقُ أثوابي يؤدّبُني ... أبعدَ شيبيَ تبغي عنديَ الأدَبَا[1]

ـ من أبدع ما قيل في التعزية: للمتنبي:

طوى الجزيرةَ حتى جاءني خبرٌ ... فزعت فيه بآمالي إلى الكذبِ

حتى إذا لم يَدَعْ لي صدقُهُ أملاً ... شرِقت بالدمعِ حتى كادَ يشرَقُ بي[2]

* كلمات بليغات:

ـ قال الوزير ابن الفرات للسيرافي بعد مناظرته مع متى بن يونس:

«عين الله عليك أيها الشيخ، فقد ندَّيت أكبادًا، وأقررت عيونًا، وبيَّضت وجوهًا، وحكت طرازًا لا تبليه الأزمان ولا يتطرقه الحدثان»[3].

ـ وكان ابن مسعود يقول:

«حدِّث الناس ما حدجوك بأبصارهم، فإن رأيت منهم فتورًا فأمسك»[4].

---

(١) من محاضرة للأستاذ يوسف الصيداوي.

(٢) المتنبي لمحمود محمد شاكر ٦٧٢.

(٣) معجم الأدباء ٨/ ٢٢٨.

(٤) فقه اللغة، للثعالبي، ص ١٠٤.

ـ وقيل في وصف كلام بليغ:

«لو أن كلامًا أُذيب به صخر، أو أطفىء به جمر، أو عوفي به مريض، أو جُبر به مهيض، لكان كلامه الذي يقود سامعه إلى السجود، ويجري في القلب كجري الماء في العود»[1].

ـ وكان الحسن البصري يقول:

«إن من يُخوّفك حتى تلقى الأمنَ أشفقُ عليك ممن يؤمِّنك حتى تلقى الخوف»[2].

* قيل لخالد بن صفوان: مات صديق لك! فقال:

«رحمة الله عليه، لقد كان يملأ العينَ جمالاً والأذن بيانًا، ولقد كان يُرجى ولا يُخشى، ويُغشى ولا يَغشى، ويعطي ولا يُعطى، قليلاً لدى الشرِّ حضوره، سليمًا للصديق ضميره».

ـ قال ابن الطراوة الأندلسي في وصف تآليف أبي علي الفارسي:

«ترجمة تروق بلا معنى، واسم يهول بلا جسم»[3].

* من أرق الشعر وأعذبه وأطربه:

أبيات لمهيار الديلمي:

أتراها يومَ صَدَّتْ أن أراها ... علمت أنيَ من قتلى هواها

سَنَحَتْ بين المصلّى ومِنى ... مَسْنَحَ الظبية تستقري طَلاها

قال واشيها وقد راودتُها ... رَشْفةً تُبرِدُ قلبي من لَماها

لا تسُمْها فمَها إن الذي ... حرّم الخمرَةَ قد حرَّمَ فاها

---

(1) زهر الآداب ١/ ١٦٢.

(2) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، للأستاذ محمود محمد شاكر.

(3) مدخل إلى تاريخ النشر، للطناحي، ص ٩.

أُعطِيَتْ من كل حسنٍ ما اشتهَتْ فرآها كلُّ طرفٍ فاشتهاها[1]

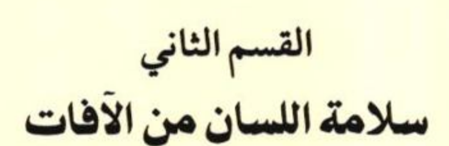
* **من أمثال العرب:**

- كل الصيد في جوف الفَرا.
- لا تعدَم الحسناءُ ذاما (أي عيبًا).
- لا تُحمد أمَةٌ عام اشترائها، ولا حرة عام بنائها.
- سكت ألفًا ونطق خَلْفًا.
- لو ذات سوارٍ لطمتني.
- أحَشَفًا وسوءَ كِيلة؟
- الحرب خُدعة.
- الحديث ذو شجون.
- إن كنت ريحًا فقد لاقيتَ إعصارًا.
- لو كرهتني يدي ما صحبتني[2].

❑ ❑ ❑

(١) عبقرية اللغة العربية، للدكتور عمر فروخ، ص ٢٣٧.

(٢) مجمع الأمثال، للميداني.



القسم الثاني

سلامة اللسان من الآفات

الفصل الأول: مدخل إلى سلامة اللسان.

الفصل الثاني: آفات اللسان.

أولاً: الفحش والسبُّ.

ثانيًا: الكذب.

ثالثًا: الغِيبَة.

رابعًا: النميمة.

خامسًا: اللغو وكثرة الكلام.

سادسًا: التقعُّر في الكلام ورفع الصوت.

سابعًا: المِراء والجَدَل والخصومة.

ثامنًا: التملُّق والنفاق.

تاسعًا: السخرية والاستهزاء وكثرة المُزاح.

الفصل الثالث: سبل حفظ اللسان.

الفصل الأول

مدخل إلى سلامة اللسان

حين قرن الله سبحانه نعمة البيان إلى خلق الإنسان في قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]، كان ذلك إيذانًا بأهمية هذه النعمة ووظيفتها الكبرى في حياة الإنسان، وكان ذلك أيضًا إشعارًا بتميّز الإنسان بنعمة النطق والبيان من سائر المخلوقات.

وقديمًا ميَّز الفلاسفة الإنسان من سائر الخلائق الأخرى بالنطق، فقالوا في وصفه: الإنسان حيوان ناطق.

والحقُّ أن النطق نعمة عظمى يعبِّر بها الإنسان عن رغباته، ويصل بها إلى غاياته، ويحقق بها طلباته، ويسخِّرها في تنظيم علاقاته، فبها تتألف اللغات، وبوساطتها تتكون المجتمعات، ويتعارف الناس ويتفاهمون، ويتواصلون ويتعاونون.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣ ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولكن هذه النعمة قد تتحول إلى نِقْمة، تودي بحياة الإنسان أو تلحق به ضررًا في دنياه، أو تحول بينه وبين نعيم الجنة في أخراه. ولذلك حذَّر رسول الله ﷺ من مغبَّة النطق بغير الخير بقوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقلْ خيرًا أو ليصمت»[1].

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة، انظر: صحيح البخاري، تحقيق د. مصطفى=

وكم من امرىء كان مَهلكه بين فكيه (مَقْتَلُ الرجلِ بين فكَّيه)[1]، وكم من لسان أردى صاحبه المهالك:

احفظْ لسانَكَ أيها الإنسانُ ... لا يلدغنَّكَ إنَّهُ ثعبانُ
كم في المقابرِ من قتيل لسانِهِ ... كانت تَهابُ لقاءَهُ الشجعانُ[2]

وكم من نطقٍ كان السكوت خيرًا منه لأن النطق يفضي إلى البلاء، وفي ذلك يقول الصدِّيق رضي الله تعالى عنه: «إنَّ البلاءَ مُوَكَّل بالمنطقِ»[3]، ورحم الله أبا العتاهية إذ يقول:

والصَّمْتُ أَلْيَقُ بالفتى ... من مَنْطقٍ في غيرِ حِينِهْ
لا خيرَ في حَشْوِ الكلا ... مِ إذا اهتديتَ إلى عيونِهْ[4]

ولله درّ أبي الفتح البُسْتي حيث يقول:

تكلمْ وسدِّدْ ما استطعْتَ فإنَّما ... كلامُكَ حيٌّ والسكوتُ جَمادُ
فإن لم تجدْ قولاً سَديدًا تقولُهُ ... فصمتُكَ من غير السَّدادِ سَدادُ[5]

= البغا، دمشق ـ دار العلوم الإنسانية، ط ٢، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م، ٦ أجزاء، ٤/ ٢١٠٩، رقم الحديث ٥٦٧٢.

(١) من كلام الحكماء. انظر: منهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين، طبعة حجرية ١٣٢٨هـ، ص ٤٥٦، وهو من أمثال العرب أيضًا، انظر: مجمع الأمثال ٢/ ٢٦٥.

(٢) ديوان الإمام الشافعي، جمعه وشرحه نعيم زرزور، بيروت ـ دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، ص ١٠٠.

(٣) وهو من أمثال العرب، انظر: مجمع الأمثال، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دمشق، بيروت ـ دار النصر، ط ٣، مجلدان ١/ ١٧،

(٤) أبو العتاهية، أشعاره وأخباره، تحقيق د. شكري فيصل، دمشق، مطبعة جامعة دمشق، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥، ص ٤٠٣.

(٥) ديوان البستي، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ١٤١٠ ـ ١٩٨٩م، ص ٧٢.

من هنا كان اللسان سلاحًا ذا حدَّين، فإذا أحسن المرء استعماله، وصانه مما قد ينزلق إليه من الآفات المذمومة والأخلاق المرذولة، سَلِم وقاده لسانه إلى الفلاح والنجاح، وإذا أساء استعماله وأرخى له العِنان فلم يحفظه من الآفات ولم يتعهده بالرعاية والعناية، والسلامة والأمان، وقع في شر عمله وقاده لسانه إلى الشقاء والبلاء. فالأول هو العاقل والآخر هو الأحمق، وما أروع ما مرَّ معنا من قول أمير المؤمنين عليٍّ ابن أبـي طالب رضي الله عنه وكرَّم وجهه: «لسان العاقل وراء عقله، وقلب الأحمق وراء لسانه»[1].

وقد بيَّن ذلك رضي الله عنه تعالى في موضع آخر فقال: «واجعلوا اللسان واحدًا، وليختزنِ الرجل لسانه فإن هذا اللسان جَموحٌ بصاحبه، والله ما أرى عبدًا يتقي تقوى تنفعه حتى يختزن لسانه، وإن لسان المؤمن وراء قلبه، وإن قلب المنافق وراء لسانه؛ لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبَّرَهُ في نفسه، فإن كان خيرًا أبداه، وإن كان شرًّا واراه، وإن المنافق يتكلَّم بما أتى على لسانه لا يدري ماذا له وماذا عليه»[2].

وجماع ذلك كله قول الرسول ﷺ: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيمَ لسانُهُ، ولا يدخل الجنَّة رجلٌ لا يأمن جارُه بوائقَهُ»[3].

من أجل ذلك كله كان حفظ اللسان وسلامته من الآفات التي قد تعتريه

---

(١) نهج البلاغة لأمير المؤمنين الإمام علي بن أبـي طالب، ص ٤١٢.

(٢) نهج البلاغة، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.

(٣) رواه أحمد من حديث أنس بن مالك، انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط وزملائه، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م، ٢/ ٣٤٣.

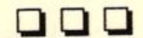
مقصدًا من المقاصد التي سعى إليها العربـي منذ القِدَم، وحثَّت عليها مكارم الأخلاق والشيم العربية الأصيلة، وجاء الإسلام ليجعل من حفظ اللسان وسلامته قيمة من أبرز القيم التي ينبغي أن يتحلى بها المسلم، فثبَّتَ أركانها، ودعا إلى التمسُّك بها ونبذِ ما قد يشوبُها من شوائب وما يعتري اللسان من آفاتٍ حذَّر منها متوعِّدًا أصحابها منكرًا عليهم أشد النكير، ومبشِّرًا من يتقي شرور اللسان بأحسن الجزاء مسبغًا عليه أعظم الصفات وأجمل الألقاب.

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٣].

بل إن السُّنَّة المطهَّرة جعلت سلامة اللسان حدًّا أو تعريفًا يعرَّف به المسلم، وذلك قوله ﷺ: «المسلمُ من سَلِم المسلمون من لسانه ويده»[١].

وتتابعت النصوص، الشرعية والأدبية، الشعرية والنثرية، تحضُّ على هذه المكرمة، وتجعل منها قيمةً مثلى، من تحلَّى بها فاز وسَلِمَ، ومن تخلَّى عنها خسِر ونَدِم.

ولما كان اللسان عُرضةً للإصابة بكثير من الآفات الخُلقية كالكذب والغيبة والنميمة والبذاءة، فقد بيَّن الشرع الحنيف حكمه فيها وطرق الوقاية منها على ما سنبيِّنه في هذا المبحث إن شاء الله تعالى.



(١) رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، صحيح البخاري، ١/ ١٣، رقم ١٠.

الفصل الثاني
آفات اللسان

للسان آفات كثيرة قد ينزلق إليها ويبتلى بها إن لم يكن وراءه عقلٌ يَحكمُهُ ويحسن قياده ويتولى توجيهه ويحميه منها. قال الهيثم بن الأسود النَّخَعي:

وأعلــمُ علمًــا ليــسَ بــالظــنِّ أنَّــهُ إذا زالَ مــالُ المــرءِ فهــوَ ذليــلُ
وأنَّ لســانَ المــرءِ مـا لـم تكـنْ لَـهُ حَصـاةٌ علـى عـوراتِـهِ لـدليـلُ[1]

وقال أبو تمام:

وممــا كـانــتِ الحكمــاءُ قــالَــتْ لســانُ المــرءِ مـن خَـدَمِ الفـؤادِ[2]

وقال بعض الشعراء:

وَزِنِ الكــلامَ إذا نطقْــتَ فــإنَّمــا يُبدي عيوبَ ذوي العيوبِ المنطقُ[3]

وقد حذر الباري جلَّ وعلا من مغبَّة الانحدار فيما لا يحسن من اللفظ والقول حين بيَّن أن كل لفظٍ مسجَّلٍ على صاحبه، وهو محاسب عليه يوم

(١) الصمت وآداب اللسان، لابن أبي الدنيا، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا (موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا المجلد الخامس)، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط ٢، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م، ص ٦٧.

(٢) ديوان أبي تمام، تقديم وشرح د. محيي الدين صبحي، بيروت ـ دار صادر، ط ١، ١٩٩٧م، ١/ ٢١٥.

(٣) أدب الدنيا والدين.

القيامة: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق: ١٦ ـ ١٨].

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

«إذا أراد أحدكم الكلام فعليه أن يفكر في كلامه، فإن ظهرت المصلحة تكلَّم، وإن شكَّ لم يتكلمْ حتى تظهر»[١].

وقد بحث علماء الأخلاق والتصوف والآداب في هذه الآفات وبسطوا القول عليها حتى أوصلوها إلى عشرين آفة، هي:

١ ـ الكلام فيما لا يعنيك. ٢ ـ فضول الكلام.
٣ ـ الخوض في الباطل. ٤ ـ التقعر في الكلام.
٥ ـ الفحش والسب وبذاءة اللسان. ٦ ـ المزاح.
٧ ـ السخرية والاستهزاء. ٨ ـ إفشاء السرّ.
٩ ـ الغيبة. ١٠ـ النميمة.
١١ـ كلام ذي اللسانين. ١٢ـ المدح.
١٣ـ الخطأ في فحوى الكلام. ١٤ـ إخلاف الوعد.
١٥ـ الكذب في القول واليمين. ١٦ـ سؤال العوام عن صفات الله وكلامه.
١٧ـ المراء والجدل. ١٨ـ الخصومة.
١٩ـ اللعن. ٢٠ـ الغناء والشعر[٢].

---

(١) المستطرف في كل فنٍّ مستظرف، للأبشيهي، تحقيق إبراهيم صالح، بيروت ـ دار صادر، ط ١، ١٩٩٩م، ١/٢٦٨.

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي ـ دار للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان ٣/١٠٨.

ولا شكَّ أنَّ بعض هذه الآفات يمكن أن يكون فرعًا عن بعضها الآخر مما دعاني إلى حصرها في تسع آفات، وسأحاول في مبحثي هذا أن آتي عليها، مبينًا سبل النجاة من كل منها، راجيًا المولى سبحانه أن يجنبنا إياها، وأن يسدِّد خطانا ويهدينا رشدنا إنه سميع مجيب. وفيما يلي مسردٌ بها:

١ ــ الفحش والسبّ.
٢ ــ الكذب.
٣ ــ الغيبة.
٤ ــ النميمة.
٥ ــ اللغو وكثرة الكلام.
٦ ــ التقعر في الكلام ورفع الصوت.
٧ ــ المِراء والجَدَل والخصومة.
٨ ــ التملُّق والنفاق.
٩ ــ السخرية والاستهزاء وكثرة المُزاح.

أولاً: الفحش والسبُّ

الفحش لغةً: القبيح من القول والفعل(١).

واصطلاحًا: التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة(٢).

والسبُّ: الشَّتم(٣).

ويجمع الفحشَ والسبَّ تعبيرُ بذاءة اللسان، وهي من الأخلاق

---

(١) اللسان (فحش).
(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ١٢٢.
(٣) اللسان (سب).

المذمومة التي يترفَّع عنها كل ذي طبع سليم وفطرة صافية فضلاً عن أن يكون ذا دين قويم وورع يقيه من التردِّي في حمأة الرذيلة ويسمو بها للتحلّي بكل فضيلة، قيل: شتم رجل حكيمًا، فقيل له: هلاَّ غضبت! فقال: كفاه خِسَّة أن يَشتم ولا يُشتم[1].

وقد اتفقت الشرائع على ذمِّ هذا الخلق والنهي عنه، والأمر بحفظ اللسان وتعهده. جاء في كلام لقمان لابنه وهو يعظه: «إذا كان خازنُكَ حفيظًا وخزانتُكَ أمينةً رشدْتَ في أمريك: دنياك وآخرتك، يعني القلب واللسان»[2]. وقال امرؤ القيس:

إذا المرءُ لم يَخْزُنْ عليهِ لسانَهُ فليسَ على شيءٍ سواهُ بخَزَّانِ[3]

وسنتناول هذا الخلق الذميم من الجوانب التالية:

(أ) أنواعه وأشكاله.

(ب) حكمه في الشرع والعرف.

(ج) آثاره.

(د) سبل اجتنابه.

(أ) أنواع الفحش وأشكاله:

للفحش أنواع كثيرة تبدأ من التصريح ببعض أسماء الأعضاء وبعض الأمراض الجسدية، وتنتهي بالسبِّ والبَذاء واللعن وتناول الأعراض

---

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، للزمخشري، تحقيق د. سليم النعيمي، قم ــ إيران ــ دار الذخائر، للمطبوعات، ط ١، ١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م، ٢/٤٢٨.

(٢) اللسان (خزن).

(٣) ديوان امرىء القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ــ دار المعارف بمصر، ط ٣، ص ٩٠.

والتطاول على الصحابة والتابعين، وسأعرض لهذه الأنواع متدرجًا فيها من الأدنى إلى الأعلى أو من السيِّىء إلى الأسوأ.

فمن أنواعه التصريح بأسماء الأعضاء التي يحتشم من ذكرها كالقُبُل والدُّبُر وما أشبه ذلك من ألفاظ الوقاع والجماع، وقد أدَّبنا الإسلام بأدب القرآن الذي لم يصرح بمثل هذه التسميات وإنما كنَّى عنها واستعمل أرقَّ التعابير في الإشارة إليها، قال ابن عباس: «إن الله حَيِـيٌّ كريمٌ يعفو ويكنو، كنَّى باللمس عن الجماع، فالمسيس واللمس والدخول والصحبة كناياتٌ عن الوقاع وليست بفاحشة»[1].

تدبّر معي قوله تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٩]، تجدْ ضربًا عجيبًا من تخيّر الألفاظ اللطيفة الرقيقة العذبة للتعبير عن أدقِّ المعاني الجنسية، ولا غَرو فالبيان السماوي أجلُّ وأعلى وأسمى من أن يتدنَّى إلى أي أسلوب لا يليق بالمسلم قوله أو سماعه.

ولا يقتصر هذا النوع على التصريح بأسماء الأعضاء أو الوقاع وإنما يمتد ليشمل التصريح ببعض العيوب أو الأمراض الجسدية التي يستحيا منها فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير، بل يقال: العارض الذي يشكوه وما يجري مجراه. وقد كان كرام الناس والعلية من القوم يوصفون بنبل منطقهم وتحفظهم في كلامهم. قال أبو عبيد: «ما رأيت رجلاً قطّ أشدَّ تحفظًا في منطقه من عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه»[2].

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ١٢٢.

(٢) الصمت وآداب اللسان، ص ٢٥٢.

وحدَّث يحيى بن سليم عن أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، قال: «كنا عند عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فقال رجل لرجلٍ: تحت إبطك! فقال عمر رضي الله عنه: وما على أحدكم أن يتكلم بأجمل ما يقدر عليه؟ قالوا: وما ذاك؟ قال: لو قال: تحت يدك كان أجمل»[1].

ومن أنواع الفحش السبُّ والشتم، وهما مظهر من مظاهر اللؤم، يقال: «ما استبَّ رجلان إلاَّ غلب ألأمهما»[2]، وقال بعض الحكماء: «لا أحب أن أكون في حربٍ الغالب فيه شر من المغلوب»[3].

ولهذا نزَّه الفضلاء أنفسهم عن السبّ والشتم وإن سُبّوا وشُتموا:

قال الشاعر:

ولقـدْ أمـرُّ علـى اللئيـمِ يسبُّنـي ... فمضيـتُ ثُمـتَ قلـتُ لا يعنينـي

غضبـان ممتلئًـا علـي إهـابُـهُ ... إنِّ وربِّـكَ سخطُـهُ يُـرضينـي

وأتى رجل ابن عمر فقال له: «إن فلانًا شتمك»، فقال له: «إني وأخي عاصمًا لا نُسَابُّ أحدًا»[4].

ومن أسوأ أنواع السب والشتم اللعن الموجَّه إلى **الوالدين**، وقد جعل الإسلام ذلك من الكبائر، إذ قال رسول الله ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعنَ الرجل والديه، قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسبَّ الرجلُ أبا الرجل، فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمَّه، فيسبُّ أمَّهُ»[5].

---

(١) الصمت وآداب اللسان، ص ٢٥٢.

(٢) ربيع الأبرار ٢/ ٤٣٦.

(٣) ربيع الأبرار ٢/ ٤٣٦.

(٤) عيون الأخبار، لابن قتيبة، بيروت ـ دار الكتاب العربي ٢/ ٢٣.

(٥) رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، انظر: صحيح البخاري ٥/ ٢٢٢٨، رقم ٥٦٢٨.

والللعن مذموم بكل أنواعه وأشكاله، وحسبه مذمَّةً وكراهيةً أنَّ الرسول ﷺ نفى أن يتَّصف به المؤمن حيث قال: «ليسَ المؤمن بطعَّان ولا بلعَّانٍ ولا الفاحش البذيء»[1]، وجعل لعن المؤمن كقتله، حيث قال: «ومن لعن مؤمنًا فهو كقتله»[2]، على أن أخطر أنواع اللعن على الإطلاق ما كان موجَّهًا إلى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تسبُّوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[3].

أما لعن الدين وسبّه والتعرض للذات الإلـٰهية بشيء من هذا القبيل فذاك كفر صُراح، يُخرج عن ربقة الدين، ويتردّى بصاحبه إلى درك الأسفلين. ولا يقدم عليه إلاَّ أسفه الناس وأحمقهم، وللشرع في مرتكبه أحكام لسنا بصدد العرض لها، أيسرها أنه تلزمه التوبة وإعادة الشهادة وإعادة العقد على زوجه.

(ب) حكمه في الشرع والعرف:

تضافرت النصوص الشرعية والأدبية على النهي عن الفحش والسَّبِّ والبذاء، فمن ذلك قوله ﷺ: «إياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحُّش»[4].

---

(١) رواه أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/ ٣٩٠، رقم ٣٨٣٩.

(٢) رواه البخاري من حديث ثابت بن الضحَّاك رضي الله عنه، انظر: صحيح البخاري ٥/٢٢٤٨، رقم ٥٧٠٠.

(٣) رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، انظر: صحيح البخاري ٣/ ١٣٤٣، رقم ٣٤٧٠.

(٤) رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، انظر: المسند، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة ــ دار الحديث، ط ١، ١٤١٦هـ ــ ١٩٩٥م، ٢٠ جزءًا، ٦/ ٣١٠، رقم ٦٧٩٢.

ومن ذلك قوله أيضًا: «سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر»[1]، ولا أدلَّ على ذلك من أنه ﷺ وُصف بأنه: «لم يكن فاحشًا ولا متفحِّشًا»[2]، «ولم يكن سبابًا ولا فحاشًا ولا لعانًا»[3].

بهذه الأخلاق النبيلة علَّمنا كيف نعامل أنفسنا وإخواننا والناس جميعًا وجعل سلم التفاوت والتمايز بين الناس أخلاقهم الحميدة: «إنَّ من خياركم أحسنكم أخلاقًا»[3]، و «إن من أخيركم أحسنكُم خلقًا»[3].

هذا وقد جعل الإسلام النهي عن الفحشاء في مقدمة مقاصد الصلاة، وهي ركن الإسلام العظيم، وعماد الدين القويم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وتبارى الشعراء والأدباء في التنفير من هذا الخلق الذميم، والحثُّ على عفَّة اللسان وتجنيبه ما يسيء فقال أحدهم:

عَيِيٌّ عن الفحشاءِ أما لسانُهُ فعفٌّ، وأما طرفه فكليلُ[4]

وقال أبو تمام:

أُذُنٌ صَفوحٌ ليسَ يَفتَحُ سُمَّها لدنيَّةِ وأناملٌ لم تُقْفَلِ[5]

---

(١) صحيح البخاري، باب ما ينهى من السباب واللعن، ١/ ٢٧، رقم ٤٨.
(٢) صحيح البخاري، باب لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، ٥/ ٢٢٤٣، رقم ٥٦٨٢، و ٥٦٨٤.
(٣) صحيح البخاري، باب حسن الخلق والسخاء، ٣/ ١٣٠٦، رقم ٣٣٦٦.
(٤) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، بيروت ــ دار مكتبة الحياة، ٤ أجزاء، ١/ ٧٢.
(٥) ديوان أبي تمام ٢/ ١٩.

وقال الموسوي:

ولا أعرفُ الفحشاءَ إلاَّ بوصفِها ولا أنطِقُ العوراءَ والقلبُ يعربُ[1]

وقال رجل لأبي بكر رضي الله عنه: «والله لأسبنَّك سبًّا يدخل القبر معك، قال: معك يدخل لا معي!»، إشارة إلى ما سيناله من عقاب على سبِّه.

وشتم رجل الشعبي فقال له: «إن كنت صادقًا فغفر الله لي، وإن كنت كاذبًا فغفر الله لك»[2].

وقال الأحنف بن قيس: «ألا أخبركم بأدوأ الداء؟ اللسان البذي والخلق الدني»[3].

(ج) أسبابه وآثاره:

لن نعرض هنا لأسباب الفحش الفردية، فذا أمر يختلف من فرد إلى آخر وإنما نريد أن نرصد الظاهرة في المجتمع كله، ولا بدَّ لنا في سبيل ذلك من التعويل على علم الاجتماع اللغوي الذي يدرس فيما يدرس تأثير البناء الخلقي في البناء اللغوي، ويرصد تسرب الغرائز إلى اللسان، ويقرِّر أن تعهر المجتمع وسقوطه في الفواحش ينشران القِحة والبذاءة في لغته، والسموّ بالغرائز وحفاظه

---

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، بيروت ـ دار مكتبة الحياة، ٤ أجزاء، ١/ ٧٢.

(٢) العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وزملائه، بيروت ـ دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ٢/ ٢٧٦.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ١٢٢.

على نقاء الأعراض يطهّران كلامه من الرفث والخبث[1].

ويدلل على ذلك الدكتور علي عبد الواحد وافي بعقد موازنة بين اللغة اللاتينية واللغة العربية فيقول: «فاللغة اللاتينية لا تستحيي أن تعبِّر عن العورات والأمور المستهجنة والأعمال الواجب سترها بعبارات مكشوفة، ولا أن تسميها بأسمائها الصريحة، على حين أن اللغة العربية بعد الإسلام تتلمَّس أحسن الحيل وأدناها إلى الحشمة والأدب في التعبير عن هذه الشؤون، فتلجأ إلى المجاز في اللفظ، وتستبدل الكناية بصريح القول: القُبُل، والدُّبُر، قارب النساء، لمس امرأته، قضى حاجته. . . إلخ.

ولقد كان لها بهذا الصدد في ألفاظ القرآن الكريم وعباراته أسوة حسنة: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، و ﴿ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [النساء: ٣٤]، و ﴿ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ [النساء: ٤٣]، و ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [النساء: ٢١]، و ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٧]، و ﴿ فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، و ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ [المجادلة: ٣]. . .»[2].

وأما آثار الفحش والسبِّ في المجتمع فهي كثيرة وخطيرة، ولعلَّ أخطرها هذا التأثير المتبادل بين اللغة والمجتمع، فكما يؤثر المجتمع في اللغة فتكون صدىً لأخلاقه وسلوك أفراده، تؤثر اللغة في المجتمع فيكون صدىً لمفرداتها وما تتضمنه من معانٍ، فانتشار ألفاظ الفحش والبذاءة في

(١) في علم اللغة، د. غازي طليمات ـ دار طلاس، دمشق، ط ١، ١٩١٧هـ ـ ١٩٩٧م، ص ٢٦.

(٢) اللغة والمجتمع د. علي عبد الواحد وافي، القاهرة ـ دار نهضة مصر (١٩٧١م)، ص ١٨.

مجتمع من المجتمعات يمكن أن يسهم في إشاعة الفاحشة والتحلل الأخلاقي في هذا المجتمع، وقد أنذر الله سبحانه من يقدم على ذلك بأشد العذاب: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ١٩].

هذا على صعيد المجتمع، أما على الصعيد الفردي فإن الفحش والسبَّ يُخلِّف أبلغ الأثر في النفس فينتزع المحبة والمودَّة ويورث العداوة والبغضاء والغلَّ والحقد. ومن المعلوم أنَّ مقالة السوء تعمل في النفس ما لا يعمله السلاح في الجسد، فتأثيرها ممتد، ومحو أثرها صعب أو محال.

قال الشاعر:

وجرحُ السيف تُدْمِلُهُ فيَبرا وجرحُ الدهر ما جرحَ اللسانُ
جِراحاتُ الطِّعان لها التئامٌ ولا يلتامُ ما جرحَ اللسانُ[1]

وقال امرؤ القيس:

ولو عن نَثا غيرِهِ جاءَني وَجُرْحُ اللسانِ كجرحِ اليدِ[2]

وقال آخر:

وجرحُ السيفِ يأسوهُ المُداوي وجرحُ القولِ طولَ الدهرِ دامي[3]

وقد صوَّر الأخطل نفاذَ القول وتأثيره أروع تصوير حين جعله أشدَّ من نَفاذ الإبر بقوله:

---

(١) المحاسن والمساوىء، للبيهقي، بيروت ـ دار صادر ودار بيروت، ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م، ص ٣٨١.

(٢) ديوان امرىء القيس، ص ١٨٥.

(٣) المحاسن والمساوىء، للبيهقي، بيروت ـ دار صادر ودار بيروت، ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م، ص ٣٨١.

حتَّى استكانُوا وهمْ منِّي على مَضَضٍ والقـولُ ينفُـذُ مـا لاَ تنفُـذُ الإبَـرُ[1]

وقال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه: «يا بني قد دحرجت الحجارة، وقطعت الصخور، فلم أجد أثقل من كلمة السوء ترسخ في القلب كما يرسخ الحديد في الماء»[2].

(د) سبل اجتناب الفحش والسبّ:

أول هـذه السبـل التـربيـة الصـالحـة والتنشئـة علـى مكـارم الأخـلاق، وتجنيب الأطفال سماع المرذول من القول والسبّ والشتم، وقد حضّت الشريعة السمحة على اجتناب الفحش والتفحش، ونفت عن المسلم صفة الطعن واللعن والبذاءة كما مرَّ معنا[3].

بل إنها نهت حتى عن سبِّ الأوثان والطواغيت التي تتخذ أربابًا من دون الله: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعـام: ١٠٨]، ونهـى رسـول الله ﷺ عـن أن تسـبَّ قتلـى بـدر مـن المشركين[4].

وثانيها: صون السمع عن سماع القبيح من القول، فإن في هذا الصون وقايةً للسان عن النطق به، يقول الشاعر:

---

(١) شعر الأخطل، صنعة السكري، تحقيق د. فخر الدين قباوة، بيروت ـ دار الآفاق الجديدة، ط ٢، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م، مجلدان، ١/ ٢٠٢.

(٢) ربيع الأبرار ٢/ ٤٤١.

(٣) انظر: ما تقدم في الفقرة ب. حكمه في الشرع والعرف، ص ١٦.

(٤) وذلك قوله ﷺ: «لا تسبّوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء، ألا إنَّ البَذاء لؤم»، أخرجه ابن أبي الدنيا. انظر: إحياء علوم الدين ٣/ ١٢١.

وسَمعَكَ صُنْ عن سماعِ القبيحْ كصونِ اللسانِ عن النطقِ بِهْ
فإنَّكَ عندَ سماعِ القبيحْ شريكٌ لقائلِهِ فانتبِهْ[1]

وروى الجاحظ أن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان رأى رجلاً يشتم رجلاً، وآخر يستمع له، فقال للمستمع: نزِّه سمعك عن استماع الخنا كما تنزِّه لسانك عن الكلام به، فإن السامع شريك القائل، وإنما نظر إلى شرٍّ ما في وعائِه فأفرغَهُ في وعائك، ولو ردَّت كلمة جاهل في فيهِ لسعِدَ رادُّها، كما شقي قائلُها»[2].

وثالثها: التنزُّه عن ردِّ الإساءة، واحتمالُ الأذى، ودفعه بالتي هي أحسن، وفي ذلك سموٌّ وارتقاء وإصلاح، لا يحسنه إلاَّ ذوو النفوس النبيلة، يقول جلَّ وعلا:

﴿ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٥].

ويروى أن رجلاً أسمع عمر بن عبد العزيز ما يكره، فقال: لا عليك إنما أردتَ أن يستفزّني الشيطان بعزَّة السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غدًا. انصرف إن شئت[3].

وقال الشاعر في هذا المعنى:

لنْ يُدْرِكَ المجدَ أقوامٌ وإن كرُموا حتى يذِلّوا وإن عَزّوا لأقوامِ

---

(١) الأذكار، للنووي، تحقيق محمد أديب الجادر، دمشق ـ دار البشائر، ط ١، (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م، ص ٣٨١.
(٢) البيان والتبيين ٢/ ٣٠١.
(٣) العقد الفريد ٢/ ٢٧٩.

ويْشتَمـوا فتَـرى الألـوانَ كـاسِفـةً لا ذُلَّ عَجْـزٍ ولكِـنْ ذُلَّ أحـلامِ[1]

فليس الصفح إذًا عن ضعف أو ذلّة، وإنما هو ترفُّعٌ عن الدنايا وصبرٌ على الرزايا، ولا يفعل ذلك إلاّ ذو عقل. حكي أن عليَّ ابن أبـي طالب كرَّم الله وجهه، قال لعامر بن مُرَّة الزهري: مَنْ أحمقُ الناسِ؟ قال: مَنْ ظنَّ أنه أعقلُ الناس، قال: صدقت، فمَنْ أعقلُ الناس؟ قال: من لم يتجاوزِ الصمتَ في عقوبةِ الجهّال[2].

وأكثرَ رجلٌ من سبِّ الأحنف وهو لا يجيبهُ، فقال: والله ما منعه من جوابـي إلاّ هواني عليه.

وفي ذلك يقول عمرو بن علي:

إذا نطـقَ السفيـهُ فـلا تُجبْـهُ فخيـرٌ مـن إجـابتِـهِ السكـوتُ
سكـتُّ عـن السفيـهِ فظـنَّ أنّـي عييتُ عـن الجـوابِ ومـا عييتُ

وقد حضَّ الرسول الكريم ﷺ على هذا الخلق الكريم ـ أي على الترفع عن رد السبِّ والشتم ـ حيث قال: «المستبّان، ما قالا فعلى البادىء، ما لم يعتدِ المظلوم»[3].

ونعتَ أبا ذرٍّ بالجاهلية عندما عيَّر رجلاً بأمِّهِ الأعجمية ونال منه[4].

---

(١) العقد الفريد ٢/ ٢٧٩.

(٢) أدب الدنيا والدين، للماوردي، تحقيق د. محمد صبّاح، بيروت ـ دار مكتبة الحياة، ١٩٨٧م، ص ٢٥٤.

(٣) رواه مسلم من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه، انظر: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت ـ دار إحياء التراث العربـي، ط ٢، ١٩٧٢م، ٤/ ٢٠٠٠، رقم ٢٥٨٧.

(٤) صحيح البخاري، باب ما يُنهى من السباب واللعن ٤/ ٢٢٤٨، رقم ٥٧٠٣.

ورابعها: توقِّي أسباب السبّ بالتزام مكارم الأخلاق والتحلِّي بفضائل السلوك في التعامل مع الآخرين، وعدم إثارة ما يدعو إلى السبِّ والشتمِ كالكذب، لأن التعرُّض للناس وتحدِّيهم يوقع المرء في ألسنتهم:

ومَـــنْ دعــا النَّــاسَ إلــى ذمِّـــهِ ذمُّـــوهُ بــالحــقِّ وبــالبــاطــل

مقــالَــةُ الســوءِ إلــى أهلهــا أســرعُ مــن منحــدرٍ ســائِــلِ[1]

ولعلَّ من أبرز ما يدعو إلى السَّبّ والشَّتم ويوقع في البغضاء والحقد والقطيعة المراء والجدل، ولذلك نبَّه الشاعر عليه ونهى عن ارتكابه:

فــإيَّــاكَ إيــاكَ المِــراءَ فــإنــه إلى السبِّ دعَّاءٌ وللصرم جالبُ[2]

ولا ريب أن إشاعة المحبَّة بين الناس من شأنها أن تجنبهم هذا الخلق الذميم، وقد دلَّ رسول الله ﷺ على سبيل ذلك بقوله: «ألا أخبرُكُمْ بشيءٍ إذا فعلتموهُ تحابَبْتُم؟ أفشُوا السلامَ فيما بينكم»[3].

وفي هذا تَحَلٍّ بالأخلاق التي وصف الله بها عباده المؤمنين، حيث يقول: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٣].

---

(١) عيون الأخبار ٢/ ٢٦.

(٢) العقد الفريد ٣/ ٦.

(٣) رواه أبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، انظر: أبو داود، صحيح سنن أبي داود، صحح أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني، الرياض ـ مكتبة التربية العربي لدول الخليج، ط ١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م، ٣/ ٩٧٥، رقم ٤٣٢٥.

ثانيًا: الكذب

الكذب نقيض الصدق وهو جماع كل شرّ، وأصل كل ذمٍّ، لسوء عواقبه، وخبث نتائجه، فهو يُنتج النميمة، والنميمة تُنتج البغضاء، والبغضاء تؤول إلى العداوة، وليس مع العداوة أمنٌ ولا راحة، ولذلك قيل: «مَن قلَّ صِدقُهُ قلَّ صديقُهُ»[1].

ولأمرٍ ما نجد المشتقات التي استعملت للوصف ومبالغته من هذه الكلمة كثيرة كثرة لافتة للنظر، فقد جاء في اللسان:

«ورجل كاذبٌ، وكذّاب، وتِكذاب، وكذوب، وكَذُوبة وكُذَبَة (مثال هُمَزَة) وكَذْبان، وكَيْذَبان، وكَيْذُبان، ومَكْذَبان ومَكْذَبانة، وكُذُبْذُبان، وكُذُوبْذُب، وكُذُبْذُب. قال جريبةُ بن الأشْيَم:

فـإذا سمعْـتَ بـأنـنـي قـد بِعتُكُـمْ بـوِصـالِ غـانيـةٍ فقـلْ كُـذُبْـذُبُ[2]

إن هذه الأربع عشرة صيغةً في وصف صاحب الكذب قَمينةٌ أن تصرف المرء عن الكذب، وأن تصور مبلغ فظاعته وشناعته. قال الشاعر:

ومـــا شـــيءٌ إذا فكـــرْتَ فيـــهِ بـــأذهـــبَ للمُـــروءةِ والجمـــالِ
مِـنَ الكَـذِبِ الـذي لا خيـرَ فيـهِ وأبعـدَ بـالبهـاءِ مـن الـرجـالِ[3]

وسنتناول هذا الخلق المذموم من الجوانب التالية:

(أ) أنواعه وأشكاله.

(ب) آثاره وجزاؤه.

(ج) سبل اجتنابه.

---

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٢٦١.

(٢) اللسان (كذب).

(٣) أدب الدنيا والدين، ص ٢٦١.

(أ) أنواعه وأشكاله:

للكذب أنواع كثيرة كلها قبيح مذموم:

فأولها، وأكثرها سوءًا: **الافتراء**، وهو اختلاق الكذب (فرى كذبًا فَرْيًا وافتراه: اختلقه. ورجل فرِيٌّ ومِفْرىً وإنه لقبيح الفِرْية)[1]. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٠٥]. وفي الحديث الشريف: «إن من أفرى الفِرى أن يُرِيَ عينيه ما لم ترَ»[2]. قال سُراقةُ البارقي مبينًا بطلان ما كان يصنع:

أُري عينـــيَّ مـــا لـــم تَــرْأَيــاهُ　　　كــلانــا عــالــمٌ بــالتُّــرَّهــاتِ[3]

ومما يندرج تحت هـذا النـوع ـ أي الافتـراء ـ الكـذب على رسول الله ﷺ بنسبة كلامٍ إليه لم يقُلْهُ.

فهذا من أشنع الكذب وصاحبه مُنذرٌ بالوعيد الشديد الذي أشار إليه حديث الصادق المصدوق ﷺ: «من كذب عليَّ متعمِّدًا فليتبوَّأ مقعده من النار»[4].

وثانيها: تكذيب الرسل وما جاؤوا به من الكتب والبعث، وقد سمّى الله سبحانه من يفعلون ذلك بالخرّاصين حيث قال:

﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الذاريات: ١٠ ـ ١٤]، ومما ينسب إلى أبي بكر قوله:

---

(١) اللسان (فري).

(٢) صحيح البخاري ٦/٢٥٨، رقم ٦٦٣٦.

(٣) النوادر في اللغة، لأبي زيد الأنصاري، بيروت ـ دار الكتاب العربي ط ٢، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م، ص ١٨٥.

(٤) صحيح البخاري ١/٥٣، رقم ١١٠.

رسـولٌ أتـاهُـمْ صـادِقٌ فتكـذّبُـوا   عليهِ وقالوا: لستَ فينا بماكثِ[1]

وثالثها: شهادة الزور، وهي شهادة الباطل يدلي بها الشاهد كذبًا وافتراءً، وقد حذَّر منها الرسول ﷺ، وعدَّها من أكبر الكبائر، حيث قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين»، ثم قعد وقال: «ألا وقول الزور»، بل قرنها بالإشراك بالله حيث قال: «عَدَلت شهادةُ الزور الشرك بالله»[2]، وإنما عادلته لقوله تعالى في وصف عباده المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ثم قال بعدها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢].

ورابعها: الظنّ، وهو أكذب الحديث كما جاء في قول الصادق المصدوق ﷺ: «إياكم والظنّ فإن الظنّ أكذبُ الحديث»[3].

والظنّ نتيجة من نتائج سوء الفعل، قال المتنبـي:

إذا ساءَ فعلُ المرءِ ساءَتْ ظنونُهُ   وصـدَّقَ مـا يعتـادُهُ مـن تَـوَهُّـمِ[4]

وهو يؤدي إلى ظلم كبير، قال عبد الرحمن بن حسان:

فـلا ويميـن اللّـٰهِ لا عـن جنـايـةٍ   هُجِـرتُ ولكـنَّ الظنيـنَ ظنيـنُ[5]

ولذلك نهى الله سبحانه وتعالى عن الظن مبينًا أن بعضه إثم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات: ١٢].

وخامسها: إخلاف الموعد فهو ضرب من ضروب الكذب، لأن المخلف وعده إنما يكذب في أمر مستقبل، قال الماوردي: «والصدق

---

(١) اللسان (كذب).

(٢) اللسان (زور).

(٣) صحيح البخاري ٥/ ١٩٧٦، رقم ٤٨٤٩.

(٤) ديوان المتنبـي بشرح أبـي البقاء العكبري، ٤/ ١٣٥.

(٥) اللسان (ظن).

والكذب يدخلان الأخبار الماضية، كما أن الوفاء والخلف يدخلان المواعيد المستقبلة»[1]. وقد قرن أبو تمام بين إخلاف الموعد والكذب بقوله في عياش بن لَهيعة:

يا أكثرَ الناسِ وَعْدًا حَشْوُهُ خُلُفٌ   وأكثرَ النَّاسِ قولاً حشوُهُ كَذِبُ[2]

والعرب تضرب المثل بعرقوب في إخلاف الموعد. يقول كعب بن زهير:

كانت مواعيدُ عرقوبٍ لها مثلاً   وما مواعيدها إلاّ الأباطيل[3]

وعرقوب هذا من أكذب أهل زمانه، قيل إنه أتاه أخ له يسأله شيئًا فقال له عرقوب: إذا أطلَعَت هذه النخلة فلك طَلْعها، فلما أَطْلَعت أتاه للعِدَةِ، فقال له: دعها حتى تصير بَلَحًا، فلما أبلَحَتْ قال: دعها حتى تصير زَهْوًا، فلما أبسَرَتْ قال: دعها حتى تصير رُطَبًا، فلما أرطبت، قال: دعها حتى تصير تمرًا، فلما أتمرت عَمَد إليها عُرقوب من الليل، فجَدَّها، ولم يعط أخاه منه شيئًا، فصارت مثلاً في إخلاف الوعد، وفيه يقول الأشْجَعي:

وعدْتَ وكان الخُلْفُ منكَ سجيَّةً   مواعيدَ عُرْقوبٍ أخاهُ بيَتْرِبِ»[4]

ومما يدخل في هذا الباب كثرة الاعتذار، أو ما سمي بالمَعاذِر، جمع مَعْذِرَة، فقد جاء في المثل العربي: «المَعاذِرُ مَكاذِب»[5] و «المعاذير قد يشوبُها الكذب»[6]، لأن المعتذر يحتال في اختراع الحجة التي يعتذر بها عن

---

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٢٦٢.

(٢) ديوان أبي تمام ٢/ ٢٠٥.

(٣) شرح ديوان كعب بن زهير، للسكري، القاهرة ـ دار الكتب المصرية، ط ١، ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م، ص ٨.

(٤) لسان العرب (عرقب).

(٥) مجمع الأمثال ٢/ ٢٩٦.

(٦) مجمع الأمثال ٢/ ٢٩٦.

إخلاف لموعد أو تقصير في حقٍّ أو ما شابه ذلك. ولهذا قيل: «أمران لا ينفكّان من كذب، كثرة المواعيد وشدة الاعتذار»[1]، وقد وصف الله سبحانه أولئك الأعراب الذين تعلّلوا بالأعذار من غير وجه حقٍّ بقوله: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ [التوبة: ٩٠]، فقرن بينهم وبين الكاذبين الذين كذبوا الله ورسوله.

وحكى الجاحظ في البيان والتبيين أنه:

«كان يقال: «دعوا المَعاذِر فإن أكثرها مفاجِر».

وقال إبراهيم النخعي لعبد الله بن عون: «تجنب الاعتذار فإن الاعتذار يخالطه الكذب».

واعتذر رجل إلى أحمد بن أبي خالد، فقال لأبي عباد: ما تقول في هذا؟ قال: يوهب له جُرمُه، ويضرب لعذره أربعمئة»[2].

ومن بديع ما أنشد ابن عبد ربه في ذمِّ إخلاف الموعد والكذب:

صَحيفةٌ أُثْبِتَتْ ليتٌ بها وعسى ... عُنوانُها راحةُ الراجي إذا يَئِسا
وعدٌ له هاجسٌ في القلبِ قد بَرِمَتْ ... أحشاءُ صدري بهِ من طولِ ما انحبَسا
مواعدٌ غَرَّني منها وميضُ سَنىً ... حتّى مددتُ إليها الكَفَّ مقتبِسا
فصادَفَتْ حَجَرًا لو كنتَ تضربُهُ ... مِنْ لُؤمِهِ بعَصَا موسى لما انبَجَسَا
كأنّما صِيغَ من بخلٍ ومن كَذِبٍ ... فكانَ ذاكَ لَهُ روحًا وذا نَفَسَا[3]

---

(١) المحاسن والمساوىء، ص ٣٩٣.

(٢) البيان والتبيين ٢/ ٩١.

(٣) العقد الفريد ٢/ ٣٦٩.

(ب) آثار الكذب وجزاؤه:

للكذب آثار سيئة تبدأ بصاحبه وتنتهي بمن حوله لتعمَّ المجتمع كله، ولـذلـك تضافرت الآثـار والأخبار والحكم والأمثال على النهي عنه، والتنبيه على شرِّه، والتحذير من انتشارِه، وتصوير عاقبته ومآله. يقول الشاعر:

لا يكـذبُ المـرءُ إلاَّ مِـنْ مَهـانتِـهِ ... في فعلةِ السّوءِ أو من قلَّةِ الأدبِ
لَبعـضُ جيفـةِ كلـبٍ خيـرُ رائحـةً ... من كِذْبةِ المرءِ في جِدٍّ وفي لَعِبِ[1]

ولعل أول تلك الآثار السيئة على الكذوب، أن لا يصدَّق في أمرٍ وإن صدق، ولا أدلّ على ذلك من قصة الراعي الذي استنجد بأهل القرية غير مرة زاعمًا أن الذئب عدا على غنمه، وهو يكذب في ذلك، وأهل القرية يصدقونه، فلما عدا الذئب حقيقة على غنمه لم يُجْدِ صراخه واستغاثته، لأن أحدًا من أهل القرية لم يصدِّقْ مقالته، فجنى عليه كذبه، وضاعت منه غنمه. فمن جرّب الناس عليه الكذب لم يصدِّقوه أبدًا، وقد جاء في أمثالهم: «من عُرِفَ بالكذب لم يَجُزْ صِدْقُه، ومن عُرِف بالصدق جازَ كَذِبه»[2]، بل إنهم يلحقون به كل كذبة يسمعونها، وينسبون إليه كلَّ فِرْيةٍ قد يكون اختلقها غيرُه، وفي ذلك يقول الشاعر:

حَسْـبُ الكـذوبِ مـن البليْـ ... ـيَـةِ بعـضُ مـا يُحكـى عليـهْ
فمتـى سمعـتَ بكـذبـةٍ ... مـن غيـرِهِ نُسبـت إليـهْ[3]

والسبب في هذا أن عادة الكذب عادة ذميمة، متى اعتادها صاحبها

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف ٢/ ١٥١.

(٢) العقد الفريد ٣/ ٧٩.

(٣) المستطرف في كل فن مستظرف ٢/ ١٥٠.

استبدَّت به واستحكمت منه حتى ما يستطيع منها فِكاكًا، فلا ينفع معه علاج، ولا يشفيه منها دواء، وفي هذا يقول أبو العباس المبرّد:

إن النّمــومَ أغطّــي دونــه خَبَــري وليسَ لي حيلةٌ في مفتري الكذبِ

ويروي لبعض المحدثين ـ في زمنه ـ من الشعراء قوله:

لـــي حيلـــةٌ فيمـــن يَنُمْـ ـــمُ وليــس فــي الكــذّاب حيلَــهْ

مَــنْ كــانَ يكــذبُ مــا يــريـ ـــدُ فحيلتــي فيــه قليلَــهْ[1]

وهي تغطي على كل الفضائل التي قد يتحلّى بها صاحبها، على العكس من سجيّة الصدق التي تغطّي على كل الرذائل التي قد تعلق بصاحبها، ولذلك قيل: «علة الكذوب أقبح علة، وزلّة المتوفّى أشدُّ زَلّة»[2]. وقال الشاعر:

أنــتَ الفتــى كــلُّ الفتــى إن كنــت تصــدق مــا تقــول

لا خيــرَ فــي كَــذِبِ الجــوا دِ وحبَّــذا صِــدْقُ البخيــل[3]

والكذب يورث صاحبه الرذائل، وينفي عنه الفضائل، فمن اعتاد الكذب هانت عليه كل رذيلة، لأنه بكذبه وتضليله سيقلبها إلى فضيلة، ويتبجّح بتحلّيه بها ليُعرف عنه ما ليسَ فيه، وليُحمَد بما لم يصنعْ.

ومن طريف ما يروى في هذا الباب أن أبا حيّة النميري الشاعر (من مخضرمي الدولتين ت ٢٦٠هـ) كان كذّابًا وقد جمع إلى الكذب جبنًا وبخلاً، وكان له سيفٌ يسميه لُعابَ المنية، ليس بينه وبين الخشبة فرق.

---

(١) الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، تحقيق د. محمد الدالي، بيروت ـ دار الرسالة، بيروت ٢/ ٨٨٢.

(٢) عيون الأخبار ٣/ ٢٦.

(٣) الصمت وآداب اللسان، ص ٢٩٦.

يحكى أنه دخل ليلةً إلى بيته فسمع صوتًا لا عهد له به، فانتضى سيفه، ووقف وسط الدار وأخذ يقول: أيها المغترّ بنا! المجترىء علينا! بئس والله ما اخترت لنفسك: خير قليل، وسيف صقيل، لعاب المنية الذي سمعت به، مشهورةٌ ضربته، لا تُخاف نبوتُه، اخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك. إني والله إن أدْعُ قيسًا إليك لا تقم لها. وما قيس؟! تملأ والله الفضاء خيلاً ورَجْلاً؛ سبحان الله ما أكثرها وأطيبها!! وبينا هو كذلك إذ خرج كلب من باب الدار، فقال: الحمد لله الذي مسخك كلبًا وكفانا حربًا[1].

من أجل هذا كله كانت عقوبة الكذب شديدة، وجزاؤه أليمًا. وأولى مراتب ذلك أنه ممقوت مكروه من كل من حوله، وقد نصَّ القرآن الكريم على لعنه: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١]، وهو خارج عن حظيرة الإيمان: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٥]، بل هو منافق أو فيه خصلة من النفاق كما جاء في الحديث الشريف: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذبَ، وإذا وعدَ أخلفَ، وإذ اؤتُمِنَ خان»[2]، وقد أكَّد الرسول ﷺ هذا المعنى حينما سئل: «أيكون المؤمن جبانًا؟ قال: نعم، قيل: أفيكون بخيلاً؟ قال: نعم، قيل: أفيكون كذابًا؟ قال: لا»[3].

وقال بعض البلغاء: «الصادق مصون جليل، والكاذب مهان ذليل»[4].

---

(١) دُرر وتحف من تراث السلف، محمد علي السراج، دمشق ـ منشورات وزارة الثقافة، ١٩٨٦م، ١/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٢١، رقم ٣٣.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ١٣٥.

(٤) أدب الدنيا والدين، ص ٢٦١.

وقيل في منثور الحكم: «الكذّاب لص، لأن اللص يسرق مالك، والكذاب يسرق عقلك»[1].

ورسم رسول الله ﷺ طريق الصدق وعاقبته، وطريق الكذب وعاقبته بقوله: «إن الصدق يهدي إلى البِرّ، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صِدّيقًا. وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذَّابًا»[2].

والعرب تنبذ الكذب، وتتحاشى صاحبه، وتُعرِّيه من كل فضيلة أو مروءة، أو مكرمة، وقد جاء في أمثالها: «ليس لمَكْذُوب رأي»[3]. وقال الأحنف: «لا مروءة لكذوب، ولا سؤدد لبخيل، ولا ورع لسيِّىء الخُلُق»[4]. وقال العتبي عن أبيه: «لا تتمّ مروءة الرجل إلاَّ بخمس: أن يكون عالمًا، صادقًا، عاقلاً، ذا بيان، مستغنيًا عن الناس»[5].

وكان يقال: «الأذلاء أربعة: النمام، والكذاب، والمدين، والفقير»[6].

وقال قتيبة بن مسلم لبنيه: «لا تطلبوا الحوائج من كذوب، فإنه يقرِّبها وإن كانت بعيدة، ويبعدها وإن كانت قريبة»[7].

وكفى بالكاذب عقوبةً في دنياه أن يُنبذ ويعتزل، وحسبه جزاءً في أخراه أن يعذّب ويبتذل.

---

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٢٦١.
(٢) رواه البخاري، صحيح البخاري ٥/ ٦٩، رقم ٥٧٤٣.
(٣) اللسان (كذب).
(٤) العقد الفريد ٢/ ٢٩٣.
(٥) العقد الفريد ٢/ ٢٩٣.
(٦) عيون الأخبار ٢/ ٢٦.
(٧) المحاسن والمساوىء، ص ٣٩٣.

يحكى أن أعرابيًا سمع ولده يكذب فقال له:

«يا بني عجبت من الكذّاب المشيد بكذبه، وإنما يدلُّ على عيبه، ويتعرض للعقاب من ربه. فالآثام له عادة، والأخبار عنه متضادّة. إن قال حقًّا لم يصدَّقْ، وإن أراد خيرًا لم يوفّقْ، فهو الجاني على نفسه بفعاله، والدالّ على فضيحته بمقاله، فما صحَّ من صدقه نُسب إلى غيره، وما ورد من كذب غيره نسب إليه»[1].

ويروى عن أبـي عمرو بن العلاء أنه قال:

«دخلت على سليمان بن علي فسألني عن شيء فصدقْتُه فلم يعجبْهُ، فخرجت متعجبًا من كساد الصدق عندهم ونَفاقِ الكذب عليهم.

وكان أبو عمرو ينشد بعقب هذا الحديث:

أنِفتُ من الذلِّ عند الملوك ... وإن كرَّموني وإن قرَّبوا
إذا ما صدقتهمُ خِفتُهم ... ويرضَونَ منّي بأن يُكذَبوا[2]

(ج) سبل اجتناب الكذب:

حَرِيٌّ بالعاقل أن يجتنب الكذب لأنه لا يليق به بغض النظر عما ينطوي عليه من مفاسد، وقد جاء في الأمثال العربية: «لو لم يترك العاقلُ الكذب إلاَّ للمُروءة لكان حقيقًا بذلك، فكيف وفيه المأثم والعار؟!»[3].

والكاذب يكذب حين يكذب إما خوفًا من مكروه وإما طمعًا في

---

(١) عيون الأشعار وروائع الأفكار، هشام عبد الرزاق الحمصي، دار الكلم الطيب، دمشق ـ بيروت، ط ٢، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م، ص ٦٤.

(٢) مجالس العلماء، للزجاجي، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، ط ٢، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ص ١٧٩.

(٣) مجمع الأمثال ٢/ ٢١٠.

مرغوب، وهذا الخوف وذاك الطمع أمران يزينهما له عقله القاصر وإدراكه المحدود، ولو أنه علم يقينًا أنه لن يصيبه إلاَّ ما كتبه الله له: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة: ٥١]، وأن ما كان له سوف يأتيه على ضعفه، وما قدَّر لماضغيه أن يمضغاه فسوف يمضغانه ولو كره العالَمون. وأن ما قُدِّرَ له سوف يأتيه على ضعفه، وما قُدِّرَ لغيره لن يناله بقوته. كما نصَّت على ذلك الأحاديث الشريفة، وما أكثرها في هذا الباب، لو أنه أيقن بكل ذلك لاستراح وأراح.

ولا ريب أنَّ ملاك الأمر كله إنما هو الإيمان، فمتى استقر الإيمان في النفس واكتمل لم يحرِّكْها طمعٌ ولا فزع، لأنها تعلم أن كلَّ ما يحيط بها ويكتنفها بقضاء من الله وقدر. وقد جعل الله سبحانه الصدق قرينًا للإيمان والتقوى حيث قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة: ١١٩]، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «تحرّوا الصدق، وإن رأيتم فيه الهلكة، فإن فيه النجاة، وتجنّبوا الكذبَ وإن رأيتم أن فيه النجاة فإن فيه الهلكة»[1].

ومن هنا قال الشاعر:

الصدق في أقوالنا أقوى لنا والكِذْبُ في أفعالنا أفعى لنا

وقال محمود الوراق:

الصدقُ منجاةٌ لأربابه وقربةٌ تدني من الربِّ[2]

(١) الترغيب والترهيب، للمنذري، تحقيق محيي الدين مستو وزملائه، دمشق ــ بيروت ــ دار ابن كثير، ط ٢، ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٦م، ٣/ ٥٥٧، رقم ٤٣١٨.

(٢) ديوان محمود الوراق، تحقيق د. وليد قصّاب، عجمان ــ مؤسسة الفنون، ط ١، ١٤١٢هـ ــ ١٩٩١م، ص ٧٧.

وقال بعض البلغاء: «ليكن مرجعك إلى الحقِّ ومنزعُك إلى الصدق، فالحق أقوى معين، والصدق أفضل قرين»[1].

والصدق من مكارم الأخلاق التي ينبغي أن تزرع في الطفل منذ نعومة أظفاره، فينشأ عليها، ولا يرى بديلاً عنها، ولن يتم له ذلك إلاَّ إذا رأى أقرب الناس إليه من أم وأب وإخوة يصدقون في كل حال من أحوالهم، حتى يصبح الصدق سجية له وعادة لا ينفك عنها، ونعمت العادة الصدق، قال الشاعر:

عَوِّدْ لسانَكَ قولَ الصدقِ تحظ بِهِ ... إن اللســان لمــا عــوَّدت معتــادُ
مـوكَّـلٌ بتقـاضـي مـا سننـتَ لـهُ ... في الخيرِ والشرِّ فانظر كيف ترتادُ[2]

واللسان الصدوق هو خير الألسنة كما يقول أبو العتاهية:

وللنَّاسِ خوضٌ في الكلام وألسُنٌ ... وأقربُها من كلِّ خيرٍ صَدوقُها[3]

وقديمًا قال أرسطاطاليس: «أحسن الكلام ما صدق فيه قائله وانتفع به سامعه»[4].

وقال المهلب بن أبـي صفرة: «ما السيف الصارم بيد الشجاع بأعزَّ له من الصدق»[5].

فإذا علم المرء هذه المزايا للصدق كان حَرِيًّا به أنْ يتحلَّى به ويلزمه، ففيه النجاة، وبه تتحقق له المُروءة، بل تكتمل له الفضائل؛ لأن صاحبه سيترفع عن كل رذيلة، وينأى عن كل خلق ذميم. ولا غرو فقد زهت به

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٢٦٣.
(٢) أدب الدنيا والدين، ص ٢٦٣.
(٣) ديوان أبـي العتاهية، ص ٢٥٥.
(٤) المستطرف في كل فن مستظرف ٢/ ١٤٦.
(٥) المستطرف في كل فن مستظرف ٢/ ١٤٦.

الأشراف منذ القِدَم، وفاخرت به الشعراء الأمم، وما أحسن قول إبراهيم بن هرمة في هذا:

قومٌ لهم شَرَفُ الدنيا وسؤدُدُها صَفَوا على النَّاسِ لم يُخْلَطْ بهم رَنَقُ
إن حاربُوا وضعُوا أو سالَموا رَفَعُوا أو عاقَدُوا ضمنُوا أو حَدَّثوا صدقوا[1]

ثالثًا: الغِيبَة

الغيبة الكلام خلف إنسان مستورٍ بسوء أو بما يغمُّهُ لو سمعه وإن كان فيه، فإن كان صدقًا فهو غِيبة، وإن كان كذبًا فهو البَهْتُ والبُهْتان[2].

وقد حدَّها النَّبـي ﷺ بأنها: «ذكرك أخاك بما يكره»[3]، ونهى عنها ربُّ العزة سبحانه بقوله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ١٢]. فشبَّه صاحبها بآكل لحم الميتة وكفى بذلك شناعةً وفظاعة.

وجاءت الأحاديث الشريفة مترادفة في النهي عنها، والتنفير منها، والوعيد الشديد لمرتكبيها، حسبنا منها هنا قوله ﷺ: «إياكم والغيبةَ فإن الغيبةَ أشدُّ من الزنا، فإنَّ الرجلَ يزني ويتوبُ فيتوبُ اللّـهُ سبحانَهُ عليهِ، وإنَّ صاحبَ الغيبةِ لا يُغْفَرُ لَهُ حتى يَغفرَ لَهُ صاحبُهُ»[4].

---

(١) ديوان ابن هرمة، تحقيق محمد جبار المعيبد، مطبعة الآداب في النجف الأشرف بالعراق، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م، ص ٢٧٠.

(٢) اللسان (غيب).

(٣) رواه مسلم من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه، انظر: صحيح مسلم ٤/ ٢٠٠١، رقم ٢٥٨٩.

(٤) أخرجه ابن أبـي الدنيا في ذم الغيبة، وأبو الشيخ في التوبيخ عن جابر وأبـي سعيد. انظر: كنز العمال ٣/ ٥٨٦ برقم (٨٠٢٦).

وسنتناول الغيبة من الجوانب التالية:

(أ) دوافعها وأسبابها.

(ب) آثارها وجزاؤها.

(ج) سبل اجتنابها.

(أ) دوافعها وأسبابها:

للغيبة دوافع كثيرة أبرزها:

١ ـ **الكراهية وتشفّي الغيظ**: فكثيرًا ما يضمر المغتاب الكره لصاحبه، فينفُثُ كرهه باغتيابه ليشفي غيظه بذلك، دون أن يعلن كراهيته أمامه خوفًا على مصلحة أو طمعًا في مكسب، ظنًّا منه أن ذلك لن يبلغه. فهو يبدي له المحبة في وجهه، ويضمر الغلَّ والحقد في غيبته كالذي قاله هشام بن عبد الملك في أبي وهب:

فأبلغ أبا وهبٍ إذا ما لقيتَهُ ... بأنَّك شرُّ الناس عيبًا لصاحبِ
فتُبدي له بشرًا إذا ما لقيتَهُ ... وتلسعُهُ بالغيبِ لسْعَ العقاربِ[١]

٢ ـ **الحسد لصاحب نِعَم ومكارمَ يثني الناس عليه لأجلها**، فيريد المغتاب زوال تلك النعم والمكارم، ولا يجد سبيلاً إلى ذلك إلاَّ بالانتقاص منه أمام الناس عجزًا منه عن مجاراته أو اللحاق بمكارمه، وحبًّا برفع نفسه بتنقيص غيره. وفي ذلك يقول الإمام علي كرم الله وجهه: «الغيبة جهد العاجز»[٢]، وقد أخذ منه هذا المعنى المتنبي في بيته المشهور:

وأُكبرُ نفسي عن جزاءٍ بغِيبةٍ ... وكلُّ اغتيابٍ جُهدُ من لا له جُهدُ[٣]

---

(١) ربيع الأبرار ٢/ ٤٢٤.

(٢) ربيع الأبرار ٢/ ٤٥١.

(٣) ديوان المتنبي ١/ ٣٧٦.

٣ ـ الهزل واللعب ومجاراة الأصحاب والأقران فيهما، وهذا أمر يقع فيه كثير من الناس تزجيةً للوقت وابتغاءً للتسلية والضحك بعرض صور لأناس يعرفونهم يتتبعون فيها عثراتهم وسقطاتهم، وقد ينالون من أعراضهم، ويبالغون في عرضها عرضًا ساخرًا يثير الضحك، وقلَّما تجد من ينكر عليهم ذلك من أفراد المجلس، مجاملةً لهم، وإبقاءً على مودتهم وحسن معشرهم، وقد يستمرىء أحدهم ذلك فلا يطيب له مجلس يخلو من الغيبة، وهو إن لم يشارك بلسانه راق له أن يشارك بسمعه.

حكى ابن قتيبة أن عتبة بن عبد الرحمن كان يغتاب الناس ولا يصبر، ثم ترك ذلك، فقيل له: أتركتها؟ قال: نعم، على أني والله أحب أن أسمعها!»[1].

٤ ـ الانغماس في العيوب والرذائل والرغبة في صرف نظر الناس عما يعرف له من عيوب ورذائل، وذلك بنسبة هذه العيوب إلى من يحترمه الناس ويجلّونه، فإذا علموا هذا خفَّ إنكارهم عليه بظنِّه، ولم يدر أن اغتياب المرء غيره يدل على عيبه، وفي ذلك قيل: من وجدتموه عيَّابًا وجدتموه معيبًا لأنه يعيب الناس بفضل عيبه. وقال الشاعر:

ويأخذُ عيبَ المرءِ من عيبِ نفسِهِ   مرادٌ لعمري ما أراد قريبُ

وقال أبو العيناء: «ما قطعني أحد كما قطعني المهدي، فإنه قال: بلغني أنك تغتاب الناس! فقلت له: يبطل ما قيل فيَّ شغلي بعيبي، فقال: والله ذاك أشدُّ لغيظك على أهل العافية. أعرفُ الناس بعوار الناس المعور»[2]. وفي ذلك يقول الشاعر:

---

(١) عيون الأخبار ٢/ ١٥.

(٢) محاضرات الأدباء ٢/ ٣٩٨.

وأجـرأُ مـن رأيـتُ بظهـرِ غيـبِ   على عيب الرجال ذوو العيوبِ

وأنشد ابن الأعرابي:

اسكُـتْ ولا تنطـقْ فـأنـتَ خيّـابْ   كلُّـك ذو عيـبٍ وأنـتَ عيّـابْ

وأنشد أيضًا:

ربَّ غـريـبٍ نـاصـحِ الجيـبِ   وابـن أبٍ متّهـم الغيـبِ
وكـل عيّـابٍ لـه منظـرٌ   مشتمـلُ الثـوبِ علـى العيـبِ[1]

وحكى الزمخشري في هذا قول الشاعر:

ومطـروفـةٍ عينـاهُ فـي عيـبِ نفسِـهِ   فإنْ بانَ عيبٌ من أخيهِ تبصّرا[2]

هذه أهم أسباب الغيبة، على أن من ورائها أسبابًا أخرى أقل أهمية بسط الكلام عليها الإمام الغزالي في كتابه الإحياء[3]، ولا يتسع المجال هنا لسردها.

(ب) آثارها وجزاؤها:

الغيبـة تـورث التنـازع والكـراهيـة والحقـد، وتقطـع أواصـر الأخـوة والصداقة، وتمحو المحبة والأُلفة، وتنذر بتفكك المجتمع، واستباحة حرماته، والخوض في أعراضه. وهي خيانة للأمانة التي حملها الإنسان، ولذلك قالوا: «الورع في المنطق أشدُّ منه في الذهب والفضَّة، لأنك إن استودعك أخوك مالاً لم تحدِّثْكَ نفسُك بخيانة، وأنت تغتابه ولا تبالي».

وسمع علي بن الحسين رجلاً يغتاب فقال: ويحك، إياك والغيبة فإنها

---

(١) عيون الأخبار ٢/ ١٥.

(٢) ربيع الأبرار ٢/ ٤٣٥.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ١٤٦ ـ ١٤٨.

إدام كلابِ الناس، من كفَّ عن أعراض الناس أقال الله عثرته يوم القيامة[1].

من أجل هذا كله كانت الغيبة من الكبائر في الإسلام، ونزل بشأن مرتكبها أشدُّ الوعيد، من ذلك ما رواه البراء حيث قال: «خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتهنّ فقال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته»[2].

ولعل من أعظم ما يصور خطر الغيبة وسوء أثرها ما قاله النبي ﷺ لعائشة حين قالت له: «حسبك من صفية كذا وكذا» ــ تعني قصيرة ــ فقال: «لقد قلتِ كلمةً لو مُزِجَتْ بماءِ البحرِ لمزجتْهُ»، أي خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه لكثرة نَتَنِها[3].

ويحكى أن رجلاً اغتاب رجلاً عند قتيبة بن مسلم فقال له قتيبة: «أَمْسِكْ عليكَ أيُّها الرجل، فوالله لقد تَلَمَّظْتَ بمُضغةٍ لفظها الكرام»[4].

ولما رجم رسول الله ﷺ ماعزًا في الزنا قال رجل لصاحبه: «هذا أقعص كما يقعص الكلب، فمر عليه ﷺ بجيفة فقال: «انهشا منها»، فقالا: يا رسول الله ننهش جيفة؟ فقال: ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه»[5].

---

(١) ربيع الأبرار ٢/ ٤٣٦.

(٢) رواه أبو داود من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله تعالى عنه، انظر: صحيح سنن أبي داود ٣/ ٩٢٣، رقم ٤٠٨٤.

(٣) رواه أبو داود من حديث عائشة، انظر: صحيح سنن أبي داود ٣/ ٩٢٣، رقم ٤٠٨٠.

(٤) العقد الفريد ٢/ ٣٣٥.

(٥) رواه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، انظر: إحياء علوم الدين ٣/ ١٤٢ ــ ١٤٣.

وبالمقابل يبيِّن حديث المعراج هولَ عذابِ المغتاب إذ يقول النبي ﷺ: «لما عُرِج بي إلى السماء مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»(1).

(ج) سبل اجتنابها:

خير سبيل إلى اجتناب الغيبة القضاء على مسبباتها والدوافع التي تؤدي إليها وقد مضى ذكرها، وقبل أن نخوض في وسائل توقِّيها لا بد لنا أن نشير إلى أن أنجع سبل الوقاية منها إنما هو تقوى الله، فمن اتقى الله التزم بأوامره وانتهى عن نواهيه، وإلاَّ تعرض لسخطه وغضبه، وباء بخِزْيِهِ وعذابه، ولا ريب أن الغيبة تأتي في المقدمة من النواهي التي نهى عنها رب العزة جلَّ وعلا بنص الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢].

وإذا علم المرء أيضًا أن الغيبة محبطةٌ لحسناته يوم القيامة، إذ تنقل هذه الحسنات إلى من اغتابه بدلاً عما استباحه من عرضه، فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، إذا علم المرء هذا تريث كثيرًا قبل أن يلمَّ بأي غيبةٍ، وأقلع في الحال عنها وعاهد نفسه ألا يعود إليها.

روي أن رجلاً قال للحسن: بلغني أنك تغتابني، فقال: ما بلغ من قدرك عندي أن أحكِّمكَ في حسناتي(2).

وقيل لعمرو بن عبيد: لقد وقع فيكَ اليوم أبو أيوب السَّخْتياني حتى رحمناكَ، قال: إياهُ فارحَمُوا(3).

---

(١) رواه أبو داود من حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، انظر: صحيح سنن أبي داود ٣/ ٩٢٣، رقم ٤٠٨٢.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ١٤٨.

(٣) العقد الفريد ٢/ ٣٣٦.

وفيما يلي أبرز سبل الوقاية من الغيبة:

١ ــ التحلّي بالمحبة والمودة والترفع عن الغلّ والحقد والغضب والحسد، فإن من شأن المحبة أن تذهب غيظ الإنسان وتدفع عن نفسه الكراهية، وتشيع روح التفاهم والودّ بين الناس. ولا يقع في الغلّ والحقد والحسد إلاّ صغار النفوس، أما كبارها فإنهم أرفع من ذلك، قال فارس الجاهلية عنترة:

لا يحمل الحقدَ من تعلو به الرُّتَبُ ... ولا ينالُ العُلا مَنْ طبعُهُ الغضبُ[1]

ومن ثم كان المجتمع المثالي هو الذي يقوم على عواطف الحب المشترك، والودِّ الشائع، والتعاون المتبادل، والمجاملة الرقيقة، لا مكان فيه لحقد ولا لغلّ. وأفراده كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

٢ ــ إصلاح النفس والتفكر بعيوبها قبل التفكر بعيوب الآخرين، فما من إنسان يخلو من عيب، ولله درُّ الإمام الشافعي إذ يقول:

إذا رُمْتَ أن تحيا سليمًا من الأذى ... ودينُكَ موفورٌ وعِرضُكَ صَيِّنُ

فلا ينطقَنْ منك اللسان بسَوْءَةٍ ... فكلك سَوءاتٌ وللناس أعينُ

وعاشرْ بمعروفٍ وسامحْ من اعتدى ... ودافعْ ولكنْ بالتي هي أحسنُ[2]

والإنسان محاسب على ذنوبه لا على ذنوب الآخرين، لذا كان شغله بها أولى من شغله بالآخرين، كما قال الشاعر:

لك الخيرُ لُمْ نفسًا عليك ذنوبُها ... ودع لوم نفس ما عليك تُليمُ

---

(١) ديوان عنترة، بيروت ــ دار صادر، ط ٢ ١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م، ص ٩٢.

(٢) ديوان الشافعي، ص ١٠١.

وكيفَ ترى في عينِ صاحبِكَ القذى ويخفى قذى عينيكَ وهو عظيمُ[1]

وكلٌّ من عرضت له الغيبة إن هو تفكّر بعيوب نفسه استحيا أن يعيب وهو معيب كما قال بعضهم:

فإن عِبْتَ قومًا بالذي فيكَ مثلُهُ فكيفَ يعيبُ الناس مَنْ هو أعورُ
وإن عِبْت قومًا بالذي ليسَ فيهمُ فذلكَ عندَ اللّٰهِ والنَّاسِ أكبرُ[2]

وليعلم المغتاب أن ما رآه من عيوب الناس، سوف يراه الناس فيه، وبقدر ما يهتك من مساوي الناس سيهتكون من مساويه، بل قد يرمونه بما ليس فيه، وقديمًا قيل: من رمى الناس بما فيهم رموه بما ليس فيه، وقيل: بحثك عن عيوب الناس يدعو إلى بحثهم عن عيوبك[3].

ويروى أن رجلاً عابَ رجلاً عند بعض الأشراف، فقال له: قد استدللت على كثرة عيوبك بما تكثر من عيوب الناس، لأن طالب العيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها، أما سمعت قول الشاعر:

لا تهتكَنْ من مساوي الناسِ ما سترُوا فيهتكَ اللّٰهُ سَترًا من مساويكا
واذكر محاسنَ ما فيهم إذا ذكروا ولا تعِبْ أحدًا منهم بما فيكا

ومما ينسب إلى أبي الأسود الدؤلي في هذا الباب قوله:

لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثلَهُ عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ
ابدأ بنفسِكَ فانهَها عن غيِّها فإذا انتهَتْ عنْهُ فأنتَ حكيمُ[4]

---

(١) عيون الأخبار ٣/ ١٩.

(٢) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط وشعيب الأرنؤوط، دمشق ـ مكتبة دار البيان، ص ١٧١ ـ ١٧٢.

(٣) العقد الفريد ٢/ ٣٣٥.

(٤) محاضرات الأدباء ٢/ ٣٩٩.

وما أحسن قولَ الآخر:

وإن تجـدْ عيبّـا فسُـدَّ الخَلَـلاَ   فجـلَّ مَـنْ لا عيـبَ فيـهِ وعَـلا

٣ ـ عدم مجالسة رفقاء السوء، والترفع عن الخوض معهم في أحاديثهم، بل ينبغي الترفع عن سماع كلامهم في الغيبة وما يجري مجراها، قال عمرو بن عبيد لرجل يستمع إلى آخر يغتاب: ويلك نزِّه أذنك عن استماع الخنا كما تنزّه لسانك عن النطق به.

وقال الشاعر:

وسمعَك صُنْ عن سَماعِ القبيحْ   كصـونِ اللسـانِ عـن النطـقِ بِـهْ

وقال آخر:

والسـامـعُ الـذمَّ شـريـكٌ لَـهُ   والمطعـم المـأكـول كـالآكـلِ(١)

وما أجمل ما قال الشَّاعر يصف ترفُّعه عن الغيبة:

ولسـت بـذي نيـربٍ فـي الكـرام   ومنّـاعَ خيـرٍ وسَبَّـابَهـا
ولا مَـنْ إذا كـان فـي جـانـبٍ   أضـاعَ العشيـرةَ واغتـابَهـا
ولكـنْ أطـاوعُ سـاداتِهـا   ولا أتعلّـمُ ألقـابَهـا(٢)

وفي جلساء الخير مندوحة للمرء عن جُلساء السوء، فأولئك يأخذون بيده نحو الخير ويسمع منهم كلَّ مفيدٍ وممتع، وهؤلاء يجرونه نحو الشر ولا يسمع منهم إلاَّ السوء والفحش والغيبة. استمع إلى كُشاجِمُ يصف جليسه فيقول:

جليـس لـي أخـي ثقـةٍ   كـأنَّ حـديثـهُ خبَـرهْ
يَسُـرُّكَ حسـنُ ظـاهـرِهِ   وتحمـدُ منـه مُحتَضَـرَهْ

---

(١) محاضرات الأدباء ٢/ ٣٩٩.

(٢) عيون الأخبار ٢/ ١٦.

ويستـــرُ عيـــبَ صـــاحِبِـــهِ   ويستـــر أنـــه سَتَـــرَهْ[1]

وإذا لم يجد المرء إلاَّ جلساء السوء فليعتزلْهم وليجالسِ الكتابَ فهو خير جليس، يُؤمَنُ مشهدُهُ وغيبَتُهُ، ويُفيدُ منه علمًا وأدبًا وعقلاً ورَشَدًا. ولعل في هذا الخبر خير دليل على ذلك:

حدث أحمد بن عمران قال: كنت عند أبـي أيوب أحمد بن محمد بن شجاع، وقد تخلَّف في منزله، فبعث غلامًا من غلمانه إلى أبـي عبد الله بن الأعرابـي صاحب الغريب، يسأله المجيء إليه، فعاد إليه الغلام فقال: قد سألته ذلك فقال لي: عندي قوم من الأعراب، فإذا قضيت أربـي معهم أتيت، قال الغلام: وما رأيت عنده أحدًا، إلاَّ أنَّ بين يديه كتبًا ينظر فيها، فينظر في هذا مرةً وفي هذا مرَّة، ثم ما شعرنا حتى جاء فقال له أبو أيوب: يا أبا عبد الله، سبحان الله العظيم! تخلَّفت عنا، وحرمتنا الأنس بك، ولقد قال لي الغلام: إنه ما رأى عندك أحدًا، وقد قلت له: إنا مع قوم من الأعراب، فإذا قضيتُ أربـي معهم أتيت، فقال:

لنـا جلسـاءُ مـا نمَـلُّ حـديثَهـم   ألبّـاءُ مـأمـونـونَ غيبًـا ومشهـدا
يُفيدونَنا من علمهم علمَ ما مضى   وعقـلاً وتـأديبًـا ورأيًـا مُسَـدَّدا
بـلا فتنـةٍ تُخشـى ولا سـوءِ عشـرةٍ   ولا نتَّقـي منهـم لسـانًـا ولا يـدا
فإن قلتُ أمواتٌ فلستُ بكاذبٍ   وإن قلتُ أحياء فلستُ مفنّدا»[2]

وقال إبراهيم النَّخَعي: «إن الرجل ليجلس مع القوم فيتكلم بالكلام

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، للقرطبـي، تحقيق محمد مرسي الخولي، بيروت ـ دار الكتب العلمية، مجلدان، ط ٢، ١٩٨١م، ١/ ٤٥.

(٢) طبقات النحويين واللغويين، للزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط ٢، ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

يريد الله به، فتصيبه الرحمة فتعمّ من حوله، وإن الرجل يجلس مع القوم فيتكلم بالكلام يسخط الله به، فتصيبه السَّخْطَةُ فتعمُّ من حوله»[1].

وبعد، فالسعيد من الناس من ترفَّع عن الغيبة واتبع سبل النجاة منها، والشقي من انغمس فيها وغرَّه ما قد يجد من حلاوتها المخترعة وزينتها المصطنعة. ورحم الله الشاعر إذ يقول:

لخليلـي علـيَّ منّـي ثـلاث ... واجبـاتٌ أُبيحها إخـواني
حفظهُ في المغيب إن غابَ عنّي ... ولقـاه بـالبشـر إن لاقـاني
ثـم بـذلـي لمـا حـوتـه يميني ... مسعدًا في الخطوب أنّى دعاني
هـذه عـادةُ الصـديـق فـإن خـا ... نَ فعنـدي عـوائـدُ الإحسـانِ[2]

رابعًا: النميمة

النَّمُّ: التوريش والإغراء ورفع الحديث على وجه الإشاعة والإفساد[3]. وتطلق النميمة في الغالب على نقل قول إنسان في إنسان، وليست مخصوصة بهذا، بل حدُّها: كشف ما يكره كشفه سواء كان من الأقوال أو الأعمال[4].

فالنميمة إذًا هي السعي بين الناس بالإفساد لتحريض الناس بعضهم على بعض والإيقاع بينهم وشحن قلوبهم بالعداء والضغينة[5].

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس ١/ ٥٠.

(٢) أنس المسجون وراحة المحزون، لعيسى ابن البحتري الحلبي، تحقيق محمد أديب الجادر، دار البشائر، دمشق، ط ١، ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٧م، ص ٢١٦.

(٣) اللسان (نمّ).

(٤) مختصر منهاج القاصدين، ص ١٧٤.

(٥) الأخلاق الإسلامية وأسسها، د. عبد الرحمن حبنكة، دمشق ــ دار القلم، ط ٣، ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٢م، ٢/ ٢٤٦.

ودوافع النميمة هي دوافع الغيبة ذاتها بالإضافة إلى ابتغاء الفتنة وإرادة إشعال نيران الشرور بين الناس، والتفريق بين الأصدقاء والخلان والإخوان، وإثارة القلاقل والحروب والثورات. ولذا لن نعيد القول في الدوافع هنا وإنما سنقصره على جانبين هما:

(أ) أثر النميمة وجزاؤها.

(ب) ما يجب في ردها والحدّ منها.

(أ) أثر النميمة وجزاؤها:

قيل: «النمام سهم قاتل»، وحقٌّ ما قيل، فللنميمة أثر سيِّىء بالغ في الأفراد والمجتمع، بل قد يتعدى المجتمع الواحد إلى غيره من المجتمعات بالحروب والفتن والويلات، ولعل في الخبر التالي ما يجلو هذا الأثر ويصوره أبلغ تصوير:

يُحكى أن رجلاً باع آخر عبدًا وقال له: ما فيه عيب إلاَّ النميمة، فقال المشتري: رضيت، ومكث الغلام أيامًا ثم قال لزوجة مولاه: إنَّ سيدي لا يحبك وهو يريد أن يتسرَّى عليك، فخذي الموسى واحلقي من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها فيحبك، ثم قال للزوج: إن امرأتك اتخذت خليلاً وتريد أن تقتلك، فتناوم لها حتى تعرف ذلك، فتناوم لها فجاءت المرأة بالموسى فظن أنها تريد قتله، فقام إليها فقتلها، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج، ووقع القتال بين القبيلتين[1].

وروى وكيع عن أبيه عن عطاء بن السائب قال: قدمت من مكة فلقيني الشعبـي فقال: يا أبا زيد أطرِفْنا مما سمعت، قلت: سمعت عبد الرحمن بن عبد الله بن سابِط يقول: لا يسكن مكةَ سافكُ دمٍ، ولا آكلُ ربًا، ولا مشَّاء

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ١٥٨.

بنميم. فعجبتُ منه حين عَدَلَ النميمة بسفك الدماء وأكل الربا، فقال الشعبي: وما يعجبكَ من هذا؟! وهل تُسفك الدماء وتُركَبُ العظائم إلاَّ بالنميمة[1].

وحسب النميمة أنها تبعث على الكراهية، والكراهية تؤدي إلى الغلّ، والغل يوري نار الحقد، ونار الحقد لا تخبو. حسب النميمة هذا حتى تكون من شر الأعمال وأسوأ الأخلاق.

قال ابن قتيبة: «قرأت في كتاب للهند: قلما يُمنَعُ القلبُ من القول إذا تردَّدَ عليه، فإن الماءَ ألينُ من القول والحجر أصلب من القلب، وإذا انحدر عليه وطال ذلك أثَّرَ فيه، وقد تُقطعُ الشجرةُ بالفؤوس فتَنبُتُ ويُقطعُ اللحم بالسيوفِ فيندمِلُ، واللسانُ لا يندملُ جرحُهُ، والنُّصُولُ تغيب في الجوف فتُنْزَعُ، والقولُ إذا وصل إلى القلب لم يُنْزَعْ، ولكلِّ حريق مطفِىءٌ: للنَّار الماءُ، وللسمِّ الدواءُ، وللحزن الصبرُ، وللعِشْقِ الفُرقةُ، ونارُ الحقدِ لا تَخْبُو»[2].

من أجل هذا كله عُدَّت النميمة من أسوأ الأخلاق، وعُدَّ صاحبها من شرار الناس، قال ﷺ: «ألا أخبركم بشراركم؟ المشاؤون بالنميمة»[3]، وهو ملعون بنص الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «لعن الله المثلِّث: فقيل: يا رسول الله ومن المثلِّث؟ فقال الذي يسعى بصاحبه إلى سلطانه فيُهلك نفسَهُ وصاحبَه وسلطانه»[4]، بل إن النبي ﷺ يحرم عليه الجنة بقوله: «لا يدخل

(١) عيون الأخبار ٢/ ٢٠.
(٢) عيون الأخبار ٢/ ٢٢.
(٣) رواه أحمد. انظر: شرح عين العلم وزين الحلم، للقاري، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١/ ٤٨٤.
(٤) الكامل ٢/ ٨٨٥.

الجنة نمَّام»[1]. وفي رواية: «لا يدخل الجنة قتَّات»[2]. وقد جاء في شرح العلامة فضل الله الجيلاني لهذا الحديث: «النمام: قال الحافظ: النمام الذي يحضر القصة فينقلها، زاد في مجمع البحار: على جهة الفساد والشر من باب نصر وضرب. والقتَّات الذي يتسمع من حيث لا يُعلم به، ثم ينقلُ ما سمعه. زاد في مجمع البحار: أي يُظهره بالوشاية ويرفعه إلى الناس على وجه الإشاعة والفساد، وقَتَّ الحديث: زوَّره وهيَّأه»[3].

والنميمة من الكبائر التي يعجِّل الله لصاحبها العقوبة في قبره، قبل تمامها في آخرته، يؤكد ذلك الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرَّ رسول الله ﷺ على قبرين، فقال: «يُعذَّبان، وما يعذَّبان في كبير، وإنه لكبير، كان أحدهما لا يستَتِرُ من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة»، ثم دعا بجريدة فكسرها بكسرتينِ أو ثنتين فجعل كِسرةً في قبر هذا، وكِسْرَةً في قبر هذا، ثم قال: «لعله يخفَّفُ عنهما ما لم ييبسا»[4].

وقد تظاهرت الدلائل الشرعية من الكتاب والسنَّة على تحريم النميمة. قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝﴾ [القلم: ١٠ ـ ١١]، وقال أيضًا: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝﴾ [الهمزة: ١]، والهُمَزَة: النمام.

وقال ﷺ: «أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقًا الموطؤون أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون وإن أبغضكم إلى الله المشاؤون بالنميمة

(١) رواه مسلم، صحيح مسلم ١/ ١٠١، رقم ١٦٨.
(٢) رواه مسلم، صحيح مسلم ١/ ١٠١، رقم ١٦٩، والبخاري في الأدب المفرد.
(٣) فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد، للجيلاني، المكتبة الإسلامية، حمص ـ سوريا، ١/ ٤١٠.
(٤) صحيح البخاري، باب النميمة من الكبائر ٥/ ٢٢٥٠، رقم ٥٧٨.

المفرقون بين الإخوان، الملتمسون للبرآء العثرات»[1].

(ب) ما يجب في ردِّها والحدِّ منها:

ثمة أمور ينبغي أن يتبعها من نمي إليه شيء عن أخيه أو صاحبه، ففي اتباعها كفٌّ للأذىٰ وقطع لدابر الفتنة وإرغام للنمَّام على الإقلاع عما ارتكبه من إثم، وهذه الأمور هي:

١ ـ عدم تصديق من نمَّ، لأن النمام فاسق مردود الشهادة، والله سبحانه يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات: ٦]. والنمام لا ينفك عن الكذب والغيبة والغدر والخيانة وهو أبعد الناس عن أن يكون محلاً للثقة. قال معاوية للأحنف في شيء بلغه عنه فأنكر الأحنف، فقال له معاوية: بلَّغني عنك الثقة، فقال الأحنف: إن الثقة لا يبلِّغ»[2]، وما أحسن ما قال الشاعر في هذا:

لا تقبلَنَّ نميمة بُلِّغتَها ... وتحفَّظَنَّ من الذي أنباكها
إنَّ الذي ألقى إليك نميمةً ... سينمّ عنك بمثلها قد حاكها[3]

٢ ـ أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله، قال الله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [لقمان: ١٧]. وروي أن رجلاً ذكر لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه رجلاً بشيء، فقال عمر: إن شئت نظرنا في أمرنا، فإن كنت كاذبًا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ٦]، وإن كنت صادقًا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿ هَمَّازٖ

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط والصغير، انظر: إحياء علوم الدين ٣/ ١٥٥.
(٢) الكامل ٢/ ٨٨٥.
(٣) عيون الأشعار وروائع الأفكار، ص ٢٢٥.

مَّشَّآءِ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ [القلم: ١١]. وإن شئت عفونا عنك، فقال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبدًا[١].

٣ ـ أن يبغضه في الله تعالى لأنه بغيض إلى الله سبحانه، يروى أنَّه ذُكِرَ السُّعاة عند المأمون، فقال له رجل ممَّن حضر: يا أمير المؤمنين، لو لم يكن من عيبهم إلاَّ أنهم أصدق ما يكونون أبغض ما يكونون إلى الله لكفاهم[٢]، وما أصدق ما قال عبدة بن الطبيب:

واعصوا الذي يُسدي النميمة بينكم	متنصِّحًا وهو السِّمام المُنقَعُ
يزجي عقاربه ليبعث بينكم	حربًا كما بعث العُروقَ الأخدعُ
حرَّان لا يشفي غليلَ فؤادِهِ	عَسَلٌ بماءٍ في الإناءِ مشعشَعُ
لا تأمنوا قومًا يشب صَبيُّهم	بين القبائل بالعداوةِ يُنسعُ
إن الذين ترونَهم خُلاَّنكم	يشفي صداعَ رؤوسِهِم أن تُصرعُوا
فَضَلَتْ عداوتُهم على أحلامِهم	وأبَتْ ضَبابُ صدرِهم لا تُنزعُ
قومٌ إذا دَمَسَ الظلامُ عليهمُ	حَدَجوا قَنافذَ بالنميمة تُمزَعُ[٣]

ثم إن المبلِّغ بسوء عن أخ لم يطلب إليه ذلك التبليغ هو القمين بالسوء، ولو كان ينطوي على محبة لمن بلغه لسكت عن تبليغه وسلك سبل التوفيق والمصالحة بين الإخوة لا الإفساد والوشاية والسعاية بالسوء، وفي هذا يقول صالح بن عبد القدوس:

من يُخَبِّرْكَ بشَتمٍ عن أخٍ	فهُوَ الشاتمُ لا من شَتَمَكْ
ذاكَ شيءٌ لم يواجِهْكَ بِهِ	إنَّما اللومُ على مَنْ أَعْلَمَكْ[٤]

---

(١) الأذكار، ص ٣٩٠.

(٢) عيون الأخبار ٢/ ٢٠.

(٣) عيون الأخبار ٢/ ٢١.

(٤) المستطرف في كل فن مستظرف ١/ ٢٨١.

٤ ـ ألا يظن بأخيه الغائب السوء، لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ ﴾ [الحجرات: ١٢]، فالصداقة أغلى وأثمن من أن تضيع بسبب وشاية أو نميمة، يقول الشاعر:

إذا الواشي نعى يومًا صديقًا فلا تَدَعِ الصَّديقَ لقولِ واشي[١]

والذي يُمكّن الوشاة من أذنيه فيصدقُهم يمكن أن يفرِّط في كثيرٍ من صداقاته، بل سيغدو يومًا فردًا لا صاحبَ له كما قال الأعشى:

ومَنْ يُطِعِ الواشينَ لا يترُكُوا لَهُ صديقًا وإنْ كانَ الحبيبَ المُقَرَّبا[٢]

فالكيِّس الفطن من لا يصدِّق أهل النميمة والوشاية كالذي قاله أبو العلاء:

أعندي وقد مارستُ كلَّ خفيَّةٍ يُصَدِّقُ واشٍ أو يخيَّبُ سائلُ[٣]

٥ ـ ألا يحملَه ما حكي له على التجسُّس والبحث عن تحقق ذلك لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ [الحجرات: ١٢]. يحكى أن بعض السعاة رفع إلى الصاحب بن عبادٍ رقعة نبَّه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته، فوقَّع على ظهرها: السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة، فإن كنت أجريتها مُجرى النصح فخسرانك فيها أفضل من الربح، ومعاذ الله أن نقبل مهتوكًا في ستر، ولولا أنك في خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك في مثلك، فتَوَقَّ يا ملعون العيب

---

(١) عيون الأخبار ٢/ ٢٠.

(٢) ديوان الأعشى الكبير، تحقيق د. محمد أحمد قاسم، بيروت، المكتب الإسلامي، ط ١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م، ص ٦٤.

(٣) ديوان سَقْط الزَّند، للمعري، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، بيروت، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط ١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م، ص ٢٢٧.

فإن الله أعلم بالغيب، الميت رحمه الله، واليتيم جبره الله، والمال ثمَّره الله، والساعي لعنه الله».

وسعى رجل بزياد الأعجم إلى سليمان بن عبد الملك، فجمع بينهما للموافقة، فأقبل زياد على الرجل وقال:

فأنت امرؤٌ إما ائتمنتك خاليًا فخنت وإما قلت قولاً بلا علم
فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الخيانةِ والإثمِ[1]

٦ ـ ألاَّ يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه فلا يحكي نميمته، وليعتقد أن من نمَّ له نمَّ عليه.

ذكر أن حكيمًا من الحكماء زاره بعض إخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه فقال له الحكيم: قد أبطأت في الزيارة وأتيت بثلاث جنايات: بغَّضت أخي إلي، وشغلت قلبي الفارغ، واتهمت نفسك الأمينة.

وقال الحسن البصري: «من نمَّ إليك نمَّ عليك، ومن نقل إليك حديثًا فاعلم أنه ينقل إلى غيرك حديثك»[2].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أحابيل الشيطان قد تزيِّن للمرء أمرًا توهمه أن به النجاة من إثم لتوقعه في إثم أسوأ منه. وفي ذلك يحكى أن رَقَبة بن مَصْقلة كان جالسًا مع أصحابه فذكروا رجلاً بشيء، فاطَّلع ذلك الرجل، فقال له بعض أصحابه: ألا أُخبره بما قلنا فيه لئلا تكون غيبة؟ قال: أخبره حتى تكون نميمة[3].

---

(١) الإحياء ٣/ ١٥٧.
(٢) الإحياء ٣/ ١٥٦.
(٣) العقد الفريد ٢/ ٣٣٤.

ولا ريب أن النميمة صنو الغيبة في الإثم إن لم تكن أسوأ منها وأشدَّ خطرًا. وخطرها يعظم بعلو مقام سامعها، ولذلك كان أخطرها على الإطلاق ما جرى في حضرة السلطان وأولي الأمر.

دخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه في الكلام وقال: إني مكلِّمكَ يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله أن كرهته فإن وراءه ما تحبَّ إن قبلته. فقال: قل، فقال: يا أمير المؤمنين إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، ولا تصغ إليهم فيما استحفظك الله إياه، فإنهم لن يألوا في الأمة خسفًا وفي الأمانة تضييعًا والأعراض قطعًا وانتهاكًا، أعلى قربهم البغي والنميمة، وأجلَّ وسائلهم الغيبة والوقيعة، وأنت مسؤول عما أجرموا وليسوا المسؤولين عما أجرمت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس غُبنًا من باع آخرته بدنيا غيره»[1].

خامسًا: اللغو وكثرة الكلام

اللغو: السَّقَط وما لا يعتدُّ به من كلام وغيره ولا يُحصَل منه على فائدة ولا نفع. ولعله مأخوذ من لغو الطير وهو صوتُها، والطير تلغى بأصواتها أي تَنْغَم، ويقال: سمعت لَغْوَ الطائر ولحنَه، وقد لغا يلغو، وقال ثعلبة بن صُعير:

باكـرتُهُـمْ بسبـاءِ جَـوْنٍ ذارِعٍ   قبلَ الصباحِ وقبلَ لَغْـوِ الطـائـرِ[2]

واجتناب اللغو بل الإعراض عنه في مقدمة الصفات التي وصف بها الله

(١) الإحياء ٣/ ١٥٧.

(٢) اللسان (لغو).

سبحانه المؤمنين حيث قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٣].

وعبارة كثرة الكلام يراد بها اللغو نفسه؛ لأن المقصود منها كثرة الكلام فيما لا طائل تحته ولا جدوى منه، مما يدخل في باب اللغو، وهو أمر مرذول وخلق ذميم طالما وردت الأخبار والآثار بالنهي عنه والأمر باجتنابه، حتى لو أدى الأمر إلى لزوم الصمت، فالصمت خير من كثرة الكلام واللغو، وما أحسن ما قال أبو نواس في ذلك:

مُتْ بداءِ الصمتِ خيرٌ ... لكَ مِنْ داءِ الكلامِ
ربَّما استفتحْتَ بالمَزْ ... حِ مغاليقَ الحِمامِ
إنما السالمُ من أَلْـ ... جَمَ فاهُ بلجامِ
والمنايا آكلاتٌ ... شاربـاتٌ للأنامِ[1]

وسنتناول هذا الخلق الذميم من الجوانب التالية:

(أ) أنواعه وأشكاله.

(ب) أثره وجزاؤه.

(ج) سبل اجتنابه والحدِّ منه.

(أ) أنواعه وأشكاله:

للغو أنواع متعددة نقتصر هنا على ذكر أبرزها:

١ ـ **الكلام فيما لا يعنيك**: ومعناه أن تتكلم بكلام لو سكتَّ عنه لم تأثم ولم تُستضرَّ به في حالٍ ولا مالٍ. ومن صوره أن تسأل غيرك عما

(١) ديوان أبي نواس، بيروت ـ دار صادر، ط ٢، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م، ص ٥٧٨.

لا يعنيك، فأنت بالسؤال مضيع وقتك وقد ألجأت صاحبك أيضًا بالجواب إلى التضييع[1].

وقد جاء في الحديث النبوي الشريف:

«من حسنِ إسلامِ المرءِ تركُهُ ما لا يعنيه»[2]. وقيل للقمان الحكيم: ما حكمتك؟ قال: لا أسألَ عما كُفيتُ ولا أتكلَّفُ ما لا يعنيني[3].

وكلام المرء فيما لا يعنيه قد يورده المهالك، ويجلب له البلايا والمصائب، ولعل أدنى ذلك أن يسمع ما لا يرضيه، وأن يهين نفسه ويعرضها لمواقف الحرج والذل، ورحم الله الشاعر إذ يقول:

وأكـرمُ نفسـي إنَّنـي إن أهنتُهـا   وحقِّكَ لم تُكرمْ على أحد بعدي[4]

ولعله مأخوذٌ من قول زهير: ومن لا يكرم نفسَهُ لا يُكَرَّمِ[5].

ولذلك قال الآخر:

لعمـرُكَ مـا شـيء علمـت مكـانَـهُ   أحـقُّ بِسَجْـن مـن لسـانٍ مُـذَلَّـلِ
على فيكَ مما ليس يعنيكَ قولُهُ   بقفلٍ شديدٍ حيثما كنتَ فاقفلِ[6]

٢ ــ **فضول الكلام وكثرته**: ولعل خير ما يجلوه كلمة عطاء بن أبي رباح التي يقول فيها: «إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام

---

(١) الإحياء ٣/ ١١٣.

(٢) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، انظر: الجامع الصحيح ٤/٥٥٨، رقم ٢٣١٧.

(٣) الصمت وآداب اللسان، ص ٩٠.

(٤) أنس المسجون وراحة المحزون ١٩١.

(٥) شرح ديوان زهير، شرح وتعليق د. أحمد طلعت، مؤسسة دار البيان ــ دار القاموس الحديث ــ بيروت، ط ٢، ١٩٧٠م، ص ٣٤.

(٦) المحاسن والمساوىء ٢/ ٩٥.

وكانوا يعدُّون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها، أتنكرون أن عليكم حافظين كرامًا كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلاَّ لديه رقيب عتيد، أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه[1].

وقد قال الله سبحانه: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ [النساء: ١١٤]، وقال ﷺ: «طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله»[2]، وقالت الحكماء: «خير الكلام ما أغنى اختصاره عن إكثاره»[3].

وقال الشاعر:

أقلِلْ كلامَكَ واستعِذْ من شرِّهِ ... إنَّ البلاءَ ببعضِهِ مقرونُ[4]

٣ ـ **الخوض في الباطل**: وهو الكلام في المعاصي والمآثم كذكر أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفسّاق[5] وما إلى ذلك، وإليه الإشارة في قوله تعالى حكايةً عن لسان المجرمين الآثمين المعذَّبين في سَقَر: ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ ﴾ [المدثر: ٤٥]، وقد أمر سبحانه أن يعتزل المجلس الذي يخوض أصحابه في الباطل وذلك حيث يقول:

---

(١) الإحياء ٣/ ١١٤.

(٢) قطعة من حديثٍ عن علي رضي الله عنه، انظر: الجامع الكبير، مخطوط دار الكتب المصرية، مجلدان ٢/ ٦٥. وانظر أيضًا: شرح عين العلم ١/ ٤٥٢.

(٣) الكامل ٢/ ٨٨٢.

(٤) محاضرات الأدباء ١/ ٦٨.

(٥) الإحياء ٣/ ١١٥.

﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٠].

وبيَّن في موطن آخر أن ما يحسبه الناس من أمر الخوض في أعراض الناس هينًا ليس كذلك عند الله عز وجل: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [النور: ١٥].

وصوَّر لنا رسول الله ﷺ مبلغ الخطر في هذا الخوض إذ قال: «إنَّ أحدَكم ليتكلم بالكلمة من سُخطِ الله ما يظنّ أن تبلغَ ما بلغت فيكتب الله عز وجل عليه بها سُخْطَهُ إلى يوم يلقاهُ»[١].

٤ ـ السؤال عن غوامض الدين ودقائقه مما هو ليس مطلوبًا ولا مندوبًا إليه، كسؤال العوامِّ عن صفات الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة. ومن حقِّهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن والسنة، إلاَّ أن ذلك ثقيل على النفوس والفضول خفيف على القلب[٢].

وقد نهى الله سبحانه عن التسرع بالسؤال فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١]، وبيَّن رسول الله ﷺ خطر ذلك بقوله: «دعوني ما تركتكم، إنَّما أهلَكَ من كان قبلكم سؤالُهم واختلافُهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيءٍ فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم»[٣].

---

(١) رواه ابن ماجه من حديث بلال بن الحارث المزني، انظر: سنن ابن ماجه، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، بيروت ـ دار المعرفة، ط ١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م، ٤/ ٣٤٠، رقم ٣٩٦٩.

(٢) الغزالي، الإحياء ٣/ ١٦٢.

(٣) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٥٨، رقم ٦٨٥٨.

(ب) أثره وجزاؤه:

للغو آثار سلبية في الفرد والمجتمع على حدٍّ سواء، واللاغي إن نجا من بعضها فهو لا شك واقع في بعضها الآخر، فهو لا يأمن إذًا أن يبوء ببعضها أو بها جميعًا.

فمن ذلك كثرة الخطأ والزلل، وفي هذا يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «من كثر كلامه كثر سَقَطُه»، وقال يعقوب عليه السلام لبنيه: «يا بني إذا دخلتم على السلطان فأقلوا الكلام»[١].

وقال بعض الشعراء:

وزِنِ الكلام إذا نطقت فإنّما يبدي عيوبَ ذوي العيوبِ المنطقُ[٢]

ومن ذلك إضاعة الوقت والجهد فيما لا طائل تحته، والوقت أثمن ما يمتلك المرء فإذا أضاعه أضاع عمره، يقول الحسن البصري: «ابنَ آدم إنّما أنتَ أيام كلّما ذهبَ يومٌ ذهبَ بعضُك»، ويقول شوقي:

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثواني[٣]

ومن ذلك كسب الإثم، واجتراح السيئات، وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «إن أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضًا في الباطل»[٤]، ويقول بعض الحكماء: «من كثر كلامه كثرت آثامه»[٥].

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس ١/ ٦٠.

(٢) أدب الدنيا والدين، ص ٢٧٨.

(٣) ديوان الشوقيات ٣/ ١٥٨.

(٤) الصمت وآداب اللسان، ص ٧٣.

(٥) أدب الدنيا والدين، ص ٢٧٨.

من أجل ذلك كله كان جزاء اللغو عسيرًا، وهو معجّل لصاحبه في دنياه قبل آخرته، كيف لا؟ واللاغي عرضة للخطأ والزلل وإضاعة الوقت والجهد واجتراح السيئات! لقد شبّه بعضهم اللسان بالسبع العقور يأكل صاحبه، وفي ذلك يقول الخشَني:

لسان الفتى سبعٌ عليه مراقِبٌ فإن لم يَزَعْ من غَرْبِهِ فهو آكله(١)

ويقول آخر:

رأيتُ اللسانَ على أهلِهِ إذا ساسَهُ الجهلُ ليثًا مُغيرا(٢)

وما أكثر من جنى عليه في الدنيا لسانه، كبشار بن برد والمتنبي ووضّاح اليمن وغيرهم كثير، وفي هذا يقول الشاعر:

يموتُ الفتى من عَثْرةٍ بلسانِهِ وليسَ يُصابُ المرءُ من عَثْرة الرِّجْلِ
وعثرتُهُ من فيهِ تودي برأسِهِ وعثرتُهُ في الرِّجْلِ تَبرى على مَهْلِ(٣)

وفي قصة الشاعر يزيد بن مُفرِّغ عبرة لمن أراد أن يعتبر؛ ذلك أنه كان نديمًا مصاحبًا لعبّاد بن زياد بن أبيه، فخرجا معًا يتنزهان في أمسية هواؤها عليل، فعبث الهواء بلحية عبادِ الطويلة فما كان من يزيد إلاّ أن قال:

ألا ليتَ اللحى كانت حشيشًا فنعلفَها خيولَ المسلمينا

فغضب عليه عبّاد وألقى به في السجن ونكّل به أشدَّ النكال لتلك الكلمة التي قال. ثم أطلقه فقال قصيدته التي منها البيت المشهور:

عَدَسْ ما لعبّادٍ عليكِ إمارةٌ أمنتِ وهذا تحملينَ طليقُ

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس ١/ ٧٩.
(٢) أدب الدنيا والدين، ص ٢٧٨.
(٣) المحاسن والمساوىء ٢/ ٩٢.

فأتى البصرة، وانتقل إلى الشام، وجعل يتنقل ويهجو عبادًا وأباه وأهله، فقبض عليه عبيد الله بن زياد في البصرة وحبسه وأنزل به أشد العذاب وأراد أن يقتله فلم يأذن له معاوية، وقال: أدِّبْهُ، فقيل: إنه أمر به، فسقي مسهِّلاً، وأُركب حمارًا، وطيف به في أسواق البصرة، واتَّسخ ثوبه من المسهل فقال:

يغسلُ الماءُ ما صنعتَ وشِعري   راسخٌ منكَ في العظام البوالي

وقيل: كان ابن المفرّغ يكتب هجاءه لعبّاد على الجدران، فلما ظفر به عبيد الله ألزمه محوه بأظفاره. وطال سجنه، فكلم فيه بعض الناس معاوية، فوجّه بريدًا إلى البصرة بإخراجه، فأطلق[١].

وإذا كان هذا هو عذاب الدنيا فلا ريب أن عذاب الآخرة أشدُّ وأخزى، وما أكثر الآثار التي وردت في جزاء من لا يحفظ لسانه ويخوض في اللغو الباطل مع الخائضين، وحسبنا منها هنا قول الرسول ﷺ: «وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم إلاَّ حصائدُ ألسنتِهم»[٢]، وقوله ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبيَّنُ ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»[٣].

(ج) سبل اجتنابه والحدّ منه:

خير سبيل لاجتناب اللغو وكثرة الكلام الشعور بمسؤولية الكلمة وخطورتها، وتحكيم العقل فيما يقال، ومراقبة الله في السرِّ والعلن، ولعل

---

(١) الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، ط ٥، ١٩٨٠، ٨/ ١٨٣.

(٢) رواه الترمذي من حديث معاذ بن جبل، انظر: رياض الصالحين، تحقيق عبد العزيز رباح وأحمد الدقاق، دمشق ـ دار المأمون، للتراث، ط ٢، ص ٥٧٧.

(٣) رواه مسلم، صحيح مسلم ٤/ ٢٢٩.

كلمة الإمام علي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه هي الحدّ الفصل في ذلك، إذ يقول: «لسان العاقل وراء قلبه وقلب الأحمق وراء لسانه»[1]. وإذا أراد الإنسان أن يتحقق بهذا فلا بد له من اتباع السبل التالية:

١ ـ قلة الكلام: إذا كانت كثرة الكلام مظنة السقوط والخطأ، فقلّته مظنة السلامة والنجاة، يقول الحسن البصري: «رحم الله عبدًا أوجز في كلامه، واقتصر على فصاحته، فإن الله يكره كثرة الكلام»، فخير الكلام ما قلّت ألفاظه وكثرت معانيه، وفي ذلك يقول أحمد بن إسماعيل الكاتب:

خيرُ الكلامِ قليلٌ ... على كثيرٍ دليلُ
والعِيُّ معنًى قصيرٌ ... يحويهِ لفظٌ طويلُ

ويقول منصور الفقيه:

تعمّدْ لحذف فضول الكلام ... إذا ما نأيتَ وعند التداني
ولا تكثرَنَّ فخيرُ الكلام الـ ... قليلُ الحروفِ الكثير المعاني[2]

ولأنْ تؤدي قلة الكلام إلى الصمت خير من أن تؤدي كثرته إلى المعاطب والمهالك، يقول الرسول الكريم ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[3]، فإذا لم يكن الكلام ذا نفع وفائدة وذا خير وعائدة فالصمت أولى وأحسن، قال أحيحة:

والصمتُ خيرٌ للفتى ... ما لم يكنْ عِيٌّ يشينُهْ
والقولُ ذو خطلٍ إذا ... ما لم يكنْ لبٌّ يُعينُهْ[4]

---

(١) نهج البلاغة، ص ٤١٢. وقد تقدمت هذه الكلمة ص ١١٢.
(٢) بهجة المجالس ١/ ٦١.
(٣) متفق عليه، وقد تقدم تخريجه ص ١٣٠.
(٤) البيان والتبيين ٢/ ٢٧٥.

وقال بعض الكلبيين:

واعلم بأن من السكوت إبانَةً ومن التكلم ما يكون خبالا[1]

٢ ـ **الرقابة الصارمة على الكلام**: لا يكفي التقليل من الكلام، فقد يكون مع القليل زلَلٌ وتجاوز إن لم تكن ثمة رقابةٌ على هذا الكلام، وتحكيم للشرع والعرف، ومراقبة لله سبحانه. قال الشاعر:

وصُنِ الكلامَ إذا نطقت ولا تكنْ عَجِلاً بقولك قبلما تتفهمُ

لم تُعْطَ معْ أذنيكَ نطقًا واحدًا إلاَّ لتسمعَ ضِعْفَ ما تتكلمُ[2]

وقال آخر:

الفكرُ قبل القولِ يُؤمَنُ زيفُهُ شتّانَ بينَ رَويَّةٍ وبَديهِ[3]

وكان يقال: «خمس خصالٍ تكون في الجاهل: الغضب في غير غضب، والكلام في غير نفع، والعطية في غير موضع، والثقة بكل أحد، وألا يعرف صديقه من عدوّه»[4].

وقال أبو تمام:

وممّا كانتِ الحكماءُ قالَتْ لسانُ المرءِ من تبعِ الفؤادِ[5]

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت ـ لبنان ١/ ٢٤٣.

(٢) عيون الأشعار وروائع الأفكار، ص ٥٦.

(٣) معجم الأخطاء الشائعة، محمد العدناني، مكتبة لبنان، ط ٢، ١٩٨٣م، ص ١٢٧.

(٤) البيان والتبيين ٢/ ٢٠٠.

(٥) أدب الدنيا والدين، ص ٢٧٧.

والكلمة أسيرة في وَثاق الرجل، فإذا تكلم بها كان أسيرًا في وَثاقها. وفي ذلك يقول الراجز:

القــــولُ لا تملكُــــهُ إذا نمـــى كـالسهـمِ لا يُـرجعُـهُ رامٍ رمـى[1]

٣ ـ اعتـزال مجـالـس السـوء: فـاللغـو نتيجـة حتميـة لمثـل هـذه المجالس، إذ به تَغْمُر، وبكثرة الكلام تطول، وبالخوض بالباطل تحلو وتجمُل.

وهو ـ لعمري ـ جمالٌ ظاهر يغطي على قبحٍ باطن.

وحلاوة مبتسرة تفضي إلى مرارة مُنكَرة.

وما أكثر من طالت لوعته بصحبة اللئام الفجرة. فحريٌّ بالمرء أن يتخيّر أصحابه، وألا يجالس إلاَّ مَنْ يدلّه على الصراط السويّ، ويعينه على المضيِّ في طريق الخير، وينهاه عن كلِّ سوء وضَيْر.

وما أجمل نصيحة علقمة بن ليث لولده إذ قال:

«يا بني إن نازعتك نفسك يومًا لمصاحبة الرجال، فاصحبْ من إذا صحبتَه زانك، وإذا نزلت بك مؤنة مانك، واصحبْ من إذا قلت الحقَّ صدَّق قولك، وإذا صُلتَ ضد الباطل شدَّد صولك. اصحبْ من إذا رأى منك حسنة عدَّها، أو رأى سيئةً سدَّها. اصحبْ من إذا طلبت منه أعطاك، وإذا سكتَّ عنه ابتداك. اصحبْ من يدلُّك على اللَّهِ حالُهُ ومقالُهُ»[2].

إن النجاة من مجالس السوء واللغو والخوض في الباطل ضرب من ضروب النعيم التي وعد الله بها عباده المتقين، ومن يستعرض تلك المشاهد

---

(١) بهجة المجالس ١/ ٧٩.

(٢) عيون الأشعار وروائع الأفكار، ص ١١٤.

القرآنية التي عرض الله فيها صنوف النعيم التي ينالها الفائزون من عباده يجد الإعراض عن اللغو وعدم الخوض فيه من أبرز معالمها، اقرأ معي إن شئت قوله تعالى في سورة مريم: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ ﴾، وقوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾، وقوله تعالى في سورة النبأ: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

وقد كان هذا جزاءً وفاقًا لما قدموا في الدنيا من إعراضهم عن مجالس اللغو وعدم خوضهم في الباطل مع الخائضين: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ٣]، ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٢]، ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [القصص: ٥٥].

٤ ـ **المحافظة على الوقت**: أكثر أنواع اللغو إنما هو تقطيع للوقت ومحاولة لتمرير الزمن دون فائدة ترجى أو نفع يجدي، فإذا أدرك الإنسان قيمة الوقت، وأنه أثمن ما في الوجود لأنه في الحقيقة عمره الذي يمضي وأجله الذي يحين، كما قال الحسن البصري في كلمته السالفة، إذا أدرك ذلك أقلع عن إضاعة وقته في القيل والقال، وحاول أن يفيد من كل ثانية تمر به.

ومما يؤسف له أن كثيرًا من الناس يغفلون عن قيمة الوقت والزمن، فيهدرونه دون شعور بأدنى مسؤولية، وقد صدق الوزير الصالح يحيى بن هبيرة حين قال في أمثال هؤلاء:

والوقتُ أنفسُ ما عنيتَ بحفظِهِ ... وأراهُ أسهلَ ما عليك يضيعُ

سادسًا: التقعُّر في الكلام ورفع الصوت

قعّرَ في كلامه وتقعّر: تشدَّق وتكلم بأقصى قعْر فمه، وقيل: تكلم بأقصى حلقه. ورجلٌ قَيْعَرٌ وقيعارٌ: متقعِّر في كلامه[1].

والتقعّر في الكلام يكون بالتشدُّق وتكلُّف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيهات والمقدمات وما جرى به عادة المتفاصحين المدَّعين للخطابة، ويمكن أن نلحق بالتقعّر تكلف الحوشي والغريب من الألفاظ والمفردات والتراكيب التي يخفى معناها على كثير من الناس، وكل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلُّف الممقوت الذي تبرَّأ منه رسول الله ﷺ بقوله: «أنا وأتقياء أمتي برآء من التكلف»[2].

ورفع الصوت ملحق بالتقعّر لأنه ضرب من ضروب التكلُّف، وهو يدل على اضطراب الشخصية وغليان النفس وعدم اتِّزان التفكير. وقد نهى ربنا جل وعلا عن ذلك فقال في محكم بيانه على لسان لقمان وهو يعظ ابنه: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان: ١٩].

وسنتناول هذا الخلق الذميم من جانبين هما:

(أ) أثره وجزاؤه.

(ب) سبل اجتنابه.

(أ) أثره وجزاؤه:

جبلت النفوس على حبِّ ما فطرت عليه من الطبيعة غير المصطنعة والسليقة غير المتكلِّفة، ولذا فهي تنفر من كل تكلف وتصنع أنَّى كان وكيف

---

(١) اللسان (قعر).

(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ١٢٠.

كان، يقول الجاحظ: «ولم أرهم يذمُّون المتكلف للبلاغة فقط، بل كذلك يرون المتطرّف والمتكلف للغناء. ولا يكادون يضعون اسم المتكلف إلاَّ في المواضع التي يذمُّونها. قال قيس بن الخطيم:

فمـا المـالُ والأخـلاقُ إلاَّ معـارةٌ فما اسطعْتَ من معروفها فتزودِ
وإنِّـي لأغنـى النـاسِ عـن متكلِّفٍ يرى الناس ضُلَّالاً وليس بمهتدِ

وقال ابن قميئة:

وحمَّـالُ أثقـالٍ إذا هـيَ أعـرضَـتْ عن الأصلِ لا يسطِيعُها المتكلِّفُ

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ أحبَّكم إليَّ وأقربَكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنُكم أخلاقًا، الموطؤون أكنافًا، الذين يألفون ويُؤلفون. وإن أبغضكم إليَّ وأبعدَكم مني مجلسًا يوم القيامةِ الثرثارونَ المتشدِّقونَ المتفيقهونَ»، وقال: «إيَّاي والتشادق». . . »[1].

وهكذا فالمتكلف غير محبوب، بل هو منبوذٌ من الله ورسوله وخاصَّةَ الناس وعامَّتهم، وأشدُّ ما يتبدَّى التكلف في التشدُّق واصطناع الكلام المونق وملء الفم به، وفي ذلك يقول مورَقٌ العبد:

قـد علـم الغـربـيُّ والمشـرِّقُ أنَّـك فـي القـوم صميـمٌ مُلصـقُ
عـوداكَ نبـعٌ وهشيـمٌ بَـرْوَقُ وأنـت جـدبٌ وربيـعٌ مُغْـدِقُ
وأنـت ليـلٌ ونهـارٌ مُشْـرِقُ لـولا عجـوز قحمـةٌ ودَرْدَقُ
وصاحـبٌ جـمٌّ الحـديث مـونـقُ كيـف الفـواتُ والطُّلوب مـوَرِقُ
شيـخٌ مغيـظٌ وسنـانٌ تَبْـرقُ وحَنْجَـرٌ وَخْـبٌ وصـوتٌ مِصْلَـقُ
وشِـدْقُ ضـرغـامٍ ونـابٌ يُحـرِقُ وشـاعـرٌ بـاقـي الـوُسـومِ مُغْلِـقُ[2]

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٢١.

(٢) البيان والتبيين ٢/ ١٥٢.

ورفع الصوت لا يقلُّ أثرًا سيئًا عن التقعُّر إن لم يتجاوزه، لأنه مَئِنَّةٌ من المشاجرة والمصارعة والسبّ والشتم وعدم احترام السامع، وهي أمور ينفر منها كل ذي طبع سليم، وتأباها الفطرة الصافية، على حين أن خفض الصوت مظهر لأدب النفس، وعنوان على ثقة الإنسان بما يقوله أو يذكره فهو مطمئن إلى صدق كلامه، ثم هو إلى ذلك دالٌّ على احترام المتكلم للسامع الذي يخاطبه، ومن هنا كان خفض الصوت لائقًا بمواقف العبادة كالصلاة والدعاء، يقول جل وعلا: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء: ١١٠].

ويقول أيضًا: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقد جاء في السنة الشريفة أن رسول الله ﷺ سمع أناسًا يجهرون بالتكبير فقال لهم: «يا أيها الناس اربَعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنه معكم إنه سميع قريب تبارك اسمه وتعالى جدّه»[١].

من أجل ذلك كله كرَّه الله إلينا رفع الصوت والتشدق في الكلام، يروى أن رجلاً تكلم عند رسول الله ﷺ، فقال له النبي ﷺ: كم دون لسانك من حجاب؟ فقال: شفتاي وأسناني، فقال له: «إن الله جلَّ وعزَّ يكره الانبعاق في الكلام فرحم الله امرأً أوجز في كلامه واقتصر على حاجته»[٢]، وجاء في السُّنَّة المطهَّرة أيضًا: «إنَّ الله يبغض البليغ من الرِّجال الذي يتخلَّل بلسانه كما تتخلَّل البقر»[٣]، ودعا رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٠٩١، رقم ٢٨٣٠.

(٢) العمدة ١/ ٢٤١.

(٣) رواه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، انظر: الأذكار، ص ٤١٧.

على المتنطعين ثلاثًا بقوله: «ألا هَلَكَ المتَنَطِّعون»[1].

وفي تراثنا الأدبي ذمٌّ للتقعُّر والتشادق ورفع الصوت، وتصوير ساخر لمن كان هذا شأنه، فمن ذلك قول بعضهم في ذكر الخطباء وذكر أشداقهم وتشادقهم:

أغـرَّك منـي أن مـولاي مَـزْيـدًا	سـرع إلـى داعـي الطعـام سُـروطُ
غـلامٌ أتـاهُ الـذلُّ مـن نحـو شِـدْقِـهِ	لـه نسـبٌ فـي الـواغليـن بسيـطُ
لـه نحـو دَوْر الكـاسِ إمَّـا دعـوتـه	لسـانٌ كـذَلـق الـزاعبـيِّ سليـطُ[2]

وقال آخر:

وقـد كـان مفتـوقَ اللهـاةِ وشـاعـرًا	وأشدقَ يَفري حين لا أحدٌ يفري[3]

وقال ثالث:

يقعِّــرُ القــول لكيمــا تحسبَــهْ	مـن الـرجـالِ الفصحـاءِ المعـربَـهْ
وهــو إذا نسبتــه مــن كَــرَبَــهْ	مـن نحلـةٍ نـابتـةٍ فـي خَـرِبَـهْ[4]

ويحكى أن الأصمعي اختلف مع المفضل الضبي في مسألة فارتفع صوت المفضل، فقال له الأصمعي: «تكلم كلامَ النمل وأصِبْ، لو نفخت في شبُّور[5] يهودي ما نفعك شيئًا».

بل إن منهم من كره للخطباء مثل هذا التكلف والاختيال، ففضل عليه السكوت، وفي ذلك يقول:

---

(١) الصمت وآداب الكلام، ص ١٠٨.

(٢) البيان والتبيين ٢/ ٢٨٨.

(٣) البيان والتبيين ٢/ ٢٩٠.

(٤) البيان والتبيين ٢/ ٢٩٥.

(٥) الشبُّور: البوق، وهي عبرانية. انظر: اللسان (شبر).

وإذا خطبتَ على الرجالِ فلا تكنْ خَطِلَ الكلامِ تقولُهُ مختالا
واعلمْ بأنَّ مع السكوتِ لَبَابَةً ومنَ التكلُّمِ ما يكونُ خبالا[1]

ويروى أن أبا بكر المنكور خطبَ فأغربَ في خطبته وتقعَّر في كلامه، وعند أصل المنبر رجلٌ من أهل الكوفة يقال له حَنش، فقال لرجلٍ إلى جنبه: إني لأبغض الخطيب يكون فصيحًا بليغًا متقعِّرًا، وسمعه أبو بكر المنكور الخطيب، فقال له: ما أحوجَكَ يا حنش إلى مُدَحْرج مفتول، ليِّن الجِلاز، لَدْن المَهزَّة، عظيم الثمرة، تؤخذ به من مغرِز العنق إلى عَجْبِ الذَّنَب، فتُعلى به فتكثر له رقصاتُك من غير جَذل[2].

وقال ابن لنكك البصري في مَبْرَمانَ النحويِّ المتقعِّر:

صُداعٌ من كلامِكَ يعترينا وما فيه لمُسْتمِعٍ بيانُ
مُكابرةٌ ومَخْرقَةٌ وبُهْتٌ لقد أبرمْتَنا يا مَبْرَمانُ[3]

وقال أبو تمام فيمن يتعاطى الغريب:

فما لكَ بالغريبِ يدٌ ولكنْ تعاطيكَ الغريبَ من الغريبِ
أما لو أنَّ جهلَك عاد عِلْمًا إذًا لرسخت في علم الغيوبِ[4]

ومن طريف ما يروى في هذا الباب أن أبا الأسود الدؤلي قال لأبي علقمة: ما حال ابنك؟ قال: أخذته الحمَّى فطبخته طبخًا، ورضخته رضخًا، وفتخته فتخًا، فتركته فرخًا، قال: فما فعلت زوجته التي كانت

---

(١) معجم الأدباء، لياقوت الحموي، دار المستشرق، بيروت ـ لبنان، ٢٠ جزءًا، ٨/ ٢٣٠.
(٢) العقد الفريد ٢/ ٤٩٢.
(٣) معجم الأدباء ١٩/ ١٠.
(٤) العقد الفريد ٢/ ٤٩٢.

تشارُه وتُهارُه وتُمارُه وتُزارُه؟ قال: طلقها فتزوجت بعده فحظِيَتْ وبظِيَتْ، فقال له: قد عرفنا حظيت فما بظيت؟ قال: حرف من الغريب لم يبلغك، فقال: يا ابن أخي، كل حرفٍ لا يعرفه عمُّكَ فاسترُه كما تسترُ السِّنور خُرْأَها[1].

(ب) سبل اجتنابه:

إن معرفة الدوافع إلى التقعُّر ورفع الصوت تزلل أمر معالجته، لأن القضاء على الدوافع يفضي إلى اجتنابه والإقلاع عنه، فإذا علمنا أن أهم البواعث على هذا الخلق الذميم الرياء وإظهار الفصاحة والتميز بالبراعة من جانب، والغضب والهياج من جانب آخر، أمكن أن نوجز أهم سبل الاجتناب بما يلي:

١ ـ الحدُّ من الرياء والمفاخرة: وليس بالأمر الهين؛ لأن المفاخرة من متع الحياة التي يتلبَّس بها الإنسان وينساق خلفها دون أن يشعر، وقد قال الله عزَّ وجل: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [الحديد: ٢٠]، ولكن إذا تيقن الإنسان أنها متع زائلة وأن ما وعد الله به عباده المخلصين البعيدين عن الرياء والمفاخرة وما أشبههما خير وأبقى، استطاع بالإرادة والحزم والتصميم أن يدفع عنه كثيرًا من مظاهر الرياء الخادع والمفاخرة الغَرور، وفي تمام الآية السالفة بيان لذلك وحضٌّ على سلوك الصراط السوي: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد: ٢٠].

---

(١) العقد الفريد ٢/ ٤٩٠ ـ ٤٩١.

٢ ـ **الحدّ من الغضب**: لأن الغضب مقرون برفع الصوت والهياج والخروج عن المألوف، وهو أمر مكروه مرذول، لا يقع فيه المرء إلاّ عن ضعفٍ وعدم قدرة على معالجة الأمور بحكمة، ولذلك كانت وصاة الرسول ﷺ لمن استوصاه: «لا تغضب»[1]، وقد اقتصر على هذه الكلمة برغم أن السائل كان يلحُّ على الاستزادة، ليبيِّن مقدار أهمية ذلك وما يحمله من الخلق الواجب التمسك به.

وقد ضرب رسول الله ﷺ أروع مثل في غض الصوت حتى لقد ورد في السنة المطهَّرة أنه كان: «إذا عطس وضع يدَهُ أو ثوبه على فِيهِ، وخفض أو غضّ بها صوته»[2].

٣ ـ **القصد في كل شيء**: أي الاعتدال في كل أمر، ومن ذلك الاعتدال في المنطق، فهو أدعى إلى القبول، ولا سيما إن خلا من التكلف وحوشي اللفظ وغريبه، ها هو ذا ابن عبد ربه يمدح رجلاً بسهولة اللفظ وحسن الكلام فيقول:

قولٌ كأن فريدَهُ ... سحرٌ على ذهن اللبيبْ
لا يشمئِزُّ على اللسا ... ن ولا يشُذُّ عن القلوبْ
لم يَغْلُ في شَنِع اللغا ... تِ ولا توحّش بالغريبْ
سيف تقلَّد مثلَهُ ... عَطْفَ القضيبِ على القضيبْ
هذا تُجَدُّ به الرِّقا ... بُ وذا تُجدُّ بِهِ الخطوبْ[3]

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة. انظر: صحيح البخاري ٥/ ٢٢٦٧، رقم ٥٧٦٥.

(٢) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة. انظر: الأذكار، ص ٣٠٦.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣.

وما أجمل ما صنَّفَ به شيخُ المعرة الألفاظَ حيثُ يقول:

مـن النـاس مَـنْ لفظُـهُ لـؤلـؤٌ ... يبـادرهُ اللَّقـطُ إذ يُلفـظُ
وبعضُهُـمُ قـولـه كـالحصـا ... يقـال فيلغـى ولا يُحفـظُ

إنَّ اللفظ السهل المفهوم، أيسر وقعًا، وأحب سمعًا، فهو يدخل إلى القلب دون استئذان، وتتلقَّفُه النفس وتعشقه الآذان: «والأذن تعشق قبل العين أحيانًا»(١).

أما اللفظ الصعب الغريب، والتعبير المتكلف المتقعر، فهو أشد وقعًا، وأثقل سمعًا، يأباه القلب وتعافه النفس، ومن ثمَّ فهو لا يتجاوز الآذان. ورحم الله الشاعر صفي الدين الحلي إذ يقول:

إنَّمـا الحَيـزبـونَ والـدردبيـسُ ... والطَّخَـا والنُّقـاخُ والعَلْطبيـسُ
والسَّبْنتَى، والحَقْصُ، والهِيقُ والهجْـ ... ـرِسُ، والطِّرقسانُ والعَسطوسُ
لغـةٌ تنفِـرُ المسـامـعُ منهـا ... حيـنَ تُـروى وتشمَئِـزُّ النفـوسُ
وقبيـحٌ أن يُـذكـرَ النـافـرُ الـوحـ ... ـشـيُّ منهـا ويُتـركَ المـأنـوسُ
أيـنَ قـولـي هـذا كثيـثٌ قـديـمٌ ... ومقـالـي عَقنْقَـلٌ قَـدمـوسُ
خـلِّ لـلأصمعـيِّ جـوبَ الفيـافـي ... فـي نشـافٍ تخِـفُّ منـهُ الـرؤوسُ
دَرَسَـتْ تَلكـمُ اللغـاتُ وأمسـى ... مذهبُ النَّاسِ ما يقول الرئيسُ
إنَّمـا هـذهِ القلـوبُ حـديـدٌ ... ولـذيـذُ الألفـاظِ مغنـاطيـسُ(٢)

وما أجمل ما قال في هذا أبو العباس الناشىء:

لعـنَ اللَّـهُ صنعـةَ الشعـرِ، مـاذا ... مـن صنـوف الجهّـال فيهـا لقينـا؟

(١) من بيت لبشار بن برد، صدره: يا قوم أذْني لبعض الحيِّ عاشقةٌ، وقد تقدَّم في قسم الفصاحة، ص ٨٢.

(٢) ديوان صفي الدين الحلي، بيروت ـ دار صادر، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، ص ٦٢٤.

يـؤثـرونَ الغـريـبَ منـهُ علـى مـا ... كـانَ سهـلاً للسـامعيـن مبينـا
ويـرونَ المحـال شيئًـا صحيحًـا ... وخسيـسَ المقـال شيئًـا ثمينـا
يجهلـون الصـوابَ منـه ولا يـدْ ... رون للجهـل أنهـم يجهلـونـا
إنَّما الشعرُ ما تناسب في النظـ ... ـم وإن كان في الصفاتِ فنونا
فـأتـى بعضُـه يشـاكـل بعضًـا ... قـد أقامـت لـه الصدور المُتونـا
كـل معنـىً أتـاك منـه علـى مـا ... تتمنَّـى لـو لـم يكـن أن يكـونـا
فتنـاهـى عـن البيـان إلـى أن ... كـاد حسنًـا يبيـن للنـاظـرينـا
فكـأن الألفـاظَ فيـه وجـوهٌ ... والمعـانـي رُكِّبْـن فيـه عيـونـا
فـإذا مـا مـدحـت بـالشعـرِ حـرًّا ... رحـتَ فيـه مـذاهـب المسهبينـا
وتنكبـت مـا تهجَّـن فـي السمـ ... ـع وإن كـان لفظَـه مـوزونـا
وأصحُّ القريض ما فات في النظـ ... ـم وإن كـان واضحًـا مستبينـا
وإذا قيـلَ أطمـعَ النـاسَ طـرًّا ... وإذا ريـم أعجـز المعجـزينـا[١]

سابعًا: المِراء والجَدَل والخصومة

المِراء: الجدال. وماريتُ الرجلَ أماريه مراءً، إذا جادلته. والمِرْية والمُرْية: الشكُّ والجَدَل، بالكسر والضم.

والجَدَل: اللدَدُ في الخصومة والقدرة عليها، وقد جادلهُ مجادلةً وجدالاً. ورجل جَدِل ومِجْدَل ومِجْدال: شديد الجَدَل[٢].

وحُبُّ المراء والجدل خلق ذميم يستبدُّ ببعض النفوس التي أغريت بالمغالبة وأوتيت حظًّا من القدرة على الكلام، وفضلاً من البيان والفصاحة،

(١) العمدة ٢/ ١١٣ ــ ١١٤.
(٢) اللسان (مري) و (جدل).

وبسطةً في اللسان، وشهوةً للظهور والتفوق. مما يجعل حبَّ الانتصار عندها أهمَّ من إظهار الحق، ونشوةَ التفوق عندها أهم من النزاهة في البحث.

والخصومة لجاج في الكلام ليُستوفى به مالٌ أو حقٌّ مقصود، وهي تأتي وراء الجدال والمراء[1].

وسنتناول هذا الخلق الذميم من الجانبين التاليين:

(أ) أثره وجزاؤه.

(ب) سبل اجتنابه.

(أ) أثره وجزاؤه:

عرَّف الغزالي المراء بأنه طعن في كلام الغير بإظهار خَلَل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير وإظهار مزية الكياسة، وحسب هذا أن يُسبب من العداوة والبغضاء ما يسببه، وأن يشيع في المجتمع جوًّا من الكراهية والنفور يسري بين أبنائه. قال عبد الرحمن بن أبي ليلى: «لا تمار أخاك، فإما أن تغضبه وإما أن تكذبَه»[2]. وقال الشاعر:

فإيّاكَ إياك المراءَ فإنَّهُ إلى السبِّ دعّاءٌ وللصرم جالبُ[3]

فعن المراء تنجم الخصومة، وعن الخصومة ينجم السبّ والشتم، وعنهما تتولد الكراهية، وعن الكراهية يتأتى الحقد والغل والضغينة وهي أعلى درجات القطيعة.

وأخطر ما في الجدال والمراء أنه يفرق الإخوة المتحابين، والأصدقاء

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ١١٨.

(٢) العقد الفريد ٣/ ٥.

(٣) العقد الفريد ٣/ ٦.

المتلازمين ويفسد فيما بينهم. قال سفيان: «لو خالفت أخي في رمانة فقال: حلوة، وقلت: حامضة، لسعى بـي إلى السلطان»، وقال أيضًا: «صافِ من شئت ثم أغضبْه بالمراء فلَيرميَنَّكَ بداهيةٍ تمنعُك من العيش»[1].

وقال ابن المقفع: «المشاراة والمماراة يفسدان الصداقة القديمة، ويحلّان العقدة الوثيقة، وأيسر ما فيهما أنهما ذريعةٌ إلى المنافسة والمغالبة»[2].

وما قيل في المراء والجدال يصدق في الخصومة، بل إن الخصومة أشدُّ ضراوةً، وهي مبدأ كل شرّ، لأنها توغر الصدر وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب نُسي المتنازَعُ فيه وبقي الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته ويطلق اللسان في عرضه[3].

وإذا اعتاد المرء الجدل أصبح له خلقًا وديدنًا، وهدفًا يسعى إليه ليحقق ذاته ويبلغ نشوته في إظهار انتصاره وتفوقه على الآخرين، وهو كلما أمعن في جدله استمرأه واكتسب من المهارة ما يغريه بالمزيد، فهو لا يقف ببسطة لسانه عند حدٍّ، إنه يريد الكلام فحسب، يريد أن يباهي به ويستطيل، إن الألفاظ تأتي في المرتبة الأولى، والمعاني في المرتبة الثانية، أما الغرض النبيل فربما كان له موضع أخير، وربما عزَّ له موضع وسط هذا الصخب.

والجدال في الدين، والجدال في السياسة، والجدال في العلوم والآداب، عندما يتصدى له هذا النفر من الأدعياء البلغاء، يفسد به الدين،

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ١١٧.
(٢) العقد الفريد ٣/ ٥.
(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ١١٩.

وتفسد السياسة والعلوم والآداب، ولعل السبب في الانهيار العمراني والتحزب الفقهي، والانقسام الطائفي، وغير ذلك مما أصاب الأمة العربية الإسلامية هو هذا الجدل الملعون في حقائق الدين وشؤون الحياة[1].

ولذلك كان هذا النوع من الناس أبغض الرجال إلى الله، قال النبي ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله الألَدُّ الخَصِم»[2]، وقد وصفه الله سبحانه بأمرِّ الوصف وتوعّده بأشدِّ العذاب: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

بل إنه عزَّ وعلا وصف أعتى المشركين من كفار قريش بالجدل والخصومة فقال: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزخرف: ٥٧ ـ ٥٨].

والمجادلة لا تثمر ولا تأتي بخير أبدًا، إنما هي حرمان من العمل وضلال بعد هدى، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «ما ضلَّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا وأوتوا الجدل»[3]، ومن ثم كان المجادل عرضة لسخط الله

---

(١) خلق المسلم، لمحمد الغزالي، دار الكتب الحديثة بمصر، ط ٧، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م، ص ٩٩.

(٢) رواه البخاري من حديث عائشة، انظر: صحيح البخاري ٢/ ٨٦٧، رقم ٢٣٢٥.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ١١٦.

وغضبه: «من جادل في خصومةٍ بغير علمٍ لم يزل في سخط الله حتى يَنْزِع»[1].

وكذا حال الخصومة، وفيها يقول ﷺ: «كفى بكَ إثمًا أن لا تزالَ مخاصمًا»[2].

(ب) سبل اجتنابه:

لا شك أن علاج كل مشكلة يبدأ بإماطة سببها، ولما كان الباعث على المراء والجدال والخصومة إنما هو الكبر والاغترار بالمقدرة والتفوق على الآخرين، كان العلاج الأول لهذه الآفة الخبيثة أن يطامن المرء من غروره وأن يحدَّ من تكبُّره، فالكبرياء لله وحده، والله سبحانه يقول في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني فيهما قصمتُه»[3]. والغرور من شرور النفس التي تقضي على صاحبها ما لم يتدارك أمره ويستجب لنداء العقل والإيمان فيتواضع لخلق الله ويحافظ على ما أنعم الله به عليه بالشكر له والحمد لتدوم عليه النعمة ولا تنقلب إلى نقمة.

إن مدافعة هذه الأخلاق الفاسدة المفسدة قمينة بنبذ المراء والجدل واجتناب الخصومة واللدد. وليس أمر هذه المدافعة بالأمر الصعب أو المستحيل، فالرسول ﷺ يقول: «إنما العلم بالتعلّم، وإنما الحلم بالتحلّم، ومن يتوخَّ الخير يُعْطَه، ومن يتوَقَّ الشرّ يوقَه».

وقال ابن قتيبة: «مرَّ بي بشرُ بن عبد الله بن أبي بكرة فقال: ما يجلسكَ ههنا؟ قلت: خصومة بيني وبين ابن عم لي، فقال: إن لأبيك عندي

---

(١) كتاب الكبائر وتبيين المحارم، للذهبي، تحقيق محيي الدين مستو، دمشق ـ بيروت، دار ابن كثير، ط ٣، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، ص ١٥٩.

(٢) رواه الترمذي من حديث ابن عباس، رقم ١٩١٧.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، انظر: إحياء علوم الدين ٣/ ٣٣٦.

يدًا وإني أريد أن أجزيكَ بها، وإني والله ما رأيت شيئًا أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة!. قال: فقمت لأنصرف فقال لي خصمي: ما لكَ؟ قلت: لا أخاصمك. قال: إنك عرفت أن الحق لي، قلت: لا، ولكن أكرم نفسي عن هذا. قال: فإني لا أطلب منك شيئًا هو لك[1].

وكان العرب يتناصحون بنبذ المراء والجدل، يقول مسعر بن كدام لابنه وهو يعظه:

إنـي نصحتُـكَ يـا كـدام نصيحتـي	فـاسمـعْ مقـالَ أبٍ عليـكَ شفيـقِ
أمّـا المـزاحـة والمـراء فـدعْهمـا	خلقـان لا أرضـاهمـا لصـديـقِ
إنـي بلـوتهمـا فلـم أحمـدهمـا	لمجـاورٍ جـارٍ ولا لـرفيـقِ[2]

بـل لـقـد حـضَّ الإسـلام عـلـى تـرك المـراء والجـدل وإن كـان صاحبهما محقًّا فقال ﷺ: «من ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة، ومن تركها وهو محقٌّ بني له في وسطها، ومن حَسُنَ خُلُقُهُ بُني له في أعلاها»[3].

وروي عن عدد من الصحابة أنهم قالوا: «خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا ونحن نتمارى في شيء من أمر الدين، فغضب غضبًا شديدًا لم يغضب مثله، ثم انتهرنا فقال: «مهلاً يا أمة محمد، إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ذروا المراء لقلة خيره، ذروا المراء فإن المؤمن لا يماري، ذروا المراء فإن

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ١١٩.

(٢) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي، حوادث ووفيات ١٤١هـ ـ ١٦٠هـ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، ١٩٨٩م، ص ٦١٧.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ١١٦.

المماري قد تمت خسارته، ذروا المراء فكفى إثمًا ألا تزال مماريًا، ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة، ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة، ربضها، ووسطها، وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق. ذروا المراء فإن أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان المراء»[1].

ومن سبل اجتناب المراء والجدل والخصومة اجتنابُ أصحابها المولعين بها، فثمّة أناس تغلب على طبعهم هذه الخلال، وهي لا تتحقق لهم إلاَّ بمجاراة نظرائهم من هُواة ذلك، فإذا ما اعتُزلوا سُدَّ عليهم طريق المراء وأسقط في أيديهم، ونجا المرء من السقوط في حبائلهم والتردِّي في مكائدهم.

«روي أن أبا حنيفة رحمه الله، قال لداود الطائي: لم آثرت الانزواء؟ قال: لأجاهد نفسي بترك الجدال، فقال: احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تتكلّمْ، قال: ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشدَّ علي منها»[2].

ولله درّ القاضي منصور بن محمد الهروي حيث يقول:

إذا كنتَ ذا علمٍ وماراكَ جاهلٌ   فأعرض ففي تركِ الجوابِ جوابُ
وإن لم تُصِبْ في القول فاسكتْ فإنّما   سكوتُكَ من غير الصوابِ صوابُ[3]

ومن هذا القبيل قول صاحب العمدة:

وأخرقَ أكّالٍ للحمِ صديقِهِ   وليس لجاري ريقِهِ بمُسيغِ
سكتُّ لَهُ ضَنًّا بعرضي فلم أُجِبْ   ورُبَّ جوابٍ في السكوتِ بليغِ[4]

---

(١) خلق المسلم، ص ٩٩ ـ ١٠٠.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ١١٨.

(٣) مجمع الأمثال ٢/ ٢٦٦.

(٤) العمدة ١/ ٢٤٣.

ثامنًا: التملُّق والنّفاق

المَلَقُ: الوُدّ واللطف الشديد، وأصله التليين. مَلِقَ مَلَقًا وتملَّق وتملّقهُ وتملَّقَ له تملُّقًا وتِمِلاَّقًا، أي تودّد إليه وتلطّف له؛ قال الشاعر:

ثـلاثـةُ أحبـابٍ، فحـبُّ عَـلاقـةٍ   وحـبُّ تِمِـلاَّقٍ، وحـبٌّ هـو القتـلُ

ورجل مَلِقٌ: يعطي بلسانه ما ليس في قلبه. والمَلِقُ أيضًا الذي يَعِدُك ويخلفك فلا يفي، ويتزيّن بما ليس عنده[1].

والنفاق: الدخول في الإسلام من وجه والخروج عنه من آخر، والمراد منه ههنا إظهار غير ما في الباطن[2].

والتملق يؤدي إلى هذا النفاق، وكلاهما خلق ممقوت لا يتحلى به إلاَّ من فسد حاله وباع آخرته بدنياه، وآثر هواه على تقواه.

جـاء فـي الحـديـث النبـوي الشـريـف: «ليس مـن خلـق المـؤمـن المَلَق»[3].

وسنتناول هذا الخلق الذميم من الجوانب التالية:

(أ) من صور التملق والنفاق.

(ب) أثره وجزاؤه.

(ج) سبل اجتنابه.

---

(١) اللسان (ملق).

(٢) اللسان (نفق).

(٣) قال في اللسان: هو بالتحريك الزيادة في التودُّد والدعاء والتضرع فوق ما ينبغي. انظر: اللسان (ملق).

(أ) من صور التملق والنفاق:

يتبدى هذا الخلق بأكثر من صورة وعلى أكثر من نحو، وفيما يلي أبرز هذه الصور:

١ ــ **ذو اللسانين**: ويسمى أيضًا ذا الوجهين، وهو الذي يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعاديين وذلك عين النفاق[١]. قال عمار بن ياسر: قال رسول الله ﷺ: «من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نارٍ يوم القيامة»[٢].

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «تجدون شرَّ الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه»[٣].

وحكى الجاحظ عن سعيد بن أبي العروبة قوله: «لأن يكون لي نصف وجه ونصف لسان ــ على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المخبر ــ أحبُّ إليَّ من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين». وحكى أيضًا عن أيوب السختياني قوله: «النمام ذو الوجهين أحسن الاستماع، وخالف في الإبلاغ»[٤].

٢ ــ **المدَّاح**: وهو الذي يفرط في المدح فينتهي به إلى الكذب، أو يقول فيه ما لا يتحققه في صاحبه ــ أي في الممدوح ــ ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه، وقد جعل رسول الله ﷺ ذلك بمنزلة قطع العنق حيث قال لمن أفرط في المدح: «ويلَكَ قطعتَ عُنُقَ صاحِبك، قطعت عنق صاحبك،

---

(١) الإحياء ٣/ ١٥٨.

(٢) رواه أبو داود رقم ٤٢٧٠. وانظر: إحياء علوم الدين ٣/ ١٥٨.

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٢٨٨، رقم ٣٣٠٤.

(٤) البيان والتبيين ٢/ ١٤٩.

مرارًا»، ثم رسم حدودًا للمدح المباح فقال: «مَنْ كان منكم مادحًا أخاه لا محالة فليقلْ: أحسِب فلانًا والله حسيبُه ولا أزكّي على الله أحدًا، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه»[1].

وجاء رجل فأثنى على عثمان رضي الله عنه في وجهه فأخذ المقداد بن الأسود ترابًا فحثا في وجهه وقال: قال رسول الله ﷺ: «إذا لقيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب»[2].

٣ ــ **المنافق**: وهو الذي يظهر غير ما يبطن، ويُبدي غيرَ ما يُسِرُّ.

وفيه يقول ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي كلُّ منافق عليم اللسان»[3]. ويقول رب العزة جلَّ وعلا في معرض ذمِّ هذا الصنف من النّاس: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١]. وسمى الله سبحانه هذه الخلة بالمداهنة فقال في وصف الكافرين المكذّبين: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝﴾ [القلم: ٩].

(ب) أثره وجزاؤه:

إن النفاق والتملّق يخلفان أسوأ الأثر في الفرد والمجتمع، ويبدأ أثرهما السَّيِّىء على صاحبهما، إذ يفقد المصداقيّة بين أصحابه وذويه مما يؤدي إلى نبذه واعتزال مجالسته ومصاحبته، وإذا كان من النوع المدَّاح فإن الإطراء في المدح يقوده إلى الرياء والنفاق، لأنه بالمدح مظهر لحبٍّ قد لا يكون مضمرًا له ولا معتقدًا بجميع ما يقوله. وهو مهما حرص على إخفاء

---

(١) رواه البخاري من حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه. صحيح البخاري ٢/٩٤٦، رقم ٢٥١٩.

(٢) رواه مسلم رقم ٥٣٢٣.

(٣) الصمت وآداب اللسان، ص ١٠٩.

حقيقة أمره، وتزيين أقواله، وتنميق عباراته لا بد أن يفضح في يوم من الأيام كما قال زهير:

ومهما تكنْ عندَ امرئٍ من خليقةٍ   وإن خالَها تخفَى على النَّاسِ تُعلَمِ[1]

ويتعدى هذا الأثر السيِّـىء المادحَ إلى الممدوح فيضرّ به من جهتين:

أولاهما: أن يحدث فيه كبرًا وإعجابًا وهما مهلكان.

وثانيتهما: أنه إذا أثني عليه بالخير فرح به وفتر ورضي عن نفسه وامتلأ إعجابًا بها، ومن أعجب بنفسه قلَّ تشمّره للعمل، وإنما يتشمّر للعمل من يرى نفسه مقصرًا[2].

من أجل ذلك كله كان جزاء المنافق والمتملق والمدَّاح عسيرًا، فالله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، والرسول ﷺ يعجل العقوبة للمدَّاحين فيأمر أن يُحثى الترابُ في وجوههم. ثم هو لا يصلي على أحدٍ من المنافقين مات أبدًا ولا يقوم على قبره صدعًا بالآية الكريمة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤]، بل لقد أُمر ألا يستغفر لهم: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

وقد روي أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ مات فلم يصلِّ عليه حذيفة ــ وهو كاتم سر الرسول ﷺ ــ فقال له عمر: يموت رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ولم تصلِّ عليه؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنه منهم، فقال: نشدتُكَ الله أنا منهم أم لا؟ قال: اللَّـهمَّ لا، ولا أومن منها أحدًا بعدك[3].

---

(١) ديوان زهير، ص ٣٤.

(٢) الإحياء ٣/ ١٦٠.

(٣) الإحياء ٣/ ١٥٨.

وقيل لابن عمر رضي الله عنهما: إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره. فقال: كنا نعدُّ هذا نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ. فإذا كان هذا الضرب من السلوك نفاقًا، وهو في كثير من الأحيان لا يخلو من اتقاء شر أو دفع مكروه أو جلب مصلحة عامة، فما بالك بمن ينافق ابتداءً دون أدنى وجه من وجوه المصلحة الشرعية؟!

لقد عدَّ الإمام الغزالي الثناءَ على من لا يستحقه كذبًا صُراحًا وهو لا يجوز إلاَّ لضرورة أو إكراه يباح الكذب بمثله، ثم قال: «بل لا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرِض التقرير على كل كلام باطل، فإن فعل ذلك فهو منافق، بل ينبغي أن ينكر فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه»[1].

(ج) سبل اجتنابه:

خير سبيل لاجتناب هذه الآفة وغيرها من آفات اللسان هو التزام شرع الله، والتحقق بتقواه، بفعل أوامره والانتهاء عن نواهيه، على أن لكل آفة أسبابها ودوافعها، ويكون العلاج بإزالة هذه الأسباب والدوافع، فإذا علمنا أن دوافع التملق والنفاق تشبه دوافع الكذب وعلى رأسها الطمع والفزع جاز لنا أن نقول هنا إن خير ما يدفع هذا الخلق الذميم هو تمام التيقّن من أن كلَّ كائن مقدر، وأن ما قُدِّر لا بد كائن، وأن النافعَ والضارَّ هو الله وحده: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاَّ بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليك»[2].

---

(١) الإحياء ٣/ ١٥٩.

(٢) رواه الترمذي من حديث ابن عباس رقم ٢٤٤٠.

وتبقى من دون ذلك سبلٌ يمكن أن تحدَّ من هذه الخلَّة نذكر منها:

١ ــ **التحفظ في المدح وعدم مدح الرجل إلاَّ بما فيه**، ولا يكون ذلك إلاَّ عن دراية تامة به وخبرة وطول معاشرة. سمع عمر رضي الله عنه رجلاً يثني على رجل فقال: أسافرت معه؟ قال: لا، قال: أخالطته في المبايعة والمعاملة؟ قال: لا، قال: فأنت جاره صباحه ومساءه؟ قال: لا، فقال: والله الذي لا إلـه إلاَّ هو لا أراك تعرفه[1]. وقد جاء في الأمثال العربية: «لا تُحمَدُ أَمَةٌ عامَ اشترائِها ولا حُرَّةٌ عام بنائها». وقال الشاعر:

لا تَحمـدَنَّ امـرَأً حتـى تُجـرّبَـهُ ... ولا تـذمنَّـهُ مـن غيـرِ تجـريـبِ
فـإنَّ حمـدَكَ مَـنْ لـم تَبْلُـهُ صَلَـفٌ ... وإنَّ ذمَّكَ بعد الحمد تكذيب[2]

وليعلم المادح أن المبالغة في المدح والغلوّ في الثناء مَئِنَّةٌ من الكذب، وأن الشيء إذا تجاوز حدّه انقلب إلى ضدّه، فكثيرًا ما يكون المدح أشبه بالذم والثناء أشبه بالهجاء؛ لما فيهما من المبالغة والتطويل، وقد صدق الشاعر إذ يقول:

وإذا امــرؤٌ مــدح امــرَأً متكلِّفًــا ... وأطــالَ فيـهِ فقـد أطـالَ هجـاءَهُ
لـو لـم يُقَـدِّرْ فيـهِ بُعْـدَ المُسْتَقَـى ... عنـدَ الـورودِ لمـا أطـالَ رشـاءَهُ

وما أجمل ما مر بنا من وصف الأعرابية لزوجها حيث قالت: «يا أمَّهْ ما مدحت حتى اختبرت ولا وصفت حتى عرفت»[3].

٢ ــ **الاحتراز عن الكبر والغرور والفتور**: وهذا موجه إلى الممدوح لا إلى المادح، فالممدوح أدرى بنفسه، وينبغي عليه أن يكفكف من غُلَواء المادح صدعًا بأمر رسول الله ﷺ: «إذا لقيتم المدَّاحين فاحثوا في

(١) الإحياء ٣/ ١٦٠.
(٢) مجمع الأمثال ٢/ ٢١٣.
(٣) الأمالي للقالي ٢/ ١٧٤، وانظر ما تقدم ص ١١٥.

وجوههم التراب»[1]، وعليه أيضًا أن يكون في نفسه على أشدّ الحذر من الانجراف نحو العجب والغرور.

وما أجمل ما كان يقوله عليٌّ كرم الله وجهه حين يسمع المدح والثناء يكال له: «اللّٰهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون»[2]، وقد قال مرة لرجل بالغ في الثناء عليه تملُّقًا ونفاقًا: «أنا دون ما قلتَ وفوق ما في نفسك»، وكي لا يظن القارىء أن هذه الأخلاق الحميدة مقصورة على أسلافنا القدامى، فإننا نسوق إليه كلامًا صدر عن شيخ جليل من شيوخ عصرنا وأديب عظيم من أدبائه، وهو الأستاذ العلامة محمود محمد شاكر رحمه الله، قاله في معرض ردّه على مدحٍ وثناءٍ خصَّ به:

«... ولكني أحاكم نفسي إلى نفوس آبائي وأسلافي، فأجدني كالزائدة التي لا نفع فيها ولا خير. وإذا كنت جئت في زمانٍ خلا مما يزينه، فإنما مثلي مثل حارثة بن بدر الغُداني، وقد اجتاز بمجلسٍ من مجالس قومه بني تميم، ومعه مولاه كعب، فكلما اجتاز بقوم قاموا إليه وقالوا: مرحبًا بسيّدنا! فلما ولى قال له مولاه كعب: ما سمعت كلامًا قطُّ أقرَّ لعيني ولا ألذَّ لسمعي من هذا الكلام الذي سمعته اليوم! فقال له حارثة: لكني لم أسمع كلامًا قط أكره لنفسي وأبغض إلي مما سمعته، قال: ولـمَ؟ قال: ويحكَ يا كعب إنما سوَّدني قومي حين ذهبَ خيارهم وأماثلهم فاحفظ عني هذا البيت:

خَلَتِ الدّيارُ فسُدْتُ غيرَ مُسَوَّدِ ومن الشقاءِ تفرّدي بالسُّودَدِ»[3]

---

(١) تقدم ص ٢٠٧.

(٢) نهج البلاغة، ص ٢٢٦. وانظر أيضًا ص ٤٢٣.

(٣) أباطيل وأسمار لمحمود محمد شاكر، القاهرة مكتبة الخانجي، ص ٤٩٥.

٣ ــ **اعتزال من شأنه التملق والنفاق:** وفي هذا الاعتزال كفٌّ لهم عن غيِّهم، وإشاحةٌ قد تردهم إلى رشدهم، فالمتملق الذي لا يجد أذنًا صاغية تطرب لتملّقه وتزهو بنفاقه، وتنتفخ بمديحه، لا يلبث أن يرعوي عن غيّه، ويكفكف من غلوائه، وينكص على رأسه. والمرء لا بد أن يجد بين إخوانه وأصحابه من يصدقه الحديث، ويخلص له الودّ، ويمحضه النصح، وفي مصاحبة هؤلاء مندوحة له عن التردي إلى مصاحبةِ أولئك الكذابين. وقديمًا قالت الحكماء:

«الإخوانُ ثلاثةٌ: فأخٌ يُخْلِصُ لك وُدَّهُ، ويَبْذُلُ لك رِفْدَهُ، ويستفرِغُ في مُهمِّكَ جُهْدَه. وأخٌ ذو نيَّة، يقتصر بك على حسن نيَّتِهِ دونَ رِفْده ومعونتِهِ. وأخٌ يتملَّق لك بلسانِهِ ويتشاغلُ عنك بشانه، ويوسعُك من كذبِهِ وأَيْمانِهِ»[1].

تاسعًا: السخرية والاستهزاء وكثرة المُزاح

السُّخْـرِيَّـة: الهـزء، سَخِـر منـه وبـه سَخْـرًا وسَخَـرًا ومَسْخَـرًا وسُخْـرًا بالضم، وسُخْرةً وسِخريًّا وسُخريًّا وسُخْرِيَّةً: هزىء به. قال الأعشى:

إننـــي أتتنـــي لســـانٌ لا أُسَـــرُّ بهـــا ۞ من عَلْوَ لا عَجَبٌ منها ولا سُخْرُ[2]

والاستهزاء: السُّخْرِيَةُ، هَزَأَ يهْزَأُ فيهما هُزءًا وهُزُوءًا ومَهْزَأَةً وتهزَّأَ واستهزَأَ به: سَخِر[3].

والسخرية في الاصطلاح: الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يُضحِك، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول،

(١) العقد الفريد.

(٢) اللسان (سخر).

(٣) اللسان (هزأ).

وقد يكون بالإشارة والإيماء، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسمَّ ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة[(١)].

والمَزْح: الدُّعابة، وهو نقيض الجِدّ، مَزَح يمزح مَزْحًا ومِزاحًا ومُزاحًا ومُزاحة. وقد مازحه ممازحةً ومِزاحًا والاسم المُزاح، بالضم، والمُزاحة أيضًا[(٢)].

ولا يعد المزح آفة من آفات اللسان إلاَّ إذا أفرط فيه المازح وداوم عليه، أما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك وكثرة الضحك تميت القلب[(٣)]، وأما المداومة فإنها تصرف عن الجدِّ وتضيع العمر باللهو واللعب والهزل، وفي ذلك ما فيه من التفريط بأثمن ما يمكن أن ينتفع به الإنسان وهو الوقت والزمن.

وسنتناول هذا الخلق الذميم من الجوانب التالية:

(أ) أثره وجزاؤه.

(ب) القدر المسموح به منه.

(ج) سبل اجتنابه.

(أ) أثره وجزاؤه:

أما السخرية والاستهزاء فلا ريب في خطرهما وأثرهما السيِّىء، ولا سيما في نفس المستهزأ به والمسخور منه! وماذا ينتظر من إنسان استهزىء منه؟ إلاَّ النفور والكراهية. والبغض الذي قد يؤدي إلى حقدٍ وغلٍّ وضغينة!

ولذلك حرَّم ربنا سبحانه السخرية والاستهزاء بصريح اللفظ في قوله:

---

(١) الإحياء ٣/ ١٣١.

(٢) اللسان (مزح).

(٣) الإحياء ٣/١٢٨.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات: ١١].

وأخبر رسول الله ﷺ أن جزاء هؤلاء المستهزئين من جنس عملهم وذلك بقوله: «إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب الجنة فيقال: هلمّ هلمّ، فيجيء بكربِه وغمِّه، فإذا أتاه أُغلِقَ دونه، ثم يفتح له باب آخر فيقال: هلمَّ هلمَّ، فيجيء بكربه وغمِّه، فإذا أتاه أُغلق دونه، فما يزالُ كذلك حتى إن الرجلَ ليُفتح له البابُ فيقال له: هلمَّ هلمَّ فما يأتيه»[١].

وأمَّا المُزاح فإن كثرته والإفراطَ فيه هو المذموم المنهي عنه، لأنه يَصِمُ المازح، ويُضيم الممازح؛ فوصمة المازح أن يذهب عنه الهيبة والبهاء، ويُجرىء عليه الغوغاء والسفهاء، ويورث الغلَّ في قلوب الأكابر والنبهاء[٢]، ولذلك قيل في منثور الحكم: «المُزاح يأكل الهيبةَ كما تأكل النار الحطب»[٣]، وقال عمر للأحنف: «من كثر ضحكه قلَّت هيبته، ومن أكثر من شيء عُرف به، ومن كثر مُزاحه كثر سَقَطهُ، ومن كثر سقطه قلَّ ورعه، ومن قلَّ ورعه ذهب حياؤه، ومن ذهب حياؤهُ مات قلبه»[٤].

وأما إضامَة الممازح فلأنَّه إذا قوبل بفعل ممضٍّ أو قولٍ مستكرهٍ وسكت عليه أحزن قلبه وأشغل فكره، وربَّما أورثه بغضًا وحقدًا لا يزول، وأتبعه انتقامًا وشرًّا لا ينتهي. وما أحسن قول أبـي نواس في هذا:

---

(١) الصمت وآداب اللسان، ص ١٨٦.

(٢) المراح في المزاح، للغزي، بعناية بسام عبد الوهاب الجابـي، الجفان والجابـي ودار ابن حزم، بيروت ـ لبنان، ط ١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م، ص ٣٦.

(٣) المراح في المزاح، ص ٣٧.

(٤) البيان والتبيين ٢/ ١٨٨.

مُــتْ بــداء الصمــت خيــرٌ ... لـــك مـــن داء الكــلامِ
إنمــا الســالــم مــن ألجــم ... فـــاه بلجـــامِ
ربَّمــا يستفتـــح المَــزْ ... حَ مغـــاليـــق الحِمـــام
والمنـــايـــا آكـــلاتٌ ... شـــاربـــاتٌ لـــلأنـــامِ[1]

وقال عمر بن عبد العزيز: «اتقوا المُزاح فإنها حَمْقَةٌ تورث ضغينة»، وقال بعْضُ الحكماء: «إنما المُزاح سبابٌ، إلاَّ أن صاحبه يضحك»[2].

وقال السابوري في قصيدته الجامعة للآداب:

شـــرّ مُـــزاحِ المـــرءِ لا يقـــالُ ... وخيـــرُهُ يـــا صـــاح لا يُنـــالُ
وقـــد يقـــالُ كثـــرةُ المُـــزاحِ ... مـن الفتـى تـدعـو إلـى التلاحـي
إن المُـــزاحَ بـــدؤُهُ حـــلاوهْ ... لكنَّمـــا آخـــره عَـــداوهْ
يحقـدُ منـهُ الـرجـل الشـريـفُ ... ويجتـري بسُخْفـهِ السَّخيـفُ[3]

من أجل ذلك كله حُرِّم هذا الضرب من المُزاح بقوله ﷺ: «لا تمارِ أخاكَ ولا تمازحْهُ»[4]، وكان جزاء مرتكبه عظيمًا لا يقل عن جزاء مرتكب الكبائر إن كان مزحه مما يؤدِّي إلى ما ذكرنا من المفاسد والنتائج الخطيرة، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحِك بها جلساءَه يهوي في النار أبعد من الثريا»[5].

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٧٩.
(٢) أدب الدنيا والدين، ص ٣١٠، والمراح في المزاح، ص ٣٧.
(٣) المراح في المزاح، ص ٣٨.
(٤) رواه الترمذي من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنه، انظر: الجامع الصحيح، تحقيق أحمد شاكر وإبراهيم عوض، بيروت ــ دار إحياء التراث العربي ٤/ ٣٥٩، رقم ١٩٩٥.
(٥) رواه البخاري، صحيح البخاري، باب حفظ اللسان، رقم ٦٤٧٧.

(ب) القدر المسموح به منه:

ليس كل المزاح حرامًا، فقد تقدَّمت الإشارة إلى أن الإفراط فيه والإكثار منه هو المنهي عنه، أما القدر اليسير الذي يشيع السرور ويروِّح القلوب وينفي عنها السآمة والملل، وينشطها على الطاعة والعمل، فهو مندوبٌ إليه مطلوب لذاته، لا سيَّما بين الإخوان، والأصدقاء والخلَّان، جاء في اللسان عن الأزهري: «المُزَّح من الرجال الخارجون من طبع الثقلاء، المتميزون من طبع البغضاء»[1]، وقد سئل سفيان: المزاح هجنة؟ فقال: بل سنة، لقوله عليه السلام: «إني لأمزحُ ولا أقول إلاَّ الحقّ»[2]. وأنشد أبو فراس:

أروِّح القلبَ ببعضِ الهزْلِ ... تجاهلاً مني بغير جهلِ
أمزحُ فيه مزحَ أهل الفضل ... والمزحُ أحيانًا جلاء العَقلِ[3]

وقديمًا مدح الشعراء الرجل الذي يخلط الجدَّ بشيء من الفكاهة واللعب فقال أبو تمام:

الجِدُّ شيمتُهُ وفيه فُكاهةٌ ... طورًا ولا جدٌّ لمن لم يلعبِ[4]

وقال الأبيرِد:

إذا جَدَّ عند الجِدِّ أرضاكَ جِدُّهُ ... وذو باطلٍ إن شئتَ ألهاكَ باطلُهْ[5]

وعلى هاتين الحالتين كان مزح رسول الله ﷺ وأصحابه وتابعيه

---

(١) اللسان (مزح).

(٢) المراح في المزاح، ص ٤١.

(٣) المراح في المزاح، ص ٤٠.

(٤) المراح في المزاح، ص ٤١.

(٥) المراح في المزاح، ص ٤٠.

والعلماء والأئمة، وسأسوق فيما يلي طرفًا من الأحاديث والأخبار والآثار التي وردت في ذلك:

• قدم صهيب من مكة فنزل على النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، فدخل النبي ﷺ عليه وهو يشتكي عينيه وهو يأكل تمرًا، فقال: «أيا صُهيب! تأكل التمر على علة عينيك؟!»، فقال: إنما آكل من الشِّق الصحيح. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذُهُ[1].

• أتت عجوز من الأنصار إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ادعُ لي بالمغفرة، فقال لها: «أما علمت أن الجنَّة لا يدخلها العجائز» فبكت، فتبسم رسول الله ﷺ وقال لها: «لست يومئذ بعجوز، أما قرأت قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ۝٣٧﴾ [الواقعة: ٣٥ ـ ٣٧]»[2].

• نظر عمر بن الخطاب إلى أعرابي يصلي صلاة خفيفة، فلمَّا قضاها قال: اللّٰهم زوجني بالحور العين، فقال عمر: أسأت النقد وأعظمتَ الخِطبة[3].

• جاء رجل إلى أبي حنيفة فقال له: إذا نزعت ثيابي ودخلت النهر أغتسل، فإلى القبلة أتوجّه أم إلى غيرها؟ فقال له: الأفضل أن يكون وجهك إلى جهة ثيابك لئلا تسرق[4].

• سأل رجل الشعبي عن المسح على اللحية، فقال: خللها

---

(١) رواه ابن ماجه، رقم ٣٤٤٣.
(٢) رواه الترمذي في الشمائل، رقم ٢٤١.
(٣) المراح في المزاح، ص ٦٠.
(٤) المراح في المزاح، ص ٨٩.

بأصابعك، فقال: أخاف ألاَّ تبلَّها، قال الشعبي: إن خفت فانقعها من أول الليل[1].

• وروي أن خياطًا مرَّ بالشعبي، وهو مع امرأة في المسجد، فقال: أيُّكما الشعبي؟ فقال مشيرًا إليها: هذه[2]!

• ومن مستحسن المزح ومستسمح الدُّعابة ما حكي عن الكندي أن القشيري وقف عليه شيخ من الأعراب، فقال: يا أعرابي، ممن أنت؟ فقال: من بني عقيل، قال: من أيِّ عقيل؟ قال: من بني خفاجة. فقال القشيري:

رأيت شيخًا من بني خفَاجَهْ

فقال الأعرابي: ما شأنه؟ فقال:

له إذا جَنَّ الظلام حاجَهْ

فقال الأعرابي: ما هي؟ قال:

كحاجَة الديكِ إلى الدجاجَهْ

فاستغرب الأعرابي وقال: قاتلك الله ما أعرفكَ بسرائر القوم[3].

(ج) سبل اجتنابه:

ينطبق على هذه الآفة ما ينطبق على كثير من آفات اللسان، فالسبيل الأمثل إلى اجتناب سوئها وضررها هو التحكم باللسان، والتبصر بعواقب ما يقوله الإنسان، وإعمال الفكر والعقل قبل الانخراط فيما لا يحمد عقباه. ولا ريب أن مما يساعد على ذلك ويضمن الحدَّ من المزح والإقلاع عن السخرية

---

(١) المراح في المزاح، ص ٨٥.

(٢) المراح في المزاح، ص ٨٦.

(٣) أدب الدنيا والدين، ص ٣١٢ ـ ٣١٣، والمراح في المزاح، ص ٩٢.

والاستهزاء أن يشغل المرء نفسه بعزائم الأمور وجلائل الأعمال:

على قَدْرِ أَهْلِ العزمِ تأتي العزائمُ   وتأتي على قَدْرِ الكِرامِ المكارمُ[1]

وأن يوقن أن أعمالَه محسوبة عليه، فلا يغفل عن حساب الله، ووعيده في الآخرة، وشديد عقابه لمن فرَّط في حق نفسه وفي حق غيره. فالرسول الكريم ﷺ يقول: «يا أمة محمدٍ، والله لو تعلمونَ ما أعلمُ لبكَيتُم كثيرًا ولضحكتُم قليلاً»[2].

وكم من ضاحكٍ عابثٍ لاهٍ عن ذكر الله منصرفٍ عن التدبر والتفكر، والموتُ متربصٌ به، وهو أقرب إليه من شِراك نعله:

وكم من فتًى يمسي ويصبح لاهيًا   وقد نُسجت أكفانُه وهو لا يدري

ورحم الله عمر بن عبد العزيز فقد دلَّنا على ما يغنينا عن الاستغراق في المزح والدعابة حيث قال: «اتقوا الله، وإياكم والمزاحَ، فإنه يورث الضغينة ويجرّ إلى القبيح، تحدثوا بالقرآن وتجالَسوا به، فإن ثقل عليكم فحديث حسنٌ من حديث الرجال»[3].

وفسَّر ابن عباس رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ [الكهف: ٤٩]، بأن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن، والكبيرة القهقهة بذلك[4].

وفي هذا دلالة واضحة على كراهية السخرية والاستهزاء ما قلَّ منهما وما كثر، أما المزح فالمطلوب القصد فيه، قال سعيد بن العاص لابنه وهو

(١) ديوان المتنبي ٣/ ٣٧٨.
(٢) رواه البخاري من حديث عائشة، رقم ٦١٤١.
(٣) الإحياء ٣/ ١٢٨.
(٤) الإحياء ٣/ ١٣١.

يعظه: «اقتصدْ في مزاحك، فإن الإفراط فيه يذهب البهاء ويجرِّىء عليك السفهاء، وإن التقصير فيه يفضُّ عنك المؤانسين، ويوحش منك المصاحبين»[1].

وما أجمل ما قال في ذلك أبو الفتح البستي:

أفِد طبعكَ المكدودَ بالجِدِّ راحةً ... يُجمُّ وعَلِّلْهُ بشيءٍ من المَزْحِ
ولكن إذا أعطيتَه المزحَ فليكنْ ... بمقدار ما تعطي الطعامَ من المِلْحِ[2]

❑ ❑ ❑

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٣١٠ ـ ٣١١.
(٢) أدب الدنيا والدين، ص ٣١١، والمراح في المزاح، ص ٤٠.

الفصل الثالث

سبل حفظ اللسان

عرضنا فيما تقدم أبرز الآفات التي يبتلى بها اللسان، وتطرقنا في كل منها إلى بيان سبل الحد منها واجتنابها، ولا بدَّ لنا في ختام القول أن نبيِّن أن حفظ اللسان إنما يتحقق للإنسان باتِّباع ما يلي:

أولاً: اجتناب آفات اللسان:

وذلك بالقضاء على أسبابها، وتحامي الركون إلى أصحابها، ممَّن ابتلي بها، أو قارف بعضًا منها. وإحكام السيطرة على اللسان ليكون ما يصدر عنه موافقًا للشرع، نازعًا إلى الخير، مخالفًا للشرِّ، مُحكَمًا بسلطان العقل، ولا ريب أن تمام هذا الإحكام يتحقق بإيمان المرء ويقينه بالله واليوم الآخر: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق: ١٨].

ثانيًا: انشغال اللسان بالفضائل والمحاسن، وعناصر الخلق النبيل، ومعالم السلوك الطيب:

فللسان محاسن كثيرة وفضائل عظيمة، إذا هو تمسك بها كُفَّ عن تلك الآفات التي مرَّ ذكرها، وساعده ذلك على تجنبها والسلامة منها، فاللسان مضغةٌ إن لم تشغلْها شغلتك، فإن أنت شغلتها بالخير كفَّت عن الشر، وإن شغلتها بالفضائل كفت عن الرذائل، وسأسرد فيما يلي طرفًا من هذه الفضائل:

(أ) **قراءة القرآن**: ففي هذه القراءة مجامع الخير: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، والله سبحانه وتعالى أمرنا بها: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]، ورسوله ﷺ حضَّنا عليها بقوله: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (ألم) حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف»[١]، وبقوله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[٢].

وقد صوَّر ﷺ من يقرأ القرآن ومن لا يقرؤه تصويرًا مبدعًا عندما قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجَّة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريحَ لها وطعمها حلوٌ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيِّب وطعمها مرّ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة لا ريحَ لها وطعمُها مرّ»[٣].

(ب) **الأذكار**: ذكر الله واستغفاره والابتهال والدعاء يجعل المرء على صلة بربه ويصرف اللسان عن كثير من الآفات التي يمكن أن تعتريه، يقول ربنا جلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢]، ويقول نبينا عليه الصلاة والسلام: «مَثَل الذي يذكر ربَّهُ والذي لا يذكره مَثَل الحيِّ والميِّت»[٤].

ومن جميل صنع الله بنا ـ معشر المسلمين ـ أن سنَّ لنا على لسان

---

(١) رواه الترمذي من حديث عبد الله بن مسعود، رقم ٢٨٣٥.

(٢) رواه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو، رقم ٢٨٣٨.

(٣) رواه البخاري من حديث أبي موسى الأشعري، صحيح البخاري ٥/ ٢٠٧٠، رقم ٥١١١.

(٤) الأذكار، ص ٣٢.

رسوله ﷺ جُملةً من الأذكار والأدعية والأوراد تبدأ من لدن استيقاظ المرء صباحًا وتنتهي بنومه مساءً، فلا تغادر صغيرة ولا كبيرة في حياته إلاَّ وتشفعها بدعاء أو ذكر أو ورد، ولعلَّ أشهر كتاب وضع في ذلك كتاب الأذكار للإمام يحيى بن شرف النووي رحمه الله تعالى.

(ج) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهو ما شرَّف الله سبحانه به هذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ومن هذا القبيل النصيحة التي يقول فيها نبينا ﷺ: «الدين النصيحة»، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامَّتهم»[(١)].

(د) السلام: وهو مفتاح المحبَّة والمودَّة، وضمان زيادتها واستمرارها، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء: ٨٦]، ويقول ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أفلا أدلكم على أمرٍ إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام فيما بينكم»[(٢)].

(هـ) مصاحبة الفضلاء وذوي المكارم: فمن شأن الصاحب أن يؤثر في صاحبه، ومن شأن الجليس أن يشدَّ جليسه إلى ما هو فيه: «مثلَ الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شيء أصابك من ريحه ومثل الجليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه».

---

(١) رواه مسلم من حديث تميم الداري، رقم ٨٢. وانظر: الوافي في شرح الأربعين النووية، ص ٤١.

(٢) رواه مسلم، رقم ٨١.

ثالثًا: الصمت:

من أعياه أمرُ لسانِه، وغلب عليه شرُّ شيطانِه، فلم يستطع أن يتحامى ما ذكرناه من آفاته، ولا أن يتحلى بما تقدم من فضائله ومحاسنه، فليس له إلاَّ أن يلوذ بالصمت، فهو خيرٌ له من أن ينساق مع بلايا اللسان، أو ينجرف في متاهات الشيطان. ورسولنا ﷺ بيَّن لنا ذلك في حديثه الجامع: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[1]. وقد عُدَّ الصمت فضيلةً لأنه يقي من شرور كثيرة، ولهذا دارت حوله كلمات ونظمت فيه أشعار وصنفت في فضله مصنفات لعل أشهرها كتاب ابن أبي الدنيا (الصمت وآداب اللسان)، وفيما يلي قبس مما جاء فيه:

* قال كعب: «قلة المنطق حكم عظيم، فعليكم بالصمت، فإنه رِعة[2] حسنة وقلة وِزْرٍ، وخفَّة من الذنوب»[3].

* قال أنس بن مالك لرجل بعثه في حاجة: «إياك وكلَّ أمر تريد أن تعتذر منه، وإذا أردت أن تتكلم بكلام فانظر فيه قبل أن تتكلم به، فإن كان لك فتكلم به، وإن كان عليك فالصمت عنه خير لك»[4].

* قال سفيان: كان يقال: «طول الصمت مفتاح العبادة».

* عن يحيى بن بسطام قال: قلت لجار لضيغم: سمعتَ أبا مالك يذكر من الشعر شيئًا؟ قال: ما سمعته يذكر إلاَّ بيتًا واحدًا: قلت ما هو؟ قال:

---

(١) تقدم ذكر الحديث وتخريجه، ص ١٣٠.

(٢) من الورع وهو حسن الخلق.

(٣) الصمت وآداب اللسان، ص ٢٥٥.

(٤) الصمت وآداب اللسان، ص ٢٥٧.

قـد يخـزِنُ الـورِعُ التقـيُّ لسـانَـهُ   حَـذَرَ الكـلامِ وإنَّـه لمفـوَّهُ[1]

* قال ابن عباس رضي الله عنهما للسانه: «ويحكَ، قل خيرًا تغنم وإلاَّ فاعلم أنك ستندم. قال: فقيل له: أتقول هذا؟! قال: بلغني أن الإنسان ليس هو يوم القيامة أشدَّ منه على لسانه، إلاَّ أن يكون قال خيرًا فغنم أو سكت فسلِم»[2].

وبعد، فحفظ اللسان مكرمة جليلة من مكارم الأخلاق التي تحلَّى بها العرب منذ قديم الأزمان وجاء الإسلام فثبَّتها وتمَّمها: «إنَّما بعثت لأتمِّمَ مكارم الأخلاق»[3]، وأولاها المرتبة اللائقة بها؛ فالأخلاق لحمة الإسلام وسداه، وليست إطارًا يصون حدوده ومنتهاه:

عَشِـقَ المكـارمَ فهـو معتمـدٌ لهـا   والمكـرمـاتُ قليلـةُ العُشَّـاقِ
وأقـام سـوقًـا للثنـاء ولـم تكـن   سـوقُ الثنـاء تُعـدُّ فـي الأسـواقِ
بثَّ الصنائع في البلاد فأصبحت   تُجبـى إليـه مكـارمُ الأخـلاقِ[4]

□□□

(١) الصمت وآداب اللسان، ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨.
(٢) الصمت وآداب اللسان، ص ٢٥٩ ــ ٢٦٠.
(٣) رواه أحمد من حديث أبـي هريرة، رقم ٨٥٩٥.
(٤) عيون الأشعار وروائع الأفكار، ص ٢٢١.

ثَبت المصادر والمراجع

١ ــ **آل القاسمي ونبوغهم في العلم والتحصيل**، للشيخ محمد بن ناصر العجمي، بيروت ــ دار البشائر الإسلامية، ط ١، ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م.

٢ ــ **أباطيل وأسمار**، لمحمود محمد شاكر، القاهرة مكتبة الخانجي.

٣ ــ **أبو العتاهية أشعاره وأخباره**، لأبـي العتاهية، تحقيق د. شكري فيصل، دمشق ــ مطبعة جامعة دمشق، ١٣٨٤هـ ــ ١٩٦٥م.

٤ ــ **الإتقان في علوم القرآن**، للسيوطي، بيروت ــ المكتبة الثقافية، ١٩٧٣م.

٥ ــ **أثر القراءات في الأصوات**، د. عبد الصبور شاهين، القاهرة ــ مكتبة الخانجي، ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٧م.

٦ ــ **إحياء علوم الدين**، لمحمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، بيروت ــ دار المعرفة للطباعة والنشر، ٥ أجزاء.

٧ ــ **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، لعبد الرحمن حبنكة، دمشق ــ دار القلم، ط ٣، ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٢م، جزءان.

٨ ــ **أدب الدنيا والدين**، لأبـي الحسن على البصري الماوردي (ت ٤٥٠هـ)، تحقيق د. محمد صبّاح، بيروت ــ دار مكتبة الحياة ١٩٨٧م.

٩ ــ **أدب الكاتب**، لابن قتيبة، تحقيق د. محمد بن أحمد الدالي، بيروت ـ دار الرسالة.

١٠ ــ **الأدب المفرد**، للبخاري، بيروت ــ دار الكتب العلمية.

١١ ــ **الأذكار**، ليحيى بن شرف الدين النووي (ت ٦٧٦هـ)، تحقيق محمد أديب الجاور، دمشق ــ دار البشائر، ط ١، ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م.

١٢ ــ **أساس البلاغة**، لمحمود بن عمر الزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، بيروت ــ دار المعرفة، ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م.

١٣ ــ **أسس علم اللغة**، ماريوباي، ترجمة د. أحمد مختار عمر، القاهرة ــ عالم الكتب، ط ٢، ١٩٨٣م.

١٤ ـ **الإصباح في شرح الاقتراح**، للسيوطي، د. محمود فجال، دمشق ـ دار القلم، ط ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

١٥ ـ **الأضداد**، لابن الأنباري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الكويت ـ دائرة المطبوعات والنشر، ١٩٦٠م.

١٦ ـ **أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة**، لنايف خرما، الكويت ـ سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٧٨م.

١٧ ـ **إعراب القراءات لابن خالويه**، (٣٧٠هـ) تحقيق د. عبد الرحمن العثيمين، القاهرة ـ مكتبة الخانجي، ط ١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

١٨ ـ **الأعلام**، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٥، ١٩٨٠م.

١٩ ـ **الأغاني**، أبو الفرج الأصفهاني، بعناية د. يوسف علي الطويل، بيروت ـ دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٢٠ ـ **الإغراب في جدل الإعراب**، لابن الأنباري، تحقيق سعيد الأفغاني، جامعة دمشق.

٢١ ـ **الأمالي**، لأبي علي القالي، بيروت ـ دار الكتب العلمية.

٢٢ ـ **أمالي الزجاجي**، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت ـ دار الجيل، ط ٢، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢٣ ـ **أمراض الكلام**، د. مصطفى فهمي، القاهرة ـ مكتبة مصر ودار مصر للطباعة.

٢٤ ـ **أنس المسجون وراحة المحزون**، لعيسى بن البحتري الحلبي، تحقيق محمد أديب الجادر، دمشق ـ دار البشائر، ط ١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٢٥ ـ **الإيضاح في علوم البلاغة**، للقزويني، تحقيق د. محمد السعدي فرهود وزملائه، القاهرة ـ دار الكتاب المصري، وبيروت ـ دار الكتاب العربي، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٢٦ ـ **بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس**، ليوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق محمد مرسي الخولي، بيروت ـ دار الكتب العلمية، مجلدان، ط ٢، ١٩٨١م.

٢٧ ـ **بهجة النفوس في تجويد كلام القدوس**، محمد مأمون كاتبي، الكويت ـ وزارة الأوقاف.

٢٨ ــ **البيان النبوي مدخل ونصوص**، د. عدنان زرزور، مكتبة دار الفتح بدمشق، ط ١، ١٣٩٣هـ.

٢٩ ــ **البيان والتبيين**، لعمرو بن بحر الجاحظ، (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، دمشق ــ دار الفكر.

٣٠ ــ **تاج العروس**، للزبيدي، تحقيق نخبة من العلماء، الكويت ــ المجلس الوطني للثقافة والآداب.

٣١ ــ **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، (ت ٧٤٨هـ)، حوادث ووفيات (١٤١هـ ــ ١٦٠هـ)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت ــ دار الكتاب اللبناني، ط ٢، ١٩٨٩م.

٣٢ ــ **تاريخ بغداد**، للخطيب البغدادي.

٣٣ ــ **الترغيب والترهيب**، لعبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق محيي الدين مستو وزملائه، دمشق ــ بيروت ــ دار ابن كثير، ط ٢، ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٦م، ٤ أجزاء.

٣٤ ــ **التلخيص في علوم البلاغة**، للقزويني، بعناية عبد الرحمن البرقوي، بيروت ــ دار الكتاب العربي، ط ٢، ١٩٣٢م.

٣٥ ــ **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**، للرماني والخطابي والجرجاني.

٣٦ ــ **جامع الأصول من أحاديث الرسول**، لابن الأثير الجزري، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت ــ دار إحياء التراث العربي، ط ٤، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م.

٣٧ ــ **الجامع الصحيح**، لمحمد بن عيسى الترمذي، (ت ٢٩٧هـ)، تحقيق أحمد شاكر وإبراهيم عطوة عوض، بيروت ــ دار إحياء التراث العربي، ٥ أجزاء.

٣٨ ــ **الجامع الكبير**، لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (ت ٩١١هـ)، مخطوط دار الكتب المصرية، مجلدان.

٣٩ ــ **جمهرة خطب العرب**، أحمد زكي صفوت.

٤٠ ــ **جهود المالقي الصوتية في كتابه الدر النثير**، محمد حسان الطيان، أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه عام ١٩٩٤م وهي قيد الطبع.

٤١ ــ **جواهر الأدب**، أحمد الهاشمي.

٤٢ ــ **حجة القراءات**، لابن زنجلة، تحقيق الأستاذ سعيد الأفغاني، بيروت ــ دار الرسالة.
٤٣ ــ **الحيوان**، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت ــ دار الجيل، ١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م.
٤٤ ــ **خزانة الأدب**، عبد القادر البغدادي، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ــ مكتبة الخانجي، ط ٣، ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م.
٤٥ ــ **الخصائص**، لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية للكتاب، ط ٣، ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م.
٤٦ ــ **الخطابة السياسية في عصر بني أمية**، د. إحسان النص، دمشق ــ دار الفكر، ١٩٦٥م.
٤٧ ــ **خطب الإمام الحسين على طريق الشهادة**، لبيب بيضون، دمشق ١٩٧٤م.
٤٨ ــ **خلق المسلم**، لمحمد الغزالي، مصر ــ دار الكتب الحديثة، ط ٧، ١٣٨٤هـ ــ ١٩٦٤م.
٤٩ ــ **الدراسات اللغوية عند العرب**، محمد حسين آل ياسين.
٥٠ ــ **درر وتحف من تراث السلف**، لمحمد علي السراج، دمشق ــ منشورات وزارة الثقافة، ١٩٨٧م، جزءان.
٥١ ــ **دلائل الإعجاز**، للجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة ــ مكتبة الخانجي، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م.
٥٢ ــ **ديوان إبراهيم بن هرمة**، لإبراهيم بن هرمة (ت ١٥٠هـ)، تحقيق محمد جبار المعيبد، العراق ــ مطبعة الآداب في النجف الأشرف، ١٣٨٩هـ ــ ١٩٦٩م.
٥٣ ــ **ديوان الأعشى الكبير**، لميمون بن قيس الأعشى، تحقيق د. محمد أحمد قاسم، بيروت ــ المكتب الإسلامي، ط ١، ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٤م.
٥٤ ــ **ديوان الإمام الشافعي**، لمحمد بن إدريس الشافعي، جمعه وشرحه نعيم زرزور، بيروت ــ دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م.
٥٥ ــ **ديوان امرىء القيس**، لامرىء القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ــ دار المعارف بمصر، ط ٣.
٥٦ ــ **ديوان بشار بن برد**، محمد الطاهر ابن عاشور، القاهرة ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٦هـ ــ ١٩٥٧م.

٥٧ ــ **ديوان أبي تمام**، لحبيب بن أوس الطائي، (ت ٢٣١هـ)، تقديم وشرح د. محيي الدين صبحي، بيروت ــ دار صادر، ط ١، ١٩٩٧م، مجلدان.
٥٨ ــ **ديوان جرير**، شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين، بيروت ــ دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م.
٥٩ ــ **ديوان حسان بن ثابت الأنصاري**، تحقيق د. وليد عرفات، بيروت ــ دار صادر.
٦٠ ــ **ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت**، تحقيق د. نعمان طه، القاهرة ــ مكتبة الخانجي، ط ١، ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م.
٦١ ــ **ديوان ابن الدمينة**، صنعة أبي العباس ثعلب ومحمد بن حبيب، تحقيق أحمد راتب النفاخ، القاهرة ــ مكتبة دار العروبة، ١٩٥٩م.
٦٢ ــ **ديوان ابن الرومي**، تحقيق د. حسين نصار، القاهرة ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.
٦٣ ــ **ديوان ابن الرومي**، تحقيق عبد الأمير علي مهنا، بيروت ــ دار مكتبة الهلال، ط ١، ١٤١١هـ ــ ١٩٩١م.
٦٤ ــ **ديوان سَقط الزَّند**، لأبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرّي (ت ٤٤٩هـ)، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، بيروت ــ دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط ١، ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٨م.
٦٥ ــ **ديوان الشوقيات**، لأحمد شوقي، المكتبة التجارية الكبرى.
٦٦ ــ **ديوان صفي الدين الحلي**، لصفي الدين الحلي، (ت ٧٥٢هـ)، بيروت ــ دار صادر، ١٤١٠هـ ــ ١٩٩٠م.
٦٧ ــ **ديوان طرفة بن العبد**، بيروت ــ دار صادر.
٦٨ ــ **ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري**، لأبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي (ت ٣٥٤هـ)، تحقيق مصطفى السقا وزميليه، القاهرة ــ شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأخيرة، ١٣٩١هـ ــ ١٩٧١م، ٤ أجزاء.
٦٩ ــ **ديوان العباس بن الأحنف**، تحقيق د. عاتكة الخزرجي، دار الكتب المصرية.
٧٠ ــ **ديوان عنترة**، لعنترة بن شداد العبسي، بيروت ــ دار صادر، ط ٢، ١٤١٢هـ ــ ١٩٩٢م.

٧١ ــ **ديوان أبي الفتح البستي**، لأبي الفتح البستي، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، دمشق ــ مطبوعات مجمع اللغة العربية، ١٤١٠هـ ــ ١٩٨٩م.

٧٢ ــ **ديوان أبي فراس الحمداني**، شرح د. خليل الدويهي، بيروت ــ دار الكتاب العربي، ط ٢، ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م.

٧٣ ــ **ديوان الفرزدق**، تحقيق علي فاعور، بيروت ــ دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م.

٧٤ ــ **ديوان كعب بن زهير**، تحقيق علي فاعور، بيروت ــ دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م.

٧٥ ــ **ديوان محمد الوراق**، لمحمود الورّاق، تحقيق د. وليد قصّاب، عجمان ــ مؤسسة الفنون، ط ١، ١٤١٢هـ ــ ١٩٩١م.

٧٦ ــ **ديوان أبي نواس**، للحسن بن هانىء (ت ١٩٩هـ)، بيروت ــ دار صادر، ط ٢، ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٨م.

٧٧ ــ **ربيع الأبرار ونصوص الأخبار**، لمحمود بن عمر الزمخشري، تحقيق د. سليم النعيمي، قم ــ إيران ــ دار الذخائر للمطبوعات، ط ١، ١٤١٠هـ، ٥ أجزاء.

٧٨ ــ **رسالة التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي**، علي بن جعفر السعيدي، تحقيق د. غانم قدوري الحمد، مجلة المجمع العراقي، مج ٣٦، ج ٢، ١٩٨٥م.

٧٩ ــ **رسالة اللثغة**، للكندي، تحقيق محمد حسان الطيان، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مج ٦٠، ج ٣، ١٩٨٥م.

٨٠ ــ **رياض الصالحين**، ليحيى بن شرف الدين النووي (ت ٦٧٦هـ)، تحقيق عبد العزيز رباح وأحمد يوسف الدقاق، دمشق ــ دار المأمون للتراث، ط ٢.

٨١ ــ **زهر الآداب وثمر الألباب**، للحصري، تحقيق د. زكي مبارك، بيروت ــ دار الجيل، ط ٤.

٨٢ ــ **سر الإنسان بهذا اللسان**، لياسر المالح، محاضرة ألقيت في المركز الثقافي العربي بدمشق، ٢٩ نيسان ١٩٩٧م.

٨٣ ــ **سر صناعة الإعراب**، لابن جني، تحقيق حسن هنداوي، دمشق ــ دار القلم، ط ٢، ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٣م.

٨٤ ــ **سر الفصاحة**، لابن سنان الخفاجي، تحقيق علي فوده، القاهرة ــ مكتبة الخانجي، ط ٢، ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م.

٨٥ ــ **شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**، لزهير بن أبي سلمى، شرح وتعليق د. أحمد طلعت، بيروت ــ مؤسسة دار البيان ودار القاموس الحديث، ط ٢، ١٩٧٠م.

٨٦ ــ **شرح ديوان كعب بن زهير**، للحسن بن الحسين السكري، القاهرة ــ دار الكتب المصرية، ط ١، ١٣٦٩هـ ــ ١٩٥٠م.

٨٧ ــ **شرح ديوان أبي نواس**، تحقيق إيليا الحاوي، بيروت ــ الشركة العالمية للكتاب، ١٩٨٧م.

٨٨ ــ **شرح الصولي لديوان أبي تمام**، تحقيق د. خلف رشيد نعمان، الجمهورية العراقية ــ منشورات وزارة الثقافة والفنون، ١٩٧٨م.

٨٩ ــ **شرح عين العلم وزين الحلم**، لمنلا علي بن سلطان القاري (ت ١٠١٤هـ)، القاهرة ــ مكتبة الثقافة الدينية، مجلدان.

٩٠ ــ **الشعر**، لأبي علي الفارسي، تحقيق د. محمود الطناحي، القاهرة ــ مكتبة الخانجي، ط ١، ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م.

٩١ ــ **شعر الأخطل**، لغياث بن غوث التغلبي الأخطل، صنعة السكري، تحقيق د. فخر الدين قباوة، بيروت ــ دار الآفاق الجديدة، ط ٢، ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م، مجلدان.

٩٢ ــ **الصاحبي في فقه اللغة**، لابن فارس، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، بيروت ــ مكتبة المعارف.

٩٣ ــ **صحيح البخاري**، للبخاري، تحقيق د. مصطفى البغا، دمشق ــ دار العلوم الإنسانية، ط ٢، ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٣م.

٩٤ ــ **صحيح الجامع الصغير**، ناصر الدين الألباني.

٩٥ ــ **صحيح سنن أبي داود**، لأبي داود، صحح أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني، الرياض ــ مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط ١، ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م، ٣ أجزاء.

٩٦ ــ **صحيح مسلم**، لمسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت ــ دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٩٧٢م، ٥ أجزاء.

٩٧ ــ **الصداقة والصديق**، لأبي حيان التوحيدي.
٩٨ ــ **الصمت وآداب اللسان**، لعبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ)، تحقيق محمد بن عبد القادر أحمد عطا (موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا ــ المجلد الخامس)، بيروت ــ مؤسسة الكتب الثقافية، ط ٢، ١٤١٦هـ ــ ١٩٩٦م.
٩٩ ــ **طبقات فحول الشعراء**، لابن سلام، تحقيق محمود محمد شاكر، جدة ــ دار المدني.
١٠٠ ــ **طبقات النحويين واللغويين**، لمحمد بن الحسن الزبيدي، (ت ٣٧٩هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ــ دار المعارف بمصر، ط ٢.
١٠١ ــ **عبقرية اللغة العربية**، د. عمر فروخ، بيروت ــ دار الكتاب العربي، ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م.
١٠٢ ــ **عروس الأفراح**، للسبكي.
١٠٣ ــ **العقد الفريد**، لأحمد بن محمد ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ)، تحقيق أحمد أمين وزملائه، بيروت ــ دار الكتاب العربي، (١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م)، ٧ أجزاء.
١٠٤ ــ **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، لابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت ــ دار الجيل، جزءان.
١٠٥ ــ **عيوب اللسان واللهجات المذمومة**، د. رشيد عبد الرحمن، مجلة المجمع العراقي مج ٣٦، ج ٣، ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٥م.
١٠٦ ــ **عيون الأخبار**، لعبد الله بن سلم الدينوري ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، بيروت ــ دار الكتاب العربي.
١٠٧ ــ **عيون الأشعار وروائع الأفكار**، لهشام عبد الرزاق الحمصي، دمشق ــ بيروت ــ دار الكلم الطيب، ط ٢، ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٨م.
١٠٨ ــ **الفاضل في اللغة والأدب**، للمبرد، تحقيق عبد العزيز الميمني.
١٠٩ ــ **فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد**، لفضل الله الجيلاني، حمص ــ سوريا، المكتبة الإسلامية.
١١٠ ــ **فقه اللغة وسر العربية**، للثعالبي، تحقيق د. فائز محمد، بيروت ــ دار الكتاب العربي، ط ٢، ١٤١٦هـ ــ ١٩٩٦م.

١١١ ــ **فهارس كتاب سيبويه**، د. عبد الخالق عضيمة، القاهرة ــ دار الحديث، ط ١، ١٣٩٥هـ ــ ١٩٧٥م.

١١٢ ــ **في علم اللغة**، لغازي مختار طليمات، دمشق ــ دار طلاس، ط ١، ١٩٩٧م.

١١٣ ــ **الكامل في اللغة والأدب**، لأبي العباس بن يزيد الأزدي المبرّد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق د. محمد الدالي، بيروت ــ دار الرسالة، ٤ مجلدات.

١١٤ ــ **كتاب الكبائر وتبيين المحارم**، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق محيي الدين مستو، دمشق ــ بيروت ــ دار ابن كثير، ط ٢، ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م.

١١٥ ــ **كتاب العين**، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

١١٦ ــ **كشاف العبارات النقدية والأدبية في التراث العربي**، د. محمود ربداوي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط ١، ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م.

١١٧ ــ **كشف الإلباس**.

١١٨ ــ **الكشكول**، للعاملي، بيروت ــ دار الكتاب اللبناني، ط، ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م.

١١٩ ــ **الكفاف**، للأستاذ يوسف الصيداوي، دمشق ــ دار الفكر، ١٩٩٩م.

١٢٠ ــ **لسان العرب**، لمحمد بن مكرم ابن منظور (ت ٧١١هـ)، بيروت ــ دار صادر.

١٢١ ــ **اللغة والمجتمع**، لعلي عبد الواحد وافي، القاهرة ــ دار نهضة مصر، ١٩٧١م.

١٢٢ ــ **مبادىء تعلم وتعليم اللغة**، دوجلاس براون، ترجمة د. إبراهيم القعيد ود. عبيد الشمري، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م.

١٢٣ ــ **المتنبي**، محمود محمد شاكر، جدة ــ دار المدني، مصر ــ مكتبة الخانجي، ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م.

١٢٤ ــ **مثالب الوزيرين**، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق إبراهيم الكيلاني، دمشق ــ دار الفكر.

١٢٥ ــ **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، لابن الأثير، تحقيق د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، القاهرة ــ نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
١٢٦ ــ **مجالس العلماء**، للزجاجي، تحقيق عبد السلام هارون ــ القاهرة ــ مكتبة الخانجي، ط ٢.
١٢٧ ــ **مجالس العلماء**، لعبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، (ت ٣٣٧هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة والرياض ــ مكتبة الخانجي ودار الرفاعي، ط ٢، ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م.
١٢٨ ــ **مجمع الأمثال**، لأحمد بن محمد الميداني (ت ٥١٨هـ)، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دمشق ــ بيروت ــ دار النصر، ط ٣.
١٢٩ ــ **المحاسن والمساوىء**، لإبراهيم بن محمد البيهقي، بيروت ــ دار صادر ــ ودار بيروت، ١٣٨٠هـ ــ ١٩٦٠م.
١٣٠ ــ **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، لحسين بن محمد الراغب الأصبهاني، بيروت ــ دار مكتبة الحياة، جزءان.
١٣١ ــ **المحتسب**، لابن جني، تحقيق علي النجدي ناصف وزميليه، القاهرة ــ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٤م.
١٣٢ ــ **مختارات من أدب العرب**، لأبي الحسن الندوي، دمشق ــ دار ابن كثير، ط ١، ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م.
١٣٣ ــ **مختصر منهاج القاصدين**، لابن قدامة المقدسي، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط وشعيب الأرنؤوط، دمشق ــ مكتبة دار البيان.
١٣٤ ــ **المخصص**، لابن سيده، بيروت ــ المكتب التجاري للطباعة والنشر.
١٣٥ ــ **مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي**، د. محمود الطناحي، القاهرة ــ مكتبة الخانجي، ط ١، ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٤م.
١٣٦ ــ **المراح في المزاح**، لأبي البركات محمد بن محمد الغزي، بعناية بسام عبد الوهاب الجابي، بيروت ــ الجفان والجابي ودار ابن حزم، ط ١، ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧م.
١٣٧ ــ **المستطرف في كل فنٍّ مستظرف**، لمحمد بن أحمد الأبشيهي (ت ٨٥٤هـ)، تحقيق إبراهيم صالح، بيروت ــ دار صادر، ط ١، ١٩٩٩م، ٣ أجزاء.

١٣٨ ــ **المسند**، لأحمد بن محمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة ــ دار الحديث، ط ١، ١٤١٦هـ ــ ١٩٩٥م، ٢٠ جزءًا.
١٣٩ ــ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، لأحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وزملائه، بيروت ــ مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧م[1].
١٤٠ ــ **مصادر البحث اللغوي**، د. محمد حسن عبد العزيز، الكويت ــ دار الكتاب الجامعي، ١٩٩٧م.
١٤١ ــ **المصون في الأدب**، للعسكري.
١٤٢ ــ **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص**، عبد الرحيم العباسي، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، بيروت ــ عالم الكتب.
١٤٣ ــ **معجم الأخطاء الشائعة**، لمحمد العدناني، مكتبة لبنان، ط ٢، ١٩٨٣م.
١٤٤ ــ **معجم الأدباء**، لياقوت الحموي، بيروت ــ دار المستشرقين، ٢٠ جزءًا.
١٤٥ ــ **المعجم العربي، دراسة إحصائية صوتية مخبرية**، لمحمد حسان الطيان، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير عام ١٩٨٤م، وهي ما تزال مخطوطة.
١٤٦ ــ **المعجم الوسيط**، لإبراهيم أنيس، القاهرة ــ مجمع اللغة العربية، مطابع دار المعارف بمصر ١٣٩٣هـ ــ ١٩٧٣م.
١٤٧ ــ **معلقات العرب**، د. بدوي طبانة، دار المريخ، ط ٥، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م.
١٤٨ ــ **المغني في تصريف الأفعال**، د. عبد الخالق عضيمة، القاهرة، دار الحديث، ط ٣، ١٣٨٢هـ ــ ١٩٦٢م.
١٤٩ ــ **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، لابن هشام الأنصاري، تحقيق د. عبد اللطيف الخطيب، الكويت ــ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط ١، ١٤٢١هـ ــ ٢٠٠٠م.
١٥٠ ــ **المفاخرات والمناظرات**، عني بها د. محمد حسان الطيان، بيروت ــ دار البشائر الإسلامية، ط ١، ١٤٢١هـ ــ ٢٠٠٠م.
١٥١ ــ **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، القاهرة ــ دار نهضة مصر، ط ٣.

---

(١) هذه الطبعة من المسند هي المعتمدة ما لم تقيد الحاشية باعتماد طبعة الأستاذ شاكر.

١٥٢ ــ **ملحق المفيد في علم التجويد**، الحاجة حياة علي الحسيني، ط ١، ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٧م.

١٥٣ ــ **من تاريخ النحو العربي**، للأستاذ سعيد الأفغاني، الكويت ــ مكتبة الفلاح، ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م.

١٥٤ ــ **منهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين**، لأويس وفا بن محمد الأرزنجاني، طبعة حجرية، ١٣٢٨هـ.

١٥٥ ــ **النهاية في غريب الحديث والأثر**، لابن الأثير، تحقيق د. محمود الطناحي. القاهرة ــ مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٣هـ ــ ١٩٦٣م.

١٥٦ ــ **نهج البلاغة لأمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب**، لمحمد بن الحسين الموسوي، الشريف الرضي، (ت ٤٠٦هـ)، تحقيق الشيخ عزيز الله العطاردي، مؤسسة نهج البلاغة بإيران، ط ٢، (١٤١٦هـ ــ ١٩٩٥م).

١٥٧ ــ **نهج البلاغة**، للإمام علي بن أبي طالب، تحقيق مؤسسة نهج البلاغة، إيران، ط ٢، ١٤١٦هـ ــ ١٩٩٥م.

١٥٨ ــ **النوادر في اللغة**، لأبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري، (ت ٢١٥هـ)، بيروت ــ دار الكتاب العربي، ط ٢، ١٣٨٧هـ ــ ١٩٦٧م.

١٥٩ ــ **الوافي في شرح الأربعين النووية**، د. مصطفى البغا ومحيي الدين مستو، دمشق ــ دار العلوم الإنسانية.

١٦٠ ــ **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت ــ دار صادر، ١٣٩٨هـ ــ ١٩٧٨م.



المحتوى

الموضوع	الصفحة
* تقديم	٧

القسم الأول: فصاحة اللسان

الموضوع	الصفحة
مدخل في تعريف اللسان والفصاحة	١٣
أولاً: تعريف اللسان	١٣
ثانيًا: أهمية اللسان ووظائفه المختلفة	١٥
ثالثًا: تعريف الفصاحة	١٧
ـ الفصل الأول: أهمية الفصاحة	٢٠
أولاً: أهمية الفصاحة عند العرب وقيمة البيان لديهم	٢٠
ثانيًا: كيف أصبحت الفصاحة قيمة اجتماعية موروثة	٢٥
ـ الفصل الثاني: خصائص الفصاحة وشروطها	٤١
أولاً: عند علماء البلاغة	٤٣
(أ) في اللفظة المفردة	٤٤
(ب) في الكلام المركب	٥٤
ثانيًا: عند أهل الأدب والبيان	٦٢
ثالثًا: عند أهل الفصاحة واللّسن	٧١

الموضوع	الصفحة

- الفصل الثالث: أثر الفصاحة وطرق اكتسابها ٧٩
أولاً: أثر الفصاحة ٧٩
ثانيًا: اكتساب الفصاحة وتربية الأجيال عليها ٨٤
١ - تنشئة الطفل على سماع الكلام الفصيح ٨٦
٢ - قراءة النصوص الفصيحة ٨٩
٣ - تعلم النحو والبلاغة ٩٤
٤ - تعلم التجويد ٩٨
٥ - مزاولة الفصاحة قراءةً وكتابةً وكلامًا ١٠٢
٦ - أثر وسائل الإعلام في اكتساب الفصاحة ١٠٦
- الفصل الرابع: نماذج من فصيح القول ١٠٨

القسم الثاني: سلامة اللسان من الآفات

- الفصل الأول: مدخل إلى سلامة اللسان ١٢٩
- الفصل الثاني: آفات اللسان ١٣٣
أولاً: الفحش والسبّ ١٣٥
ثانيًا: الكذب ١٤٨
ثالثًا: الغيبة ١٦٠
رابعًا: النميمة ١٧٠
خامسًا: اللغو وكثرة الكلام ١٧٨
سادسًا: التقعر في الكلام ورفع الصوت ١٩٠
سابعًا: المراء والجدل والخصومة ١٩٨
ثامنًا: التملُّق والنفاق ٢٠٥

الموضوع	الصفحة
تاسعًا: السخرية والاستهزاء وكثرة المزاح	٢١٢
ـ الفصل الثالث: سبل حفظ اللسان	٢٢١
أولاً: اجتناب آفات اللسان	٢٢١
ثانيًا: انشغال اللسان بالفضائل والمحاسن	٢٢١
ثالثًا: الصمت	٢٢٤
* ثبَت المصادر والمراجع	٢٢٦

• • •

